

إيران وعلاقاتها الخارجية

ف

العصر الصفوي



محمد فتحي يوسف الرئيس

دار الثقافة للتمهيد والنشر

٢١ شارع كاسر حديد بالمدينة

ت. ٩١٩.٥٩٩ القاهرة

ايران وعلاقاتها الخارجية

في

العصر الصفوي

٩٠٦ - ١١٤٨ هـ / ١٥٠٠ - ١٧٣٦ م

تأليف

نصرالله فلسفي

ترجمة وتقديم

محمد فتحي يوسف الرئيس

دكتوراء في الآداب من جامعة طهران

١٩٨٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

هذا الكتاب فى الاصل باللغة الفارسية بعنوان « سياست خارجى ايران در دوره صفويه » من تأليف الاستاذ نصر الله فلسفى . والمؤلف يعد من افضل الاساتذة المعاصرين الذين كتبوا عن العصر الصفوى فى ايران وقد اتاح له عمله كمستشار ثقافى لايران فى اسبانيا وإيطاليا فرصة الاطلاع على ما تحويه مكتبات هاتين الدولتين من وثائق ومخطوطات وكتب استفاد منها فى تأليف هذا الكتاب .

وقد قمت بنقله الى اللغة العربية لما وجدته فيه من معلومات هامة تفتقر اليها المكتبة العربية عن هذه الفترة الخطيرة والهامة فى تاريخ العالم الاسلامى وتصاعد الصراع المذهبى بين الشيعة والسنة بشكل لم يكن ظاهرا او معروفا قبل ظهور الصفويين الذين استعانوا بالاوربيين فى سبيل تحطيم الخلافة الاسلامية العثمانية ، فمهدوا وسهلوا للاستعمار الاوروبى الاستيلاء على المشرق بأسره بل واقتطاع مساحات كبيرة من اراضيها .

وقد رايت ان اكتب مقدمة عن اصل الصفويين وكيفية وصولهم للحكم وما ارتكبه الشاه اسماعيل الصفوى من مذابح وحشية فى سبيل فرض المذهب الشيعى على اهل السنة فى ايران وما حولها ، نظرا لان عصره السياسى لم يرد فى الكتاب كغيره من ملوك الصفوية ، لعدم وجود علاقات بين ايران وأوروبا فى عهده .

وقد يعتب على البعض هذا التصوير الدامى لعصر الشاه اسماعيل الصفوى ، ولكننى اعتقد ان غالبية المؤرخين المعاصرين فى ايران

يذهبون معى هذا المذهب ، وقد يكتب بعضهم بنوع من التلميح خوفا
من المتعصبين للمذهب ، ويذهب بعضهم للتصريح احقاقا للحقيقة
والتاريخ واستشهد هنا بقول الزميل الفاضل الدكتور ابراهيم باستانى
باريزى الاستاذ فى جامعة طهران حيث يقول فى كتابه السياسة
والاقتصاد فى العصر الصفوى ، « فى الحقيقة فان مظالم جيش الشاه
اسماعيل وسلوكه المنحط تلوث القلم بالعار عند كتابتها ، فانهم بعد
ارتكاب المذابح كانوا يوزعون الزوجات على امراء القزلباشية » .

اما بقية العصر الصفوى فقد جاء ذكره بشكل أو اخر فى ثنايا
الكتاب مما قد يسهل مهمة القارئ ، ولعل الفرصة تتاح لى لكتابة
تاريخ مفصل لهذا العصر ان شاء الله .

وقد أضفت للكتاب بعض الحواشى والشروح ، كما أضفت اليه
ايضا بعض الخرائط والصور وهو ما ليس فى الكتاب الاصلى .

ارجو ان اكون قد اديت خدمة للمكتبة العربية والمهتمين بالتاريخ
الحديث ، كما اعتذر عن اى تقصير قد يلმسه القارئ فى هذا الكتاب
وبالله التوفيق .

القاهرة فى رمضان ١٤٠٩ دكتور محمد فتحى يوسف الرئيس

ابريل ١٩٨٩ دكتوراه فى الادب الفارسى

من جامعة طهران

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

الصفويون

أصلهم :

ينسب الصفويون الى الشيخ صفى الدين اسحق الازديلى (٦٥٠ - ٧٢٥ هـ) وكان شيخا لطريقة صوفية وله زاوية فى مدينة اردبيل (١) . وتجمع كل المصادر المعاصرة له أو اللاحقة به حتى قيام الدولة الصفوية سنة ٩٠٦ هـ على أنه كان شافعى المذهب ولم تشر من قريب أو بعيد الى انتسابه لاهل البيت (٢) . ولكن الكتب والمصادر التى دونت فى عهد الشاه اسماعيل الصفوى مؤسس الدولة ، أو تلك التى كتبت بعده ، أضفت عليه واخترعت له نسبا أو صلة للامام موسى الكاظم الامام السابع للشيعة الجعفرية أى الى الحسين بن على بن أبى طالب وذلك لكى يصير له ولاسرتة وخلفائه من بعده الحق أو الشرعية فى اعتلاء العرش وتوارثه ، ويستندوا الى النسب العلوى فى ادعاء الملك والسيطرة على الحكم .

ويعتز الايرانيون بالدولة الصفوية ايما اعتزاز ، ويصورونها على انها الدولة التى حققت حلمهم فى الوحدة والسيادة والقومية ، وانها اول دولة ايرانية تحكم بلادهم بعد استعمار طويل أو حكم أجنبى مستمر منذ الفتح العربى لايران ثم تبعة حكم الغزنويين والسلجقة والمغول والتتار (٣) ، واستثنوا حكم الدويلات الصفارية والسامانية والبويهية التى كان مؤسسوها من أصول ايرانية كما يدعون ويؤمنون .

(١) تقع فى اقليم اذربيجان الايرانية جنوب غرب بحر قزوين

(٢) زندكأنى شاه عباس المقدمة ص ٤

(٣) نفس المرجع ص ب وعالم أراى صفوى المقدمة ص ١٧ .

واذا أردنا مناقشة هذا الزعم وتحليل هذا الرأي وجدناه لا يخرج عن أحد تفسيرين .

أولهما ، أننا إذا أخذنا بالقول أن الصفويين ينتسبون إلى موسى الكاظم أى إلى أهل البيت فأننا بهذا نرجع نسبهم وأصلهم إلى أعرق القبائل العربية وهى قريش وتصير عروبة الصفويين أمرا لا شك فيه ولا مرأى ، طالت أقامتهم فى إيران أم قصرت ، ويصير حكمهم لإيران استمرارا أو عودة لحكم العرب لإيران ، وهو استمرار للحكم الاجنبى كما يصورون حكم الغزنويين والسلجقة وغيرهم من المسلمين الذين وصلوا إلى حكم هذه المنطقة .

ثانيهما ، أننا إذا قلنا أنهم لا ينتسبون إلى الامام موسى الكاظم أو لا ينتمون إليه وإلى أهل البيت وهو ما تتجه الدراسات الحديثة إلى القول به ، أصبح لزاما علينا أن نبحث عن أصلهم ونسبهم (*) .

من الجلى الواضح أن الصفويين لم ينتسبوا إلى أهل البيت الا بعد ان وصلوا إلى الحكم ، فلم يشر أى كتاب قبل توليهم السلطة إلى انتسابهم إلى الحسين بن على سوى كتاب صفوة الصفوة لابن البزاز والذى ألف فى عهد الشيخ صدر الدين بن صفى الدين ، وقد حدثت فى مخطوطات هذا الكتاب تغييرات كثيرة تجعله عرضة للشك .

ويؤيد عدم انتسابهم إلى أهل البيت ما كتبه رشيد الدين فضل الله الوزير المشهور لغازان خان المغولى ثم لخليفته أو لجايقوى رسالته لابنه أحمد حاكم أردبيل حيث يوصيه بالشيخ صفى الدين الأردبيلى ، وليس بها ما يشير إلى انتساب صفى الدين إلى أهل البيت وان كان

* نفس المرجع المقدمة ص ٤ و هامش ص ٤ .

(*) ألف أحمد كروى كتابا يثبت فيه عدم انتساب الصفويين إلى البيت وللأسف لم يصل لإيدنا .

يذكر علو منزلته في الدين والتصوف حيث يقول « جناب قطب فلك الحقيقة سباح بحر الحقيقة ، مساح مضمار الطريقة ، شيخ الاسلام والمسلمين ، برهان الواصلين ، قدوة الاصفياء ، زهرة دوحة الوفاء ، الشيخ صفى الملة والدين ، ادام الله تعالى بركان انفاسه الشريفة ٠٠٠ » وهذه العناوين والالقاب كانت مما يخاطب به كبار رجال اهل السنن وعلمائها واقطاب الصوفية وفحولها ولو كان الشيخ صفى الدين من اهل البيت لما اغفل هذا الوزير الفاضل الاشارة الى ذلك والاشادة به ، كما انه لو كان شيعيا لما نعته بشيخ الاسلام ، وقال آية الله او حجة الله او غيرها من المقاب رجال الدين الشيعة .

ويقول صاحب كتاب حياة الشاه عباس الاول « من المسلم به - كما يتضح من كتب التاريخ في زمن الشاه صفى واجداد الشاه اسماعيل - ان هذه الاسرة منذ عصر الشيخ صفى (٦٥٠ - ٧٢٥ هـ) الذي كانت فيه العناصر التركية والفارسية في اذربيجان مشخصه متمايزة ، كانت من الاسر المحلية الايرانية ، وانه كان يتكلم الاذرية (اى اللغة التركية المحلية في اذربيجان) كما تعلم التركية والمغولية في الكتاب (٥) واذا كان صاحب كتاب حياة الشاه عباس يرى أنهم من العناصر الايرانية او الفارسية فان مؤلف عالم اراى صفوى - المجهول - يذكر ان صفى الدين كان تركيا ، فحين تحدث عن اول لقاء جرى بين صفى الدين الازديبلى وشيخه الزاهد الجيلانى (٦) ، يقول :

« كان من عادة الشيخ ان يعتكف في خلوته في شهر رمضان لا يقابل احدا ، ولكنه في احد الاعوام ادرك بعلم هدايته ان صفى الدين

(٥) زندكاني شاه عباس اول ج ١ ص ٤ (الهامش) :
(٦) هو الشيخ الزاهد ابراهيم الجيلانى وكان قد تولى الطريقة عن الشيخ جمال الدين عن الشيخ شهاب الدين محمود الامرى والتي تنتهى الى الشيخ جنيد البغدادي الى معروف الكرخي :

وهل الى زاويته ، فخرج الى ابنه جمال الدين على وقال له اذهب الى المكان الفلاني في الزاوية وستجد شابا تركيا في مقبل العمر بهذه الملابس والعلامات (التي ذكرها الشيخ لابنه) وهو قائم يصلي هناك ، وعندما ينتهي من صلاته ويسلم قل له ان ابي الشيخ الزاهد يطلبك» (٧) . ثم يكمل قصة هذا اللقاء فيقول « فلما انتهى الشيخ الزاهد من اعتكافه ، رأى المريدون شيخهم يخرج من خلوته وقد وضع يده في يد شاب تركي » (٨) .

ونلاحظ ان مؤلف الكتاب نعت صفى الدين بأنه « شاب تركي » ولم يقل سيدا أو شريفاً أي من اهل البيت ، كما لم يقل أنه فارسي أو من جنس آخر بل قال صراحة أنه « تركي » .

ولهذا نرى ان القول بانتساب الصفويين الى اهل البيت ليس صحيحا لان ادعاء هذا النصب بعد وصولهم الى السلطة كان ذريعة لتثبيت ملكهم واضفاء الشرعية على حكمهم حتى لا ينازعهم فيه منازع ، ولكي يظهروا للناس انهم احق بتولي السلطة من ابناء جنسهم العثمانيين الذين اقاموا لهم دولة في اسيا الصغرى ثم تلقبوا بالقباب خلافة المسلمين بعد اخذها من خلفاء العباسيين في مصر (٩) .

ونحن لا نرجح ان الصفويين كانوا من العناصر الفارسية التي كانت تعيش في اذربيجان كما ذهب مؤلف كتاب حياة الشاه عباس ، لانهم لو كانوا كذلك ما حولوا ايران في عصرهم الى دولة كل ما فيها تركي أو للعناصر التركية حتى ضاع فيها الفرس واصبحوا غريباء في وطنهم، وهو ما سيتضح من هذه الدراسة .

وقد عاد صاحب كتاب حياة الشاه عباس الاول في موضع آخر فقال « يبدو ان الشاه طهماسب كان اول ملك من الاسرة الصفوية يدعى بالنسب لاهل البيت اذا وصل نسب جده الشيخ صفى الدين الاردبيلي

(٧) عالم اراى صفوى ص ١١

(٨) عالم اراى صفوى ص ١٢

الى الامام موسى الكاظم ، وأطلق على نفسه لقب طهماسب الصفوى الحسينى الموسوى ، تبعه الملوك الذين جاءوا بعده ومنهم الشاه عباس الذى كان يعد نفسه من اولاد على بن أبى طالب ، ولكن يتضح من كتب التواريخ المعاصرة أن هذا النسب لا يقوم على أساس صحيح فقه ثبت من الابحاث الحديثة أن فيروز شاه جد الشيخ صفى الدين السابع جاء من كردستان الى أذربيجان فى حوالى سنة ٥٦٩ هـ ، وأن أجداد الصفوية ايرانيون أصلاً » (١٠) .

ولعل قوله « ايرانيون أصلاً » لا تعنى تحديد جنسهم ، لأن المقصود بهذا هو تحديد الموطن لا تعيين الجنس ، فهو يعنى أنهم كانوا يعيشون فى إيران أو يحملون جنسيتها ، وأن المؤلف لو أراد تحديده جنس الصفويين لقال « أن أجداد الصفويين فرس أصلاً ، أو من أصل فارسى لأن المقابل لتركى هو فارسى وليس إيرانى لأن إيران كانت كانت ومازالت موطناً لعدة أجناس من أهمها الفرس والترك والعرب والاكراد وغيرهم وهذا هو الاصطلاح الذى تستعمله ادارات وكتب الإحصاء حالياً فى إيران » .

ولهذا فنحن نرجح ما ذهب اليه صاحب كتاب عالم أراى صفوى من أن صفى الدين الأردبيلى كان تركياً ، وبالتالي فإن أحفاده الذين أقاموا الدولة الصفوية كانوا أتراكاً ، ولا صحة لما زعموه من نسب الى أهل البيت ، كما أنهم لم يكونوا من الفرس أو الجنس الفارسى الذى يعتز بفارسيته وبلغته ، فى حين أننا نرى ملوك الصفويين كانوا يتكلمون التركية بل أن بعضهم نظم الشعر باللغة التركية ، كما كانت التركية لغة بلاطهم وديوانهم ، وما فعلوه بإيران وبالفرس لا يقبل فارسى أن يفعله بوطنه ومواطنيه (١١) .

(٩) يعقوب بن الميث الصفار ص ٢٨ .

(١٠) زندكأنى شاه عباس ص ٣ .

(١١) انظر كتاب « سياست واقتصاد در عصر صفوى » للدكتور

ابراهيم باستانى باريزى .

وصولهم الى السلطان

مقدمة الخفوذ :

كان الشيخ صفى الدين اسحق الاردبيلي رجلا زاهدا أشد الزهد حتى أنه كان يصوم اسبوعا كاملا لايتناول فيه الا وجبة واحدة من الطعام ، فلما منعه شيخة - وحموه فيما بعد - الشيخ الزاهد الحيلاني عن هذا ، كان يكتفى بلقمة من الارز فى اليوم ، ولم يكن يأكل اللحم أو الدسموم (١) .

ظل صفى الدين يلزم هذا الشيخ بعض الوقت ثم زادت الصلة بينهما وتوثقت بزواج الشيخ صفى من فاطمة ابنة شيخة ومرشده .
وحين أحس الشيخ الزاهد الحيلاني بدنو أجله ، أوصى بأن يحل صفى الدين محله فى رئاسة الطريقة التى كان يتوارثها عن الجنيد البغدادي عن السرى المسقطى عن معروف الكرخي (٢) ، وحرّم ابنه الذى كان يدعى جمال الدين من تولى هذا المنصب . وهذا انتقلت لصفى الدين رئاسة هذه الجماعة الدينية الكبيرة ، ومشیخة هذه الطريقة الصوفية التى كان لها كثير من الاتباع والمريدين فى جيلان وأذربيجان يقال ان عددهم كان مائة ألف مريد ، منهم اثنا عشر ألفا فى حضرة الشيخ، وكان له اربعمائة خليفة يتولون ارشاد هذه الجماعة والاشرافا على شئونها (٣) .

كانت هذه هى الخطوة الاولى على طريق الزعامة الدينية والسلطة الدنيوية التى تولاها الصوفيون بعد ذلك وأصبحت وراثّة فيهم .

(١) عالم اراى عباسى ص ١٣ .

(٢) نفس المرجع والمصفحة .

(٣) عالم اراى صفوى المقدمة ص ١١ .

المسال والاتباع :

بعد وفاة الشيخ صفى الدين اسحق ، خلفه ابنه صدر الدين موسى الذى استمر فى رعاية الاتباع والمريدين والعمل على استمرار هذه الطريقة ، فلما توفى بعده ابنه على بن صدر الدين موسى الذى ينسبون اليه - كما ينسبون لبقية ملوك هذه الاسرة تقريبا - الكثير من الكرامات خاصة مع تيمور جوركان « لك » الذى كان يعتقد فى هذا الشيخ اعتقادا كبيرا ، من ذلك ما يروونه من أن تيمور اثناء عودته منتصرا من حربه ضد ايلدرم (٤) بايزيد السلطان العثمانى قرب انقوريه (أنقره) (٥) ، مر بأردبيل وطلب من الشيخ على سياه بوش (٦) أن يتمنى أى شئ فطلب منه الشيخ على أن يطلق سراح الاسرى الروم (العثمانيين) الذين كانوا معه ، فأمر تيمور على الفور باطلاق سراح هؤلاء الاسرى والسبايا ، ولم يكتف بهذا بل اشترى تيمور ما حول أردبيل من مزارع وضياح من حلال ماله وأوقفها على زوايا الصوفييين وتكايهم فى أردبيل ، كما منح خراج تلك البلاد لهذه الاسرة وخصصها لهم .

وكان تيمور اثناء عودته من حروبه فى اسيا الصغرى قد حمل معه ما لا يعد ولا يحصى من الاسرى أغلبهم من رؤساء ورجال عشائر تركية هى روملو - شاملو - قاجار - استاجلو - افشار - بيات - ذو القدر - تكلو - ورساق - وانضم الى هذه العشائر والقبائل التسع فيما بعد صوفية قراباغ . فلما التقى تيمور بالشيخ على بن صدر

(٤) ايلدرم يعنى الاصاغة .

(٥) كانت هذه الموقعة فى سهل شوبوق بجوار انقره يوم الجمعة أول محرم ٨٠٥ هـ (أول أغسطس سنة ١٤٠٤ م) وفى رواية أخرى فى ١٩ ذى الحجة سنة ٨٠٤ هـ (٢٠ يوليو ١٤٠٢ م) .

(٦) سياه بوش يعنى لابس السواد (توفى ٨٣٠ هـ ١٤٢٦ م) .

(٧) عالم أراى عباسى ص ١٦ وعالم أراى صفوى ص ٢٦ .

الدين موسى المشهور بعلى سياه بوش فى زوايته فى اردبيل قال له الشيخ « ان أغلب هؤلاء الاسرى من خاصتى والمريدين لى مثلك فان أبقيتهم فى ذل الاسر فلن يرضى عنك الله وسوف تطرد من رحابه » .

فسأله تيمور وكيف أميز بين هؤلاء لاغرف من هو من مريدك ومن ليس منهم فى هذا العدد الكبير من الاسرى ؟ » .

اجابة الشيخ قائلاً « ان كل مريد من اتباعى قد خاط على عمامته قطعة من القماش الاحمر ، فمر رجالك كى يخرجوهم من بين الاسرى ويتركوهم فى زوايتى » .

وقد تم هذا ، واطلق سراح الاسرى من مريدى الصفوية وأصبح هؤلاء الاسرى من بلاد الروم والشام بعد قرن من الزمان أمراء وملوكا على عرش كسرى وانوشيروان (٨) .

وهكذا اجتمعت لهذه الاسرة كل مقومات الرئاسة والزعامة دون مشقة ، اذ انتقلت الى صفى الدين رئاسة جماعة دينية كبيرة دون ان يشقى فى تكوينها او يتعب فى انشائها ، ثم منح تيمور لحفيده الشيخ على أعدادا كبيرة من الاسرى الاثراك أصبحوا من مريدى هذه الاسرة واتباعها المخلصين وكونوا قوتها الضاربة - كما سنرى - بل أصبحوا عصب الحركة الصفوية كلها وعرفوا باسم « القزلباشية » (٩) ، وبلغت بعض هذه القبائل من القوة والنفوذ ما جعلها تجلس على عرش ايران بعد زوال الدولة الصفوية نفسها مثل الافشار والزند والقاجار الذين قضى عليهم رضا شاه بهلوى سنة ١٩٢٥ م .

وقد سبق ان ذكرنا ان تيمور منح هذه الاسرة الموره المالى

(٨) سياست واقتصاد ص ١١ و ١٢ .

(٩) قزلباش أى لابس العمامة الحمراء وهى التى أصبحت رمز

الصفوية .

الذى كانوا ينفقون منه على دعوتهم وحركتهم ، اذ اوقف اردبيل
وما حولها عليهم ، كما اعفاهم من خراجها ، بل وجعل كل من يلتجئ
الى زاويتهم او حمايتهم فى امان حتى ولو كان من اعلى الجناة
او اخطر الاشقياء (١٠) .

مصاهرة الملوك .

بعد وفاة الشيخ على بن صدر الدين موسى تولى ابنه جنيد زعامة
الطائفة وحمل لقب « سلطان » واخذ فى نشر الدعوة مستغلا الاموال
الطائلة والمريدين الذين وهبهم تيمور لابييه فلما علم ميرزا جهانشاه
السلجوقى ملك ايران انذاك بما بلغته هذه الدعوة من قوة ونفوذ
واتجاه للتوسع ، ارسل الى السلطان جنيد رسالة امره فيها بابساد
الناس والمريدين الذين يلتفون حوله او فى حضرته ، والعيش فى سلام
وامان والا يفكر فى الملك ، والا فان القضاء عليه يصيح امرا واجبا .

رد عليه السلطان جنيد قائلا « نحن لا شأن لنا بالملك ، واننا
مشغولون بالعبادة ، واما قضاء الله فلا راد له » . واستمر السلطان
جنيد فى دعوته ، فارسل اليه ميرزا جهانشاه رسالة ثانية قال له فيها
« يبدو انك لم ترتدع ، وعليك مغادرة مملكتى . والا اتيت الى اردبيل
وهدمتها عليك وعلى اتباعك ، واعملت فيكم السيف » .

عندئذ جمع السلطان جنيد اتباعه وغادروا اردبيل الى ديار بكر
التي كان يحكمها انذاك حسن بك اق قويون لو (١١) الذى كان من
مريديه . وقد استقبله حسن بك احسن استقبال واستضافه ومن معه
من المريدين والاتباع ثلاثة اعوام ، كما زوجة من اخته حليلة سلطان .

(١٠) سياست واقتصاد ص ١٠ وعالم اراى صفوى ص ٢٥
(١١) حسن بك بن على بن قرا عثمان اق قويون لو التركمانى واق
قويون لو تعنى اصحاب الخراف البيضاء .

وقد أدت هذه المصاهرة الى أن يحمل أبناء جنيد وأحفاده لقب ميرزا أى أمير .

بعد هذه المصاهرة عاد السلطان جنيد ثانية الى مقره فى أردبيل، فلما بلغ خبر عودته الى ميرزا جهان شاه السلجوقى أمر بجمع الجيش والاستعداد لمحاربة السلطان جنيد ، فما كان من السلطان جنيد الا أن جمع رجاله وأتباعه من الصوفية وكانوا نحو عشرين ألفا وتوجه بهم الى شيروان (*) للجهاد ومحاربة الكفار ، وقتل السلطان جنيد فى هذه الحرب وحمل مريدوه نعشه الى أردبيل حيث دفنوه هناك الى جوار جده صفى الدين الاردبيلى ، ثم أجلسوا ابنته حيدر على اريكة الارشاد مكان أبيه .

لم يسكت حسن بك اق قويونلو على مقتل صهره فخرج للثأر له ممن دفعه للخروج من موطنه فى أردبيل ، فتوجه الى تبريز وأسر ميرزا جهانشاه السلجوقى ، وضم هذا الجزء من ايران الى ملكه وجلس على العرش فى تبريز مما زاد من شوكة حيدر ميرزا وقوته لان خاله (حسن بك) وهبه أردبيل مرة أخرى كما زوجه من ابنته « عالم شاه بيكم » (١٢) وكان حيدر ميرزا ابن أميرة قصار زوج أميرة أيضا .

زواج له ما بعده :

كان السلطان حسن بك اق قويونلو متزوجا من مسيحية اسمها « تيودورا » ، أبوها يدعى « كالى جوهانس » وهو شقيق ديفيد كومنبنوس امبراطور طرابزون الارمنى آنذاك ، وقد عرفت باسم « دسبينا خاتون » ،

(١٢) بيكم للسيدات تعادل لقب بك للرجال وهى تكتب حاليا بالعربية بيجوم واسمها يعنى ملكة العالم .
(*) إقليم شيروان يقع غرب بحر قزوين حول مدينة باكو السوفيتية حاليا (انظر الخريطة) .

وكانت أختها متزوجة من « كاترينو زينو » سفير دولة البندقية ومبعوثها لدى السلطان يعقوب بن حسن بك اق قويونلو ، وقد أنجبت تلك السيدة (تيودورا) بنتا من المساطان حسن كان اسمها المسيحي « مارتا » أما اسمها بعد زواجها من حيدر ميرزا فهو حليمه بيكم اغا واشتهرت باسم « عالم شاه بيكم » ، وقد أنجبت من حيدر ميرزا ثلاثة أولادهم على ميرزا ، وإبراهيم ميرزا ، واسماعيل ميرزا .

وسنرى فيما بعد تأثير هذا الزواج المسيحي على الدين الاسلامي في ايران واختيار المذهب الشيعي الذي أعلنه الشاه اسماعيل الصفوي منذ اعتلائه عرش ايران . وفي ضوء هذه المصاهرة سنتمكن من تفسير التقارب الشديد الذي حدث بين الصفوية والدول المسيحية سواء روسيا القيصرية أو أوروبا وتحالفهم ضد الدولة العثمانية السنية التي أخذت على عاتقها الدفاع عن الاسلام والدول الاسلامية آنذاك ، وأدى هذا التقارب والتحالف الى اضعاف الدولة العثمانية وانهاك قواها في حروب ضارية مع الصفويين من ناحية الشرق ، ومع الأوربيين من الغرب حتى انهارت الدولة العثمانية واقتطعت اقطارها الاسلامية ليستولى عليها الغرب المسيحي ويقسمها بينه الى مستعمرات ظل يحكمها نحو مائه عام أو أكثر بينما أدى انهيار ايران نفسها الى اقتطاع أجزاء كبيرة منها استولى عليها الروس وضموها الى بلادهم ، وضياح بلاد المسلمين في وسط آسيا مثل أوزبكستان وتركستان وتاجيكستان وقرغيزيا التي استولى عليها الروس أيضا .

السلطان حيدر أول قزلباش

بعد أن تولى حيدر ميرزا رئاسة هذه الجماعة الصوفية الكبيرة وأخذ في رعايتها وتقويتها ومد نفوذها رأى أن يميزها عن غيرها من الجماعات الدينية فادعى أن الامام على بن أبي طالب جاءه في المنام وصنع له عمامة من الصوف الأحمر بها اثنتا عشرة ثنية طويلة تشير

الى ائمة الشيعة الاثنى عشر (١٣) ، فكان يطلق على لابسها « قزل باش » أى لابس العمامة الحمراء ، ووهب السلطان حيدر عمامة من هذه العمام لكل واحد من أتباعه ومريديه أو طلب منه عملها ولبسها ، وبهذا تميزت هذه الجماعة أو الفرقة الصوفية بهذا الزى المميز ، كما أعلننا عن قيام هذه الجماعة واعتزازها بنفسها وقوتها كجماعة مستقلة . وقد وافق حموه - حسن بك أق قويونلو على هذا الاستقلال والانفراد بلبس عمامة مميزة للجماعة تميزها عن سائر الناس فلم توفى حسن بك وخلفه ابنه السلطان يعقوب منع الناس من لبس هذه العمام الحمراء وتوعدهم من يلبسونها بأشد العقاب ، ولم يجد حيدر ميرزا ميرزا مفرا من ترك أردبيل والخروج بدعوى الجهاد فى سبيل الله ونشر الاسلام فى ديار الكفار من ناحية والثأر لمقتل أبيه السلطان جنيد الذى قتله ملك شيروان فى الغزو التى كان قد قام بها على تلك البلاد من ناحية أخرى ، وقد سارع السلطان يعقوب (١٤) - شقيق زوجة حيدر ميرزا - بإبلاغ شيروان شاه بخروج السلطان حيدر اليه ، ولم يكتف بهذا بل أرسل جيشا لمساعدة شيروان شاه فى القضاء على السلطان حيدر لتخوفه منه ومن أطاعه فى الملك . وقد انتهت هذه المعركة بقتل السلطان حيدر - كما قتل أبوه من قبل - فى الحرب ضد شيروان شاه .

الصراع من أجل العرش

جرت أحداث كثيرة ومتشابكة بعد قتل حيدر ميرزا فى حربه ضد السلطان خليل ملك شيروان (أرمينيا) واضطربت أوضاع هذه المنطقة

(١٣) ائمة الشيعة الجعفرية الاثنى عشرية هم : ١ - على بن أبى طالب ٢ - الحسن ٣ - الحسين ٤ - على زين العابدين ٥ - محمد الباقر ٦ - جعفر الصادق ٧ - موسى الكاظم ٨ - على الرضا ٩ - محمد التقي ١٠ - على النقى ١١ - حسن العسكري ١٢ - محمد المهدي المنتظر .

(١٤) السلطان يعقوب بن حسن أق قويونلو كان متزوجا من شقيقة ملك شيروان الارمنى كما أن السلطان حيدر كان متزوجا من شقيقة السلطان يعقوب .

من إيران اضطرابا شديدا ، وتوالى جلوس الملوك وعزلهم او قتلهم .
فبعد السلطان يعقوب جلس ابنه بايسنقر على العرش ، وبعد عامين
اجلس الامراء عمه مسيح ميرزا بن حسن بك ثم قتل مسيح ميرزا ،
وطالب رستم بك بن مقصود بك بالملك وجلس على عرش الاق قويونلو ،
ولكن وزيرهم وقائدهم « اييه سلطان » خرج عن طاعتهم وقتل ، وتولى
الملك محمد ميرزا والوند ميرزا ابنا يوسف بن حسن بك . كل هذا
فى سنوات قليلة مما يدل على اختلال الامن وانهايار الاستقرار وانتشار
الفوضى فى كل شئون الحياة تقريبا (١٥) ، واضطراب الاوضاع
الاقتصادية واحوال الناس تبعا لذلك .

كان السلطان يعقوب بك اق قويونلو قد قبض على اولاد السلطان
حيدر وهم على وابراهيم واسماعيل ونفاهم فى قلعة اصطخر فارس
سنة ٨٩٦ هـ حيث ظلوا بها اربع سنوات ونصف الى ان استدعاهم
السلطان رستم بن مقصود بك ليجهزهم مع اتباعهم لحرب بايسنقر بن
يعقوب (ابن خالهم) الذى كان قد التجأ لخاله وصهره شينوار شاه
بن خليل ملك ارمينيا ، واستعان به ليسترد ملكه فى ايران . فلما حقق
على ميرزا بن حيدر الصفوى النصر للسلطان رستم انقلب عليه وعلى
اخوته واراد قتلهم ، ولكنهم فروا من تبريز الى اردبيل ، فارسل فرقه
من جيشه تتبعهم وقد استطاعت قتل على ميرزا ، وتمكن ابراهيم
واسماعيل من الهرب مع سبعة من قادتهم والمقربين اليهم والتجأوا
الى حاكم جيلان الذى خباهم عنده بضع سنين (١٦) .

كانت الجواسيس تبلغ رستم بك بن مقصود بك بوجودهما عند

(١٥) سياست واقتصاد ص ١٩ وللتفصيل يرجع لحبيب السير
ج ٤ ص ٤٣٩ .
(١٦) كان يلقب كاركيا وورد اسمه « اميره كيا » فى كتاب
عالم اراى صفوى .

حاكم جيلان فكان يرسل في طلبهما منه ، ولكن حاكم جيلان كان ينكر وجودهما عنده رغم التهديد والوعيد حتى أوشك على تسليمهما خوفا على حياته وعلى ولايته .

ولأى بأس من أن نذكر هنا هذه القصة الطريفة التي ترويها كتب التاريخ الصفوى عن كرامات هذه الاسرة وخلصنها أن الامام على بن أبى طالب جاء الى حاكم جيلان في النوم وقال له « بعد عشرة أيام اطلب مبعوث رستم بك الذى جاءك للبحث عنهما وقل له لقد أرسل السلطان رستم بك كثيرا من رجاله للبحث عن أولاد السلطان حيدر وقد جابوا الولاية قرية قرية وبيتا بيتا ولم يجدوهم ، وإذا لم تصدقنى فاننى مستعد للقسم على أنهما ليسا على أرض جيلان » ثم قال الامام على لحاكم جيلان « عليك أن تربط حبلا بين شجرتين كبيرتين تعلق فيه قفة كبيرة (زنبيل) وتضع فيها الغلامين (ابراهيم واسماعيل) وعندما يحضر المبعوث ضع يدك على المصحف واقسم على أنهما ليسا على أرض جيلان » (١٧) ونعتقد أن الامام على لا يعلم الناس الكذب أو التحايل .

وقد ظل اسماعيل ميرزا لدى حاكم جيلان حتى بلغ الثانية عشرة ثم أراد العوده الى أردبيل ولكن الحاكم طلب منه أن يبقى عامين آخرين حتى يبلغ ، فقبل اسماعيل ميرزا هذا العرض ، ولكن فى ذلك الوقت بلغهم نبأ موت رستم بك ففرحوا كثيرا ، وقال اسماعيل ميرزا « الآن حان وقت خروجى » (١٨) . وكان اسماعيل الصفوى عندما التجأ الى حاكم جيلان واختبأ عنده فى السابعة من العمر ومع هذا كانوا يلقبونه

.. (١٧) عالم آراءى صفوى ص ٤٤ .

(١٨) لا ريب أن غلاما فى الثانية عشرة من عمره لم يكن يتحرك من تلقاء نفسه ، ولكن القواد والمريدين هم الذين كانوا يصرونه ويخططون له وقد نجحوا فى تحقيق ما ربهم .

بالمك والمرشد الكامل (١٩) .

الجلوس على العرش :

غادر اسماعيل بن حيدر الصفوى وأخوه ابراهيم ومرافقهما الذين يقال انهم كانوا سبعة من كبار المريدين فى ولاية جيلان وتوجهوا الى اردبيل فاجتمع حولهم اثناء الطريق ثلاثة لآلاف من قدامى المريدين دخل بهم مدينة اردبيل وحاصر بيت الحاكم ثم احضره امامه ووعده بتعيينه قائدا لجيشه بشرط أن يتشهد بشهادة التشيع وهى « أشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وأن عليا ولى الله » ولكن الوالى السنى رفض قبول التشيع فأمر باحضار كمية من الاخشاب والحطب من كل منزل فى المدينة حتى تجمع حطب كثير أضرم فيه النار ثم القى فيها حاكم مدينة اردبيل . وكانت هذه أول نار تبعثها نيران كثيرة احرق فيها مخالفه .

بعد هذا أمر بجمع أهل المدينة وطلب منهم النطق بشهادة التشيع، فمن قالها ضمه الى رجاله ، ومن رفضها القاه فى النار مع حاكم اردبيل . وقد خاف كثير من الامالى من الحرق فنطقوا بشهادة التشيع (٢٠) ، ولهذا ضم الى رجاله الكثير من أهل اردبيل حتى بلغ عددهم نحو أربعة عشر ألف رجل ترك نصفهم فى المدينة لحمايتها وتوجه فى سبعة الاف رجل الى تبريز العاصمة حيث استطاع دخولها والجلوس على عرش أخواله الاقويونلو .

(١٩) عالم آراى عباسى ص ٢٥ .

(٢٠) هذا يدل على أن أهل اردبيل التى شهدت بداية عهدهم ودعوتهم كانوا على مذهب أهل السنة والجماعة الى أن ادخلهم فى التشيع بالسيف والنار ومن الغريب أن بعض قرى اردبيل مازالت «سنية حتى الان» .

أولى المذابح :

عندما دارت معركة تبريز قتل من جيش الوند ميرزا حتى الظهر نحو عشرة الاف رجل ، وبقي على قيد الحياة عشرون الفا فقال الشاه اسماعيل لرجاله « كل من يقول منهم على ولى الله ، أمنوه على حياته ومن يرفضها فاقتلوه » . وقد خشى نحو الفين أو ثلاثة على أرواحهم وقبلوا الدخول فى المذهب الشيعى كما استطاع نحو ثلاثة ألف جندي آخر الهرب واللاحاق بملكهم الوند ميرزا الذى قر من المعركة (٢١) . وقد قتل من تبقى من جيش الوند ميرزا الذين رفضوا التشيع وكان عددهم نحو أربعة عشر ألف رجل قتلوا فى الفترة من الظهر حين انتهت المعركة الى غروب شمس ذلك اليوم ، وبلغ مجموع من قتل فى ذلك اليوم الدامى أربعة وعشرون ألف مقاتل من رجال الوند ميرزا لرفضهم قول «على ولى الله» أى قبولهم التشيع الذى يفرضه اسماعيل الصفوى بالنار أو بالسيف .

دخل اسماعيل بن حيدر الصفوى مدينة تبريز سنة ٩٠٦ هـ (١٥٠٠م) وكان فى الرابعة عشرة من عمره ، وجلس على عرش جده لأمه حسن بك . اق قويونلو الذهبى . ومن الطريف أن العثمانيين ارخوا لقيام هذه الدولة الشيعية بحساب الجمل بكلمتين تنطقان باللغة الفارسية هما «مذهب ناهق» ونعناها «مذهب الباطل» ، ذلك أن مذهب الدولة الصفوية فى نظر العثمانيين كان مذهبا باطلا ، وحروف هذه الجملة بحساب الجمل مجموعها ٩٠٦: (٢٢) . وقد ردد الصفويون على العثمانيين فقالوا أن الاتراك لجهلهم باللغة العربية قرأوا هذه الجملة التى ارخوا بها لقيام دولتنا قراءة خاطئة إذ أن قراءتها الصحيحة باللغة العربية هو «مذهبنا حق» وليس باللغة الفارسية كما نطقها العثمانيون .

(٢١) عالم رأى صفوى من ٢٥ .

(٢٢) م = ٤٠ ن = ٧٠٠ هـ = ٥ ب = ٢ ن = ١٠٥٠ = ١

ح = ٨ ق = ١٠٠

ولكن كيف استطاع هذا الغلام أن يشق طريقه بهذه السرعة والشجاعة ويجلس على عرش إيران ويغير مذهب شعبها السنّي إلى المذهب الشيعي الاثنى عشرى ويجعل منها جزيرة شيعية فى وسط بحر من اهل السنة ، ويترك اثرا عميقا رهيبا فى الوحدة الاسلاميّة والحياة السياسيّة فى الشرق الاوسط بل وفى العالم كله منذ مطلع القرن العاشر الهجرى (الخامس عشر الميلادى) وحتى هذه الايام التى دارت فيها معارك دامية بين إيران والعراق نتيجة لمحاولة تصدير ما اطلقوا عليه « الثورة الاسلاميّة فى إيران » ، والتى تعيد للذهان عصر اسماعيل الصفوى الدموى

قيام الدولة

عرش من الجماجم على أنهار من الدماء

تقرر أغلب المصادر أن عدد جنود اسماعيل الصفوى من القزلباشية أو لابسى العمائم الحمراء عندما دخل تبريز عاصمة إيران آنذاك بمسبحة آلاف رجل لا يحملون الا أبسط الأسلحة التقليديّة من سيوف ورماح ونبال . ولهذا لجأ اسماعيل الصفوى الى ما لجأ اليه جنكيز وهولاكو وتيجور وأغلب الثائرين فى بداية أمرهم من قتل بلا رحمة وانحراق نبالا شفقة وتخريب بلا هوادة .

ففى سنة ٩٠٦ هـ عندما استولى على شيروان وأسر ملكها شيروان شاه ، وضع جسده فى قدر كبير ووضعه على النار وطهأه ثم أطعمه للكلاب إنتقاما منه لمقتل أبيه السلطان حيدر أثناء هجرته على شيروان . (٢٣) .

وفى أول مغازكة مع السلطان مراد بن رستم اقى قزوينلو تساكم العراق العجمى وفارس وكرمان وخوزستان ، عمد الى قتل ثمانية

الاف من رجاله مرة واحدة (٢٤) لتذاع عنه هذه القسوة وتشتهر هذه الوحشية فيخشاه الناس ويتجنب الجنود لقاءه أو التصدى له .

وفى معركة بين قائد الوند ميرزا وقائد اسماعيل الصفوى استطاع قائد القزلباشية ان يقتل ألف رجل من قوات الوند ميرزا قبل ان يقتل هو فى المعركة فتولى قيادة الجيش الصفوى قائد اخر انتقم لقتل قائده بقتل خمسة الاف رجل من جيش الوند ميرزا (٢٥)

اما فى المعركة التى دارت بين الشاه اسماعيل الصفوى والوند ميرزا آق قويونلو شخصيا فقتل فيها من رجال الوند ميرزا ثمانية عشر الفا ، وفر الوند ميرزا من الميدان فاستولى الشاه اسماعيل على كل امواله وسراجه وجمع رؤوس القتلى لمشاهدتها واستعراضها (٢٦) بعد كل هذه المذابح بين المسلمين .

فرض المذهب الشيعى :

جرت مراسم فرض المذهب الشيعى فى مدينة تبريز العاصمة ، وتقول كتب التاريخ ان رجال الشاه اسماعيل الصفوى كانوا قد حذروه من خطورة الاقدام على ذلك الامر ، وقالوا له ان ثلثى سكان مدينة تبريز من اهل السنة ، وان اعلان المذهب الشيعى قد يؤدى الى قيامهم بالثورة ضده مما قد يعرض ملكه للخطر : ولكن اسماعيل الصفوى قال لهم ان الامام على قد كلفه بهذه المهمة . ثم امر القزلباشية بالتواجد فى المسجد الجامع فى يوم الجمعة الذى حددته لاعلان المذهب رسميا . وذهب الشاه اسماعيل وحمل القزلباشية سلاحهم كاملا ، وحصد اسماعيل الصفوى المنبر وهو شاهر سيفه ، وعندما قرأ الخطبة باسم الامام على وائمة الشيعة ، حدثت همهمة بين المصلين ، فاطبق عليهم

(٢٤) عالم اراى صفوى ص ٦٠

(٢٥) عالم اراى صفوى ص ٦١ .

(٢٦) نفس المرجع ص ٦٤ .

القولباشية وقال لهم الشاه اسماعيل « تبرأوا (٢٧) والا فان القتل
جزاء من يرفض البرؤ » فقتلوا جميعا من شدة الخوف *

وخرج قائد التبرائين يسير امام الشاه اسماعيل الصفوى يحمل
فى يده تبرأ (٢٨) وهو يردد عبارات التبرؤ وكل من لا يريد ما تعده
ويلعن الخلفاء الثلاثة يقطع رأسه فوراً *

واذا كان هؤلاء المساكين قد تشيعوا حفاظا على ارواحهم فان
اسماعيل الصفوى حين خرج من تبريز لمحاربة الوند ميرزا ، عاد الوند
ميرزا من طريق اخر غير الذى خرج منه اسماعيل الصفوى ، وانقض
على مدينة تبريز التى تشيعت بحد السيف وانتقم من أهلها قتل منهم
نحو سبعة آلاف لتغيير مذهبهم *

ما السبب فى فرض التشيع ؟

قلنا ان القبائل التركية التى أسرها تيمور فى نخلته على ايسيا
الصفوى ثم تركها فى اردبيل للشيخ على سياه يوش يزعم انهم من
مريديه الذين يتميزون بالعمامة الحمراء كانوا هم القوة الدافعة
والحركة للصقويين طوال حكمهم ، وكانت هذه القبائل نائمة على
بنى عمومهم من الاتراك العثمانيين الذى وصلوا الى حكم ايسيا الصفوى
ثم الخلافة الاسلامية ، وكانت تشعر انها خرجت من بلادها كاشغرى
لتيمور لك ويحنون بالعودة اليها ولكن حرمة حزب المسلم ضد المسلم
وقتل المسلم للمسلم كانت سائدة فى ايران كما فى غيرها من بلاد

(٢٧) التبرؤ والتولى أى التبرؤ من خلافة ابي بكر وعمر
وعثمان لانهم تولوها بغير حق فى نظر الشيعة ثم الافة ار بولاية على من
بن ابي طالب وبقية ائمة الشيعة الاثنى عشر وقد يغالى بعضهم بلعنهم
ومعهم السيدة عائشة لموقفها من حرب الجمل *

(٢٨) التبرؤ أو الطبر فأس يستخدم فى قطع الاشجار ويستخدم
الجزارون فى العراق والسودان فى تقطيع اللحريم وفى مصر بسدنى
بلطة *

المسلمين وتحد من الحماس للقتال خاصة ضد الاثراك في آسيا الصغرى . كما ان فكرة الانضمام للخلافة الاسلامية او الخضوع للخليفة التركي الذي كان يلقب بأمير المؤمنين كانت تجد صدى بين الكثيرين . ولهذا فان مجابهة كل هذه المشاعر الدينية كان لا يمكن مقاومتها الا بتغيير المذهب الشائع في ايران من التسنن الى التشيع والقلو في المذهب لاثارة العداء بين المذهبيين ودفع الناس الى الحرب بوازع الحفاظ على المذهب .

ولهذا كان لابد للشاه الذي جلس على عرش ايران وفرض المذهب الشيعي بحد السيف ان يكتسب الصفة الدينية الى جانب الصفة الدنيوية ولهذا رضى لفكرة « ولاية الفقيه » وطلب من علي بن عبد العال الكركي العالمى كبير علماء الشيعة بجبل عامل بلبنان ان يوطد له دعائم السياسة والملك ويجيز جلوسه على كرسى الملك والحكم باسم الولاية العامة التى هي من صلاحيات الفقيه (٢٩) . وبهذا أصبح الشاه اسماعيل بصفته الدينية يعلو فوق أى سلطة أخرى في الدولة .

من ناحية أخرى فان الفقيه أو الامام عند الشيعة له الحسق في خمس مكاسب ودخل كل فرد شيعي ولك ان تتصور ضخامة المبالغ التى يحصل عليها مجتهدى الشيعة بسبب منصبهم الدينى وهو يزيد عما تحصله الدولة من ضرائب . وكانت خزائن ملوك الصفوية حكدسة بثروات وأموال تتحدث عنها كتب التاريخ . بسبب جمعهم للخصس الى جانب الضرائب الأخرى .

عودة للقتل والحرق :

بعد ان استقرت أمور العاصمة تبريز وما حولها توجه الشاه اسماعيل الصفوى الى مارندران سنة ٩٠٩ هـ فتحصن حاكمها حسين

(٢٩) الشيعة والتصحيح ص ٧١ .

كيا فى قلعة « حبله رود » فقطع اسماعيل الصفوى المراء عنها حتى استسلم كل من كان بها وامر رجاله فأحرقوهم جميعا رجالا ونساء واطفالا وكهولا مع بيوتهم وحصونهم • اما ملكهم حسين كيا (٣٠٠) فسجنه فى قفص من حديد وأخذ فى تعذيبه حتى مات - أو انتحر كما تذكر الروايات المختلفة - فاحتفظ بجثته حتى أحرقت بعد ذلك جمعا سنرى •

وكان الشاه اسماعيل اثناء حصاره لحسين كيا قد تلقى نيا عن عصيان محمد كره حاكم إقليم يزد ، فتوجه بجيشه الى هناك وحاصر المدينة ثم دخلها القزلباشية بعد شهرين وقبضوا على محمد كره وحبسوه فى قفص حديدى وقتلوا بقية رجاله •

ولما كان التركمان الجغتائيون فى طبرس (٣١) قد رفضوا قبول المذهب الشيعى ، فقد اتخذ من الرسالة التي أرسلها اليه اميرهم ذريعة لكى يتوجه بجيشه الى هناك (أوائل شعبان سنة ٩١٠ هـ) « وانطلقت شعلة غضبه من كثيرة ما أراقه من الدماء » حيث قتل فى هذه المذبحة سبعة الاف من الترك الجغتائيين • وذاع خبر هذه المذبحة فى أرجاء خراسان فعمها الذكر والخوف من بطش الشاه اسماعيل وقسوته وجنت القزلباشية وأعاد للأزهار ما فعله المغول على يدى جنيكز وهولاكو •

ومما ترويه المصادر عن الخوف والفزع الذى استولى على أهل السنة فى إيران انذاك قصة العلامة الدوائى أمام ومدرس المذهب الشافعى فى المسجد العتيق فى شيراز « اذ ما كاد والى شيراز يبلغه بأمر الشاه اسماعيل بضرورة ترك مذهب أهل السنة واعتناق التشيع

(٣٠) هو كيا امير حسين جلاوى - عالم آراى صفوى ص ٩٨ •

(٣١) تقع على حافة الصحراء الكبرى الايرانية وتسكنها للآن

بقايا من القبائل العربية •

من هذه الحادثة ، ولما تولى ابنه السلطان سليم العرش أرسل سفيراً آخر هو القاضي خليل لكي يسألهم عن الدافع لهذا العمل القبيح ويطلب منهم الكف عن لعن الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم (٣٣) .

وفي رد الشاه اسماعيل الصفوي على رسالة السلطان سليم العثماني قال له : « ان شاء الله سوف نقطع رأسك التبعس بقوة ذراع فاتح خير أمير المؤمنين عليه السلام ونرسله الى ملك البرتغال (٣٤) » وبعد هذا ذهب الشاه اسماعيل الصفوي الى كريلاء لزيادة قبر الامام الحسين ومن هناك أحرم لزيادة قبر الامام على في النجف ، (٣٥)

استئناف المذابح وارقة الدماء :

بعد ان انتهى الشاه اسماعيل الصفوي الاستيلاء على العراق العربي توجه الى لرستان وأرسل الى ملكه رستم رسالة قال له فيها انك ان كنت قد رفضت طاعة السنة لانك شيعي بقطرتك ، فأنني اطلب منك ان تأتي الى كني اراك وحتى تبقى في ملكك الموروث . فاستشار الملك رجاله فقالوا له : ان السلطان العثماني بجيوشه لم يستطع الانتصار علينا قدعنا تذهب ونقطع الطريق على الشاه اسماعيل ونضربه بسيوفنا . حتى اذا لم نتحصن فاننا ستجعله لا يفكر في غزونا ثانية (٣٦) .

وحين نشبت الحرب قتل في أول معركة ثمانية الاف من الاكراد

(٣٣) عالم اراى صفوى ص ٤٧٧

(٣٤) عالم اراى صفوى ص ٤٧٣ .

(٣٥) يطوف الشيعة حول قبور الائمة وهم يقرأون ادعية خاصة كالطواف حول الكعبة ويخرمون له .

(٣٦) عالم اراى صفوى ص ١٣٠ .

المر ، وقتل من القزلياشيه خمسمائة ماتوا تحت الصخور التي القيت عليهم من قدم الجبال .

ونشبت معركة ثانية مع الاكراد المر هزموا فيها ايضا وقر ملكهم ولكن الشاه اسماعيل صفح عنه لانه اقر بتشييعه .

وقد عرض الملك رستم الشاه اسماعيل على حرب السلطان فياض بن محسن ملك الحويزة لانه كان من العلى اللهية (٣٧) ، واتباعه يدعون المشعشة . وحين علم السلطان فياض بهذا الغزو ارسل جيشا من ثلاثين الفا ثم اعقبه بجيش اخر من عرب البادية تعدادهم عشرون الفا ، وقتل ما لا يحصى من المشعشة كما قتل السلطان فياض وخضعت الامواز للصقويين .

فتح اصفهان :

بعد هذا توجه الشاه اسماعيل الى اصفهان وحاصرها لمدة ثلاثة اشهر حتى قلت بها المؤن وكان احد اعيان اصفهان واسمه الرئيس حسين من الشيعة فتآمر مع الشاه اسماعيل وفتح له احد ابواب المدينة فدخلها الصقويون واسروا من كان بها من رجال السلطان مراد ابي قويونلو وعرضوا عليهم التشيع فمن قبله اخلى سبيله ومن رفضه قتل على الفور . اما السلطان مراد ابي قويونلو فقد التجأ الى احدى قلاع المدينة . وتوسعت خالة الشاه اسماعيل - وهي في نفس الوقت عنة السلطان مراد ابي قويونلو - بين ابن اختها وابن أخيها ، فاشتراط الشاه اسماعيل ان يعلن السلطان مراد تشيعه ولكن السلطان مراد قال لها كيف العن الخلفاء الثلاثة ؟ هل من اجل ملعة من دمي العن هؤلاء الصحابة الكبار ؟ وقرر السلطان مراد الهرب من القلعة والتوجه الى شيراز لجمع جيش جديد .

(٣٧) العلى اللهيه جماعة يالهن على بن ابي طالب وما زالت لهم بقايا في العراق وسوريا ولبنان .

ومن الطريف أن ننقل ما جاء فى كتاب الشيعة والتصحيح حيث يقول « أن سكان اصفهان كانوا من الخوارج ، وعندما وصلهم أمر الشاه بقبول التشيع أو قطع الرقاب طلبوا منه أن يمهّلهم أربعين يوما ليكثرُوا فيها من سب الامام على ثم يدخلوا بعدها فى المذهب الجديد . فامهّلهم الشاه كما أرادوا وهكذا انضمت اصفهان الى المدن الشيعية الاخرى » (٣٨) .

ويقول صاحب كتاب حبيب السير « ذات يوم اشتعل غضب الشاه اسماعيل الصفوى وهو فى اصفهان فأمر أن يجسّوا خطبا كثيرا فى ميدان المدينة ويضرموا فيه النار ، ثم أمر فالقوا فيها محمد كره حاكم يزد واتباعه مع جثه حسين كيا ملك ماژندران التى كان يحملها معه ، وجماعة أخرى من العصاة ، تم احراقهم فى حضور سفين للسلطان بايزيد العثمانى أعطوه رمادهم للذكرى (٣٩) .

مذابح الحيوانات بعد مذابح البشر :

بعد أن استقرت أمور اصفهان خرج الشاه اسماعيل الصفوى للصيد فى منطقة قريبة منها اسمها « لنجان والنجان » ومعه قواده وحاشيته ، وبلغ عدد الحيوانات التى اصطادوها فى أول يوم ستة وعشرون ألف حيوان . وفى اليوم الثانى سبعة وخمسون ألف حيوان عبارة عن خمسة وأربعين ألف غزال واثنى عشر ألف حمار وحشى وفى اليوم الثالث قتلوا ستة عشر ألف حيوان . وفى المرة الرابعة قتلوا خمسة عشر ألف حيوان ثم كفوا عن الصيد فى هذه المنطقة بعد أن أفتوا ما كان بها من حيوانات (٤٠) .

(٣٨) الشيعة والتصحيح ص ٧١ .

(٣٩) حبيب السير ج ٤ ص ٣٧٨ وروضة الصفا ج ٨ ص ١٧٠ .

(٤٠) حبيب السير ج ٤ ص ٥٢٢ .

ومعارك الطلاب :

كان السلطان سليم العثماني قبل توليه العرش قد حرض أبناء ذى القدر على استعادة البلاد التي استولى عليها الصفويون منهم في ديار بكر ، فجمعوا جيشا كبيرا وتوجهوا الى قلعة « قرا احمد » فلما علم الوالى الصفوى خرج لملاقاتهم • وحين اصطف الجيشان اطلق جيش ذى القدر كلابهم على الجيش الصفوى وكانت من نوع اوريى مدرب ، فاطلق الصفويون كلابهم وكانت من اصل محلى من ديار بكر ، ودارت معركة شرسة بين نحو عشرة الاف كلب انتهت بفوز كلاب الصفويين وهروب كلاب القدرية من الميدان (٤١) •

بعد انتهاء معركة الكلاب دارت معركة البشر واستطاع الصفويون - مثل كلابهم - الحاق الهزيمة بجيش ذى القدر الذى فر والتجأ الى قلعة « درنا » •

وعاد ابناء علماء الدولة ذى القدر لحرب الصفويين مرة اخرى ودارت بعض المعارك بين الجانبين كانت اخرها تلك التى قتل فيها محمد بك بن علماء الدولة آخر الابناء السبعة لعلاء الدولة الذين قتلوا جميعا فى حروب ضد الصفويين فى محاولات للبقاء على ملكهم ، وقتل معه نحو اربعة عشر ألف جندي واستولى الصفويون على عتادهم ومعسكرهم بما فيه •

الحروب فى الجبهة الشرقية مع الاوزبك :

كان السلطان حسين ميرزا بايقرا - وهو من أحفاد تيمور - يتولى ملك خراسان ومرو الشاهجان وخوارزم وطخارستان وزابليستان وقندهار وكابل وبندخشان وكانت علاقته طيبة بالشاه اسماعيل الصفوى الذى كان ينظر للسلطان حسين نظرة احترام لكبر سنه ولانه من سلالة

(٤١) اراى صفوى ص ١٤٠ •

ملوك التيموريين . فلما توفي السلطان حسين حدث نزاع بين أبنائه وخاصة بين بديع الزمان ميرزا ومظفر حسين ميرزا وكبك ميرزا واستطاع محمد خان الشيباني - الذي اشتهر بشاهي بك خان - والذي ارتقى من درجة الخدم (٤٢) الى مرتبة الامارة ان يستغل هذا الخلاف بين الأخوة ويستولى على ملكهم - الذي كان يمتد من اقصى التركستان الى حدود العراق العجمي - وبهذا انتقل حكمه من التيموريين الى الازبك .

بدأ الخلاف يدب بين محمد خان الشيباني المشهور بشاهي بك وبين الشاه اسماعيل الصفوي وكان من اسباب هذا الخلاف الرسالة التي بعث بها الى الشاه اسماعيل وجاء بها « ليكون معلوما للامير اسماعيل اننا - بالسعادة والاقبال - ننوي زيارة مكة المكرمة . فمر رجالك لكي يصلحوا الجسور المهتمة التي قد تكون في طريقنا ، واثا لا اطمع في العراق الخراب او اذربيجان ، ولقد امرنا ان تقوم حكومتكم باعداد المؤن والولائم في كل مكان ننزل به ، وكلما احسنتم الخدمة نلتهم رضنا وسوف نخلع عليكم الخلع الفاخرة ولا يجب عليكم التهاون في هذا الامر » (٤٣)

فلما وصلت هذه الرسالة الى الشاه اسماعيل كتب على ظهرها بيتا من الشعر معناه كل شخص ليس عبدا مخلصا للملك ابي تراب (٤٤) لو اخذ الف مدينة ومكة فلا قيمة له ولا حساب وخلع على الرسول واعاده (٤٥) .

(٤٢) كان خائما للسلطان احمد ميرزا بن السلطان ابي سعيد للاقجوركان والى ما وراء النهر - عالم اراي عباس ص ٣٦٠ .
(٤٣) نفس المرجع والصفحة .
(٤٤) يقصد بالملك ابي تراب الامام علي بن ابي طالب .
(٤٥) عالم اراي صفوي ص ٢٩٠ .

موعدنا فى مشهد المقدسة :

وقد أخذت الرسائل تتبادل بينهما ، فمحمد خان الشيبانى يتشدد فى طلب اصلاح الطرق والجسور فى طريقة الى مكة واسماعيل الصفوى يلاينه حتى تحين له فرصة لوقف هذه الامانات حتى يخبره أحد سفرائه أن محمد خان كان قد أرسل جيشا لغزو بلاد الغور من أربعين الفا من الاوزيك ولكن لم ينجح منهم الا أربعة الاف . وعندئذ بعث الشاه اسماعيل برسالة الى شاهى بك قال له فيها « اننى انوى الطواف بالمرقد المنير لحضرة امام الانس والجن (٤٦) ان شاء الله تعالى وموعدنا فى مدينة مشهد المقدسة » .

وفى سنة ٩١٠ هـ اصدر الشاه اسماعيل أوامره بتعبئة الجيش وتوجه الى خراسان فلما اقترب من مدينة مشهد ترك شاهى بك مدينة هراة وذهب الى مرو الشاهجان . وعندما رأى الشاه اسماعيل فيه مرقد الامام على الرضا ترجل عن حصانة وترجل كل جيشه وسار المسافة الباقية الى المدينة - وكانت حوالى عشرين كيلو مترا على قدميه . ولما كان الاوزيك قد حملوا معهم كل نفائس المشهد والمسجد من سجاد فاخر وقناديل وثريات ذهبية فقد أحر الشاه اسماعيل باعادة فرشهما بأفخر السجاد ، وكلف الصاغة بعمل القناديل والثريات الذهبية اثناء الليل لكي يتمكن من زيارة مشهد الامام على الرضا وهو على حال لائقة بمقامه (٤٧) .

من معجزات الامام :

بعد أن استراح الشاه اسماعيل وجيشه لمدة ثلاثة ايام فى مدينة مشهد أراد أن يواصل سيره فى تعقب الاوزيك فقال له قواده « لقد

(٤٦) يقصد بامام الانس والجن والامام على بن موسى الرضا المدفون بجوار الخليفة العباسى هارون الرشيد فى مشهد عاصمة اقليم خراسان وهو الامام الثامن عند الشيعة الجعفرية .
(٤٧) عالم اراى صفوى ص ٢٩٠ - ٢٩١ .

جئنا من اذربيجان مسرعين مما اضعف الخيل وأرهق الجند فلو استقرحت
فى المدينة بعض الوقت كان أفضل ، فقال لهم الشاه اسماعيل ، لقد
ذكرتم ما رأيتم أنه الحق والمصلحة ، ولكننى عبد لسيدى الذى لا أشرب
جرعة ماء دون أذنه ، وكل ما فعلته لئلا كان باذن منه وأمر وسأبرهن
لكم على هذا . وما علينا الا أن نكتب رسالة اليه نطلب فيها الاذن
لهذه الحرب ، ونضعها فوق مرقد الامام على الرضا - عليه السلام -
ونغلق باب الروضة بالقفل وتقولون انتم حراستها حتى اليوم التالى
لتتأكدوا أن أحدا لن يدخلها » .

وقد فعلوا ما اقترحه الشاه . وفى الصباح عندما ذهب الشاه
ومعه الامراء والقواد وجدوا مكتوبا على ظهر هذه العريضة بالحبر
الاخضر « نأذن لكم فاذهبوا فان الفتح والنصر لكم » (٤٨) عندئذ سجد
القادة واخذوا فى البكاء وقالوا للشاه اسماعيل « لقد تبنا وليس
لنا الحق بعد هذا فى مناقشة ما يقوله المرشد الكامل أو يأمر به » (٤٩)

حينما علم شاهى بيك بدخول الشاه اسماعيل الصفوى مدينة
مشهد ترك حامية فى مدينة هراة وتوجه الى مرو انتظارا لوصول
الامدادات اليه من بلاد ما وراء النهر ، ولكن الشاه اسماعيل
ارسل بعض قواته فى اثر شاهى بيك فتصدت لها قوات الاوزبك ولكنها
قتلت ولم يتبقى منها الا نحو سبعمائة جندي من اصل ثلاثة الاف اوزبكي
وفى معركة ثانية قتل نحو ستة الاف وفر الباقون .

وارسل الشاه اسماعيل رسالة الى شاهى بك المتحصن فى قلعة
مرو يقول له فيها « أين ذلك الغرور حين كنت تأمرنى بإصلاح الجصور
فى طريقك الى الحج واقامة اللواتم فى كل مكان تنزل به ؟ ان الملوك

(٤٨) نفس المصدر ص ٢٩١ .

(٤٩) المصدر السابق ص ٢٩٣ .

لا يتراجعون عن كلامهم لان ذلك عار كبير ، فأخرج من القلعة والا
أمرت فتينانى الشجعان أن يهدموا القلعة ويجعلوها أثرا بعد عين (٥٠) .
ودارت معركة قرب القلعة قتل فيها نحو ستة الاف من الازبك
وفر الباقون ناحية التركستان .

الحرب خدعة :

رأى الشاه اسماعيل أن يستدرج عدوه خارج القلعة بالتظاهر
بالانسحاب وفك الحصار وأرسل رسالة الى شاهى بك جاء بها « لقد
وعدتنا باللقاء فى خراسان ولم تف بوعدك بينما وفيت بوعدى وجئت
الى خراسان وقد اضطررت للعودة وعندما تستعد للقتال فنحن
حاضرون » .

كاس شراب من جمجمة شاهى بك :

حينما شاهد شاهى بك انسحاب الصفوية وفك الحصار عن القلعة
أغراه الطمع فى مهاجمة مؤخرة اعدائه للانتقام منهم ، وبهذا وقع فى
الفخ الذى نصبوه له .

فلم يكذب يتعد عن القلعة حتى احاط به القزلباشية ودارت معركة
عنيفة واضطر شاهى بك للفرار ولكن سوء حظه أوقعه فى مستنقع
موحل غرق فيه واستطاع أحد القزلباشية اخراج جثته وحملها للشاه
اسماعيل الذى أمر بتقطيعها الى قطع صغيرة وأرسل قطعة منها الى كل
أمير من الامراء الذين كانوا يحتمون بشاهى بك أو يؤيدونه لتحذيرهم
من نفس المصير . اما راسه فقد أمر بسلخ جلده وحشاه بالقش وأرسله
للسلطان بايزيد العثمانى حامى السنة والاتراك الذين ينتمى اليهم
شاهى بك . اما طاسه فجمجمته فقد أمر بطلائها بالذهب وجعلها قدحا

(٥٠) عالم أراى صفوى ص ٢٩٨ .

يشرب منه الخمر (٥١) .

مذبحة قرشى وقطعها وكلاها :

بعد هذه الهزيمة تعهد الأوزيك للصفيين ألا يتجاوز نهر جيحون غربا ، ولكنهم بعد أن استردوا قوتهم رأوا أن يستعيدوا البلاد التي استولى عليها الشاه اسماعيل ، ولهذا عبروا نهر جيحون فاختر الشاه اسماعيل أحد قواده وكان اسمه . نجم الثانى (٥٢) لمواجهة الأوزيك فجمع نجم الثانى جيوش الصفوية فى خراسان وعبر نهر جيحون دون أمر من الشاه اسماعيل ولكن استنادا لما له من منزلة عنده واستولى على قلعة مدينة اسمها قرشى وأمر بالقتل العام فيها فقتلوا أمير الأوزيك واسمه شيخم ميرزا مع خمسة عشر ألف جندى ، وقد رفض نجم الثانى العفو عن بعض الاهالى الجفنائيين تشفع لهم حليقه محمد باير ميرزا وبهذا بدأت العداوة بينهما . كما أن الأمير محمد يوسف الصدر تشفع لبعض السادات من أهل البيت فلم يقبل شفاعته أيضا * وقتل عددا كبيرا منهم كانوا يحتمون فى مسجد القلعة ، بل وذهب نجم الثانى بنفسه الى المسجد للإشراف على قتلهم وكانوا نحو خمسة الاف . ولما انتهى من قتلهم أمر بقتل القطط والكلاب فى المدينة ، ثم سوى بيوتها بالأرض وبعد هذا قال - لقد استراح قلبى قليلا إذ انتقمتم من هؤلاء الأوزيك للمذابح التى ارتكبها جنكيز وتيمور فى ايران * (٥٣) .

وقد فات نجم الثانى أن جنكيز وجماعته كانوا غير مسلمين ، اها

(٥١) عالم أراى عباس ص ٣٨ - وتاريخ هذه الحادثة بحسب الجمل هو « فتح شاه دين بناء » - أى فتح الشاه حامى الدين - وتعادل بالأرقام ٩١٦ .

(٥٢) هو الرئيس يار أحمد خوزانى حامل ختم الشاه اسماعيل وقد لقبه بلقب نجم الثانى بعد قتل حامل ختمه نجم زرجر الرشقى تقديرا له واحياء لاسمه - عالم أراى صفوى ص ٣٠٥ .

(٥٣) عالم أراى صفوى ص ٢٧٢ وعالم أراى عباس ص ٤٠ .

هو فقد قتل نحو عشرين ألف مسلم منهم نحو خمسة ألف قيل أنهم كانوا ينتسبون لأهل البيت رغم شفاعته بعض قواده لهم .

ونذكر مؤلف تاريخ عالم أراى عباس أن ما فعله نجم الثانى كان وبالا عليه ، إذ أنه بعد فراغه من مذبحة قلعة قرشى حاصر قلعة أخرى اسمها غجدوان وطال حصاره لها أربعة أشهر جعلت مؤنه تأخذ فى النقصان فلما علم امراء الاوزبك بحالة توجهوا اليه فى جيش مجهز، وفى الثلاثين من رمضان سنة ٩١٨ هـ هاجموا جيش الصفوية وقتلوا قائد مقدمته كما انسحب محمد بابر ميرزا لغضبه من قتل الجغتائين فى قلعة قرشى وتراخى قادة القزلباشية فى الدفاع عن نجم الثانى لقسوته وظلمه حتى قتل فى هذه المعركة وعادواهم الى خراسان (٥٤) .

(٥٤) عالم أراى عباس ص ٤١ .

بداية النهاية

معركة جالدران : (١)

بعد عزل السلطان بايزيد العثماني وتولى ابنه السلطان سليم مقاليد الحكم فى استانبول أعلن أخوه أحمد والى اماسية العصيان وقرأ الخطبة لنفسه ، ولكن الوزراء والقواد استدعوه بالحيلة والخديعة الى استانبول حيث قتل ، وارسلوا جيشا لاحضار ابنه مراد الذى طلب المساعدة من الصفويين . ولم يجد مراد امامه الا التوجه الى الشاه اسماعيل الصفوى الذى كان انذاك فى اصفهان ، ولما علم بمقدمة امره باستقباله استقبالا حافلا خارج المدينة . وحين وصل الى باب حديقة قصر « نقش جهان » استقبله الشاه بنفسه واجلسه بجواره وقال له « اطمئن فسانتقم لابيک من عكك السلطان سليم وساقضى عليه واجعل كل بلاد الروم (الدولة العثمانية) لك » . فشكره الامير وقال له انه التجأ اليه لحسن اعتقاده فى الصفويين وليشرف برأسه بلبس تاج الائمة الاثنى عشر ، فخلع الشاه اسماعيل التاج من على رأسه والبسسه للامير وقال له « امامنا نحو شهر ونصف الى ان يحل فصل الربيع وانذاك سنتوجه الى تبريز لجمع الجيش ، واذا حضر السلطان سليم وفر علينا الجهد والا فستكون معركتنا على شاطئ اسكودر » (٢) .

بعد هذا خرج الشاه اسماعيل للصيد واصطحب معه الامير حراك

(١) تكتب بالجييم المثةثة الفارسية والتي تنطق كانهها chch بالانجليزية وهو سهل قرب مدينة خوى قرب تبريز عاصمة اقليم اذربيجان فى غرب ايران ويكتبها الذين يترجمون عن المراجع الاوربية تشالديران او شالديران بالياء وهو خطأ ويحسن كتابتها تشالديران .
(٢) عالم اراى صفوى ص ٤٧٠ .

فلما رجعوا لخيمهم ظهرت أعراض المرض على الأمير مراد وتوفي
بعد ستة أيام .

حين علم السلطان سليم أن ابن أخيه التجأ للشاه اسماعيل
الصفوي لاستعدائه عليه أخذ في الاعداد للحرب وأرسل مبعوثا للشاه
اسماعيل يحمل رسالة جاء فيها : « ليكن معلوما للشاه اسماعيل أنك
أرسلت عدة مرات الى أبينا المخرف فخدعته وأخفته ، فمرة أرسلت
له رأس شاهي بك ، ومرة قطعة من علم جنكيز خان ، ولهذا السبب
خلعناه . وقد صممت على الانتقام للماضي وكنت أنوى التوجه
اليه في العام الماضي ولكن ثارت مشكلة أخى الذى التجأ ابنه اليك .
وعلى أية حال يجب عليك أن تقيده وتجعل الاغلال فى عنقه وترسله
اينا . وعليك ايضا أن تكف يدك عن ديار بكر ، وتخرج اعوانك
منها حتى ينتهى ما بيننا وبينك من عداوة وحرب وتحل محلها المودة
والصداقة وإذا فعلت غير هذا فعليك الاستعداد للحرب (٣٠) » .

حينما وصل الرسول الى اصفهان وقدم الرسالة للشاه اسماعيل
كتب له ردا جاء فيه :

« قرأت رسالتك المركبة التى ذكرت فيها عدم تعقل أبيك وسوء
تدبيره ، وأرسلنا رأس شاهي بك وقطعة من علم جنكيز اليه . ولقد
كان أبوك بعيد النظر يعلم أن كل من يخالفنا نسويه بالارض . وظالما
أن أهواء الغرور قد سيطرت على عقلك ، فان شاء الله سنقطع رأسك
التمس هذا بقوة ذراع فاتح خير - أمير المؤمنين عليه السلام - ونرسله
الى ملك البرتغال . وقد ذكرت أن ولاية ديار بكر التى ورثناها يجب
أن أسلمها لاتباعك . وهذه الولاية لم تكن لأبيك إذ أنها كانت من أملاك
علاء الدولة ذى القدر أخذها من أولاد حسن أقي قوينلو وأستولى عليها

(٣) عالم ارأى صفوى ص ٤٧٢ .

رجالاً يحد السيف من علاء الدولة الذى كان أجدادك وإياؤك يدفعون
له الخراج والجزية . وليس لك أن تدعى المطالبة بولاية حسن آق
قويونلو .

أما فيما يتعلق بالسلطان مراد فقد التجأ الى بلاط كان ومازال
ملجأً للملوك العالم ونزل ضيفاً علينا ، ولا يمكن لمضيف أن يخرج
ضيفه من بيته . ولما كنت تريد المجيء إلينا فقد نلتقى والسلام » (٤) .

حينما نزل السلطان سليم خارج مدينة أرزيخان أرسل رسولا
آخر للشاه اسماعيل يقول له « لقد سبق أن أرسلنا لك نخبرك بقدمنا
لحرك ، ونحن الآن نعسكر فى أرزيخان ، فإذا كنت تفكر فى شيء
فافعله ، وإن كنت تفكر فى اللهو والراحة فابعث إلينا ابن أخى معززا ،
فإن لم يقبل بالحسن فقيده بالسلاسل والأغلال وأرسله إلينا . وعليك
أيضا أن تكف يدك عن البلاد التى ورثناها حتى تستمر بيننا السداقة
القديمة على حالها ، وألا فمعدنا للحرب سيكون فى تبريز . فاختر
ما تشاء وأخبر رسولنا به وأعدنا إلينا فنحن فى انتظار ريك » (٥) .

وصل السفير الى همدان وسلم الرسالة للشاه اسماعيل . وفى
نفس الوقت جاءه نعى الأمير مراد أثناء نقله من اصفهان الى همدان ،
وكذلك جاءه نعى طفل كان لمراد عمره عشر سنوات سقط من على
الحصان وتوفى فى ساعته مما أحزن الشاه اسماعيل وجعله يقول
« أى ذريعة أعطاها هذا الزمان الغدار للسلطان سليم ؟ »

ثم استدعى السفير وقال له « اذهب وأبلغ دعاءنا للقبصر
(السلطان سليم) وقل له أن الزمن لم يمهل ذلك الأمير . واعتقد
أنك أرسلت أحد جواسيسك فتكر فى صورة صديق للأمير ثم دس
له السم ، وكأنك لم تكثف أن تكون يوم القيامة قاتل أبيه ، فهل

(٤) عالم أراى صفوى ص ٤٧٣ .

(٥) نفس المرجع ص ٤٧٥ .

كان يجب أن تحمل وزر ابن أخيك أيضا ؟ • على أية حال لقد أحسنت بمجيئك ، وإن شاء الله ساجلب على رأسك ما تتحدث به الاجيال بعد ذلك • وإذا كنت تريد ديار بكر ، فلم اخذها من أبيك لأننى أخذتها من علاء الدولة ذى القدر بحد السيف وكان قد استولى عليها من حسن شاه التركمانى • ولما كان قد خطر لك ادعاء املكه فعلى أية حال موعدنا أرضروم • وقد أحسنت بأن أبلغتنا بقدمك « (٦) • ثم قال للسفير « عد فانك ما تكاد تقابل القيصر حتى اكون قد لحقت بك » •

خرج الشاه اسماعيل من همدان متوجها الى تبريز ومعه نحو اثنى عشر ألف مقاتل هم الذين كانوا يلزمونه بصفة دائمة ، وحين وصل الى تبريز أمر فكتبوا الى كل المدن لاستدعاء الجيش والملاحق به • ولكن جاءه الجواسيس وأخبروه أن السلطان سليم وصل الى ارض روم ، ونصحه بعض الامراء بالانتظار حتى يصل بقية الجيش ولكنه ترك تبريز وتوجه الى سهل جالدران (تشالدران) فى أول رجب سنة ٩٢٠ هـ ونزل بجيشه هناك وقال هنا سيكون لقائنا مع القيصر ، وكان عدد جنوده قد وصل الى نحو ثمانية عشر ألف مقاتل •

فى صباح يوم الاربعاء الثانى من شهر رجب سنة ٩٢٠ هـ اصطف الجيشان ويذكر الايرانيون أن الشاه اسماعيل كان قد طلب من السلطان سليم الا يستخدم المدفعية فى هذه المعركة لان الايرانيين لم يكونوا قد أدخلوا الاسلحة النارية فى جيشهم حتى ذلك الوقت وقد وعدهم السلطان سليم بهذا • فلما دارت المعركة ضغط الصفويون على الاتراك وأجبروهم على التقهقر فى بعض المواقع • فطلب الصدر الاعظم من السلطان سليم أن يأمر باطلاق المدفعية فقال له السلطان لقد أقسمت على عدم اطلاقها • فقال الصدر الاعظم « أنت أقسمت ولكننى لم أقسم • ثم أمر باطلاق المدفعية على جيش الصفويين • ويقولون أنه فى أول

(٦) عالم ارى صفوى ص ٤٧٦ •

دفعة من نيران المدفعية التركية قتل عشرون ألف عثمانى وسبعة الاف قزلباش وذلك لاختلاط الجيشين فى القتال بالسيف والرمح .

وقد قتل اغلب قادة القزلباشية فى هذه المعركة ومنهم خان محمد خان استاجلو زوج اخت الشاه اسماعيل ، وسيد محمد كموه الذى كان قد سهل للشاه اسماعيل دخول بغداد ، وسارويبره استاجلو رئيس الحرس الخاص وغيرهم . ولهذا تفرق جيش القزلباشية ووقع كثير منهم فى الاسر . وظل الشاه اسماعيل يعدو فى ميدان المعركة بفرسه يحاول جمع شتات جيشه واستطاع انقاذ بعضهم من حصار العثمانيين ومنهم قائده وشقيق زوجته دورمش خان استاجلو ومعه نحو اربعمائة أو خمسمائة مقاتل وقال له « عد الى تبريز لاننى احوال انقاذ من اتمكن من انقاذهم لان « الحضرات » (٧) لم يجيئوا لمساعدتنا هذه المرة ومن المؤكد اننى لن استطيع ان افعل شيئا » (٨) .

وكان الاتراك قد اسروا أحد قواد القزلباشية وهو السلطان على ميرزا افشار وقد ادعى أنه هو الشاه اسماعيل الصفوى وتختلف الروايات فى هذا فنقول بعضها أن الفرسان العثمانيين تعقبوا الشاه اسماعيل وكادوا يقتلونه بحرابهم فصاح فيهم هذا القائد قائلا « اننى انا الشاه اسماعيل وانتم انما تتعقبون أحد اتباعى وتظنون الشاه ، فخلوا الشاه اسماعيل وتعقبوا على ميرزا افشار وأسروه ، وبهذه الحيلة انقذ الشاه من الوقوع فى ايدى العثمانيين واقتداه بنفسه ، وبعد أن حملوه للسلطان سليم تبين لهم أنه أحد قواده فقتلوه هناك(٩) .

(٧) يقصد بالحضرات الامام على بن أبى طالب ان كان يدعى أنه يحارب معه فى معاركة مما يدفع القزلباشية للاستقبال فى القتال وكانوا يقولون « حامى اوزى در » وهى بالتركية ومعناها « جاء الحامى » .

(٨) عالم ارأى صفوى من ٤٩٤ .

(٩) عالم ارأى عباس من ٤٣ .

وقد سيطر العثمانيون على المعركة واستطاعوا الوصول الى معسكر الصفوية وحملوا كل ما كان به من سلاح وعتاد ودواب .
وهربت زوجة الشاه اسماعيل رهي تاجلوبيجم استاجلو ووضعت قناعاتها على وجهها واخذت تقاتل كالرجال ، وقد التقى بها الشاه اسماعيل اثناء محاولاته اليائسة لانقاذ بعض جنوده المحاصرين وطلب منها ان تعود الى تبريز ، وعندما عاد الى تبريز وسأل عنها لم يستدل عليها احد اذ انها كانت قد اصببت ببعض الجراح وضلت الطريق في الصحراء الى ان عثروا عليها بعد ثلاثة ايام . وقد عنفها الشاه اسماعيل وهددها بالقتل ان لم تقسم على عدم الاشتراك في القتال بعد ذلك .
عودة اليائس :

حين ينس الشاه اسماعيل من المعركة عاد بمفرده متوجها الى مدينة « درجزين » في الطريق الى تبريز ، واثناء سيره على غير هدى دخل فرسه في مستنقع موحل وكان كلما حاول الخروج منه ازداد غوصا فيه حتى كاد يهلك . وقد مر على مقربة منه خليل خان ذو القدر والى اقليم فارس فارا من المعركة فناداه الشاه اسماعيل لينقذه ولكن خليل خان تغافل عنه وانطلق في طريقه . وبعد فترة رأى الشاه شخصا آخر عرف من ملابسه انه من القزلباشية فناداه .
وحين اقترب تبين انه سائسه الخاص فطلب منه ان يلقي اليه بوهقه (١٠) الذي تناوله الشاه اسماعيل وربطه في وسطه ثم سحب السائس بحبله ، فلما خرج الشاه من الوحل ركب حصان سائسه وانطلق وقد استطاع السائس ان ينقذ فرس الشاه من الوحل ثم لحق بالشاه في درجزين ، وقد كافاه الشاه على هذا بأن منحه ولاية داراب جرد .
أما خليل فان فقد أرسل اليه أمرا بأن يقتل نفسه ففعل

(١٠) الوهق حبل في اخره أنشودة وهو الذي تشاهده حاليا في افلام رعاة البقر ويستخدمونه في الامساك بالخيول أو الايقان وأحيانا الافراد وكان يستخدم في الحروب أيضا .

كان خبر هذه الهزيمة قد وصل الى العاصمة تبريز فلما دخلها
الشاه اسماعيل اثناء الليل اجتمع عليه من كان قد سبقه اليها من
القواد والمجنود وكانوا نحو سبعة الاف جندي .

دخل السلطان سليم مدينة تبريز عاصمة الصفويين . ولكن المدينة
كانت شبه خالية من المؤن والاغذية ، ولهذا انتشر بها القحط والغلاء
فلما رأى السلطان سليم هذا أمر باخلاء المدينة من الجنود
حتى يخفف من وطأة القحط . فلما ابتعد السلطان سليم عن المدينة
نحو عشرة كيلو مترات عاد اليها الشاه اسماعيل الصفوي ويقال أنه
كان متبقيا بها نحو خمسة وأربعين ألف تركي عثماني انقض عليهم
الاهالي وقطعوا رؤوس أغلبهم وحملوها على الرماح وخرجوا يستقبلون
بها الشاه اسماعيل الصفوي . كما دارت بعد ذلك بعض المعارك بين
الجانبيين اثناء انسحاب العثمانيين الى بلادهم قتل فيها عشرات الآلاف
من الجانبيين .

عودة الاوزبك :

كانت هزيمة الشاه اسماعيل الصفوي قد ذاعت في كل انحاء
ايران وبلاد ما وراء النهر فتجمع الاوزبك بقيادة عبيد خان وتقدموا
الى هراة فاستولوا عليها ثم دخلوا مشهد التي اخلاها القزلباشية
وواصلوا تقدمهم الى نيسابور وسبزوار . وظل الاوزبك في خراسان
عامين كان فيهما الشاه اسماعيل الصفوي مشغولا بالحفاظ على المناطق
الغربية لبلاده خوفا من العثمانيين . ولكن عندما علم بوفاة السلطان
سليم وتولى ابن سليمان القانوني السلطة وانصرافه عن ايران جمع
جيشه وتوجه من قزوین الى خراسان ليخلصها من أيدي الاوزبك الذين
اخلوها له وعادوا الى ما وراء النهر ودخل الصفويون مشهد وهرات
دون قتال (١١) .

(١١) عالم آرای صفوی ص ٥٧٥ - ٥٧٧

وكان ملوك الكوج قد انتهزوا فرصة انشغال اسماعيل الصفوى وارانوا التقدم لاختلال أردبيل وقزوين العاصمة فارسل لهم الشاة اسماعيل أحد قواده واسمه ديو (١٢) سلطان فخاض عدة حروب ضدهم واستطاع الاستيلاء على كثير من مدنها ومنها شيروان وتقليس انهكت كل هذه الحروب وخاصة هزيمة جالدران صحة الشاة اسماعيل الصفوى ويقال هذه أنه أصيب بنوع من الانطوائية والحزن أدت فى النهاية الى إصابته بالسل وتوفى فى عنفوان شبابه سنة ٩٣٠هـ وكان آنذاك فى الثامنة والثلاثين من عمره وأرخوا يوم وفاته بحساب الجمل فى اشعار منها هذا البيب الذى ترجمته -

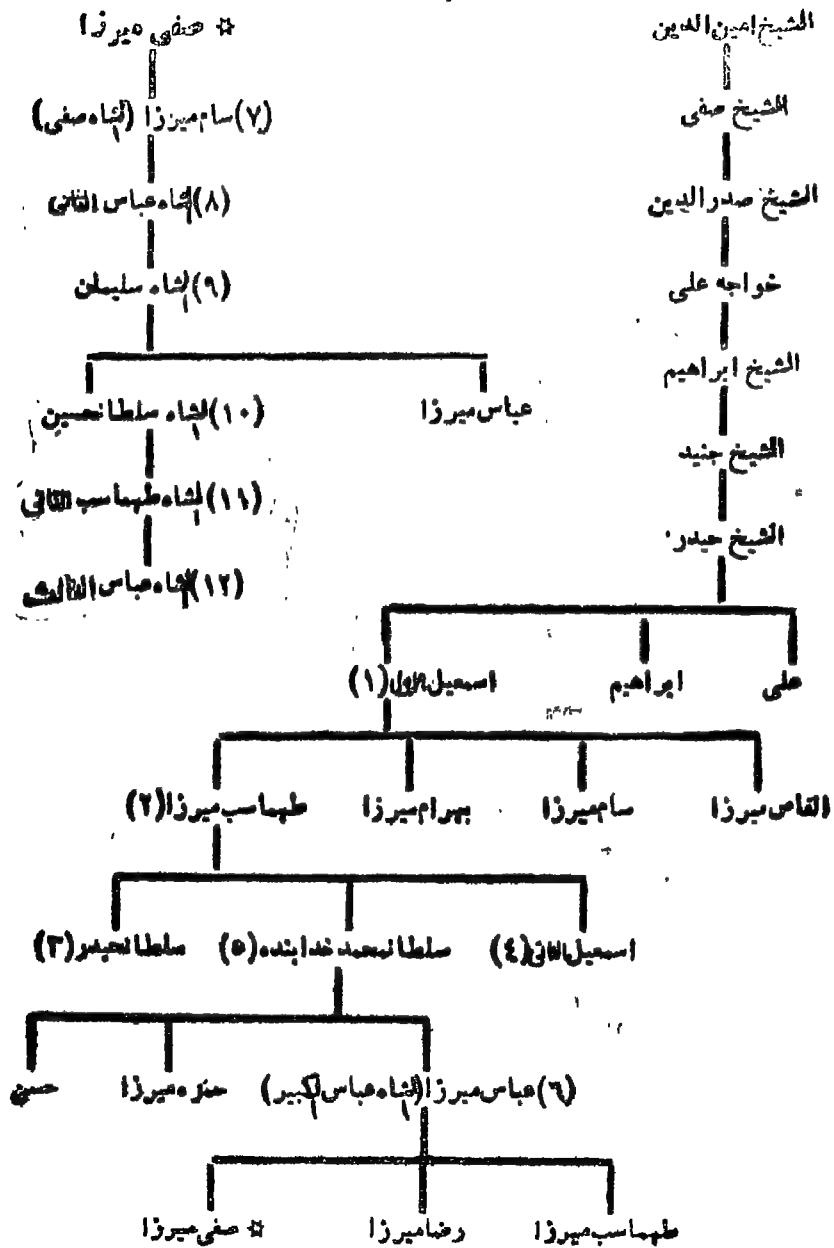
كانوا يصيحبون يوم وفاته شاه وشاه وشاه

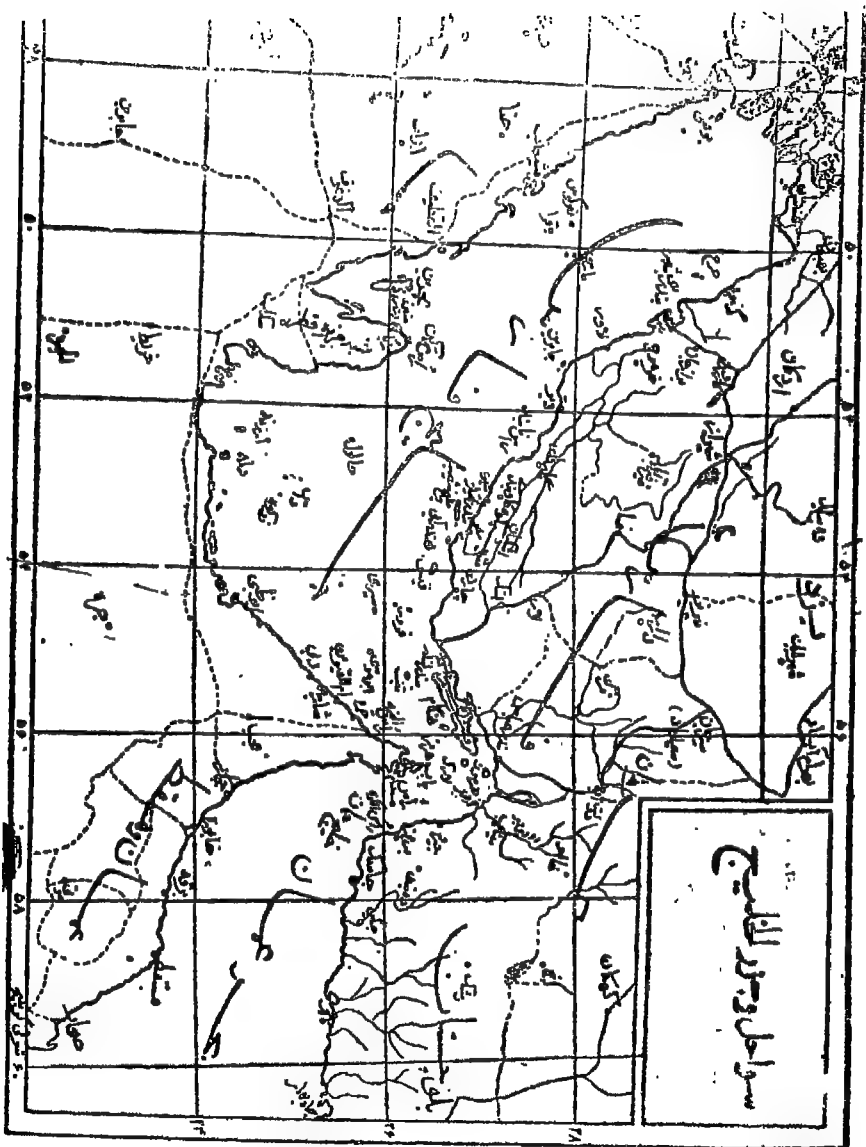
وقد جعلت هذه الكلمات تاريخ وفاته

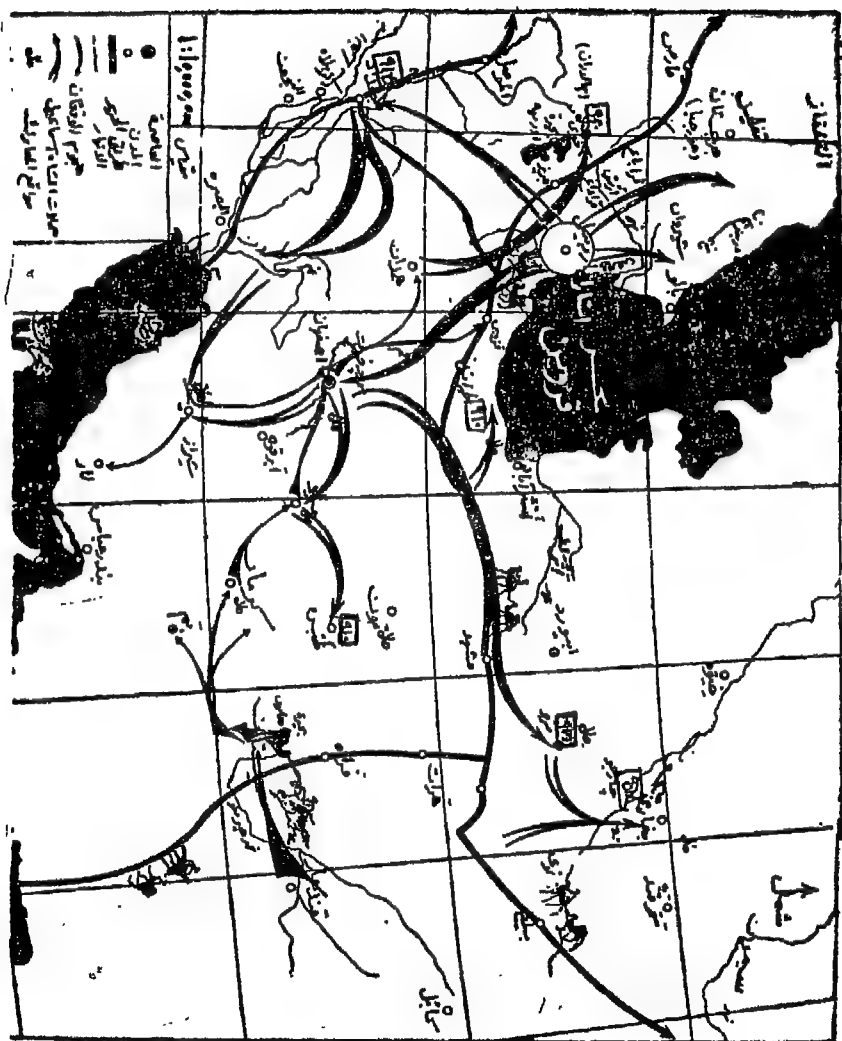
وهكذا انتهت حياة الشاه اسماعيل الصفوى الذى أسس دولته على أساس مذهبى متطرف ومتشدد لكى يستغل الوازع الدينى والعاطفة المذهبية حتى يحارب المسلم أخاه المسلم وقد قتل على يديه مئات الألوف من المسلمين دون ذنب أو جريرة الا عدم دخولهم فى مذهبية وأن كانت هذه الدولة قد أدت الى وحدة ايران أو قوتها بعض الوقت الا انها أدت الى فرقة المسلمين واحداث صدم فى الاسلام أدى الى انحطاط المسلمين وفناء قوتهم فوقعوا فريسة سهلة للاستعمار الأوروبى والروسى مما لازلنا نعانى آثاره حتى اليوم -

(١٢) تنطق « ديف » ومعناها الشيطان وهى devil

شجرة نسب السلطنة







علاقات ايران مع البرتغال واسبانيا

تبتدىء علاقة ايران مع حكومة البرتغال فى العصر الصفوى منذ عهد الشاه اسماعيل الاول فبعد أن أطاح السلطان العثمانى محمد الفاتح فى سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣م) بامبراطورية الروم الشرقية وسقط ميناء القسطنطينية فى أيدي الاتراك ، أغلق طريق التجارة بين أوروبا وآسيا بسبب استيلاء الاتراك وسيطرتهم على شرق البحر الابيض وآسيا الصغرى والشام ولهذا أضطر التجار البندقيون والبرتغاليون الذين كان لهم اهتمام شديد ببضائع الدول الاسيوية وخاصة الهند ، للبحث عن طريق آخر يوصلهم الى تلك البلاد .

وقد اتجه تجار البندقية الى طريق الاسكندرية والبحر الاحمر ، ولكن طمع المماليك فى مصر وسوء معاملتهم ، الى جانب مشاكل أخرى منع استمرارهم فى استخدام هذا الطريق . وفى هذه الاثناء اتجه بعض التجار والبحارة البرتغاليين لاكتشاف طريق الهند عبر جنوب افريقيا ، واستطاع اولهم واسمه بارثلمى ديان (١) ، الالتفاف حول طريق رأس الرجاء الصالح سنة ٨٩٢ هـ (١٤٨٧م) ودخل المحيط الهندى ، ولكنه لم يستطع الوصول الى الهند فعاد ثانية الى البرتغال . وبعد اثنى عشر عاما أى فى ٩٠٤ هـ (٩٨ - ١٤٩٩م) استطاع القائد البحرى البرتغالى فاسكودى جاما الوصول الى الهند عن نفس الطريق والعودة فى العام التالى الى البرتغال .

وقد أدت رحلة دى جاما الى انشاء مستعمرات برتغالية فى

الهند وأغلب مناطق آسيا ، وإلى زيادة مكانتها الدولية حتى أن ملوك البرتغال أخذوا يطلقون على أنفسهم انذاك لقب « سادة الملاحنة والغزو والتجارة مع الهند والحيشة والبلاد العربية ويران » وعاد فاسكو دى جاما إلى الهند مرة ثانية سنة ٩٠٨ هـ (١٥٠٢ م) ووسع منطقة استعمار البرتغال على السواحل الغربية للهند .

قبل أن يصل البرتغاليون إلى المحيط الهندي وبحار جنوب آسيا كانت تجارة هذه المناطق في أيدي العرب المصريين والعثمانيين واليهود ، ولكن حينما وصل البرتغاليون إلى الهند جعلوا تجارة الشرق قاصرة عليهم وحدهم وكفوا أيدي العرب عن المحيط الهندي وبحر عمان والخليج (الفارسي) . وفي سنة ١٥٠٥ م عين شخص اسمه فرانثيسكو دى ألميدا (٢) نائبا للملك البرتغال في الهند بعد فاسكو دى جاما ، وقد بقى في منصبه حتى سنة ١٥٠٩ م وفي هذه الفترة استطاع أن يثبت أقدام دولته ونفوذه في الهند وذلك نتيجة للحروب البحرية التي خاضتها ضد المصريين والسودانيين وضد الحكام المحليين الهنود وشرع في تأسيس شركة تجارية على السواحل الغربية للهند .

وفي سنة ٩١٢ هـ (١٥٠٦ م) أرسلت حكومة البرتغال أحد بحارتها واسمه « تريستان داكونيا » (٣) مع ١٦ سفينة و ١٣٠٠ مقاتل ، كما أرسلت معه أحد بحارتها المشهورين واسمه « الفونسو دى البوكيرك » (٤) ليعاونه . وبعد مدة من التخبط والضيق استطاعت هذه السفن أن تصل إلى موزمبيق ، ولكن بسبب الاختلافات التي وقعت بين القائدين على خط سير الرحلة واتجاهها وهدفها ، ترك داكونيا جزءا كبيرا من السفن إلى البوكيرك وجعله قائدا للبحارة وأصدر

Francisco de Olmeda

(٢)

Tristan de Cunha

(٣)

aerhonso de Olbuquerque

(٤)

اليه أمرا باسم ملك البرتغال كى يستولى على ميناء عدن وسواحل البحر الأحمر ويخلق طريق التجارة فى وجه المسلمين عن هذا الطريق كما كان البوكيرك يحمل أمرا سريرا بأن يعزل فرانشيسكو دى الميدا بعد ٣ سنوات ويصبح هو نائب الملك وحاكم الهند من بعده .

ولكن عندما وجد البوكيرك أن قواته غير كافية للاستيلاء على عدن قرر أن يستولى على جزيرة هرمز الواقعة على مدخل الخليج العربى وبهذا يضع يده على كل طرق التجارة بالخليج .

كانت جزيرة هرمز حتى حوالى القرن الثامن الهجرى تسمى «جرون» وكان يوجد ميناء اسمه «هرموز (٥)» على مقربة من ميناء ميناب الحالى على ساحل البحر عند (مضيق هرموز) وكان يعد الميناء التجارى لمناطق كرمان وسيستان ولم تكن به أهمية كبيرة فى التجارة العامة آنذاك .

وذكر الرحالة والجغرافيون المسلمون مثل المقدسى والشريف الإدريسى والاصطخرى أن مدينة هرموز القديمة من آثار أردشير بابكان، وعدوها مركزا لتجارة كرمان ومعاملاتها وقالوا أنه الى جانب الغلال والارز والعنب والنيلة التى كانت تمثل المحاصيل الرئيسية لكرمان والتى تصدر من هذا الميناء فقد كانت تصدر منه أيضا الخيول الكريمة الى الهند .

(٥) جاء اسم هذا الميناء فى كل الكتب القديمة هرموز أو هرموج بالواو ويبدو أن المقطع الاول من هذه الكلمة هو هور أو خور التى تعنى ميناء أو مرسى فى أكثر أسماء سواحل بحر عمان والخليج مثل خور موسى وخور فكان وخور ببيان وغيره ، كما أنها قد تعنى الخليج أو المستنقع مستعمله بكثرة فى العراق بهذا المعنى أما كلمة موز فهى تحريف أو لهجة فى كلمة موج وعلى هذا فالاسم يعنى ميناء الموج ويلاحظ أن اسم موزه اسم شائع للبنات فى الخليج وهو يعنى موجه تائرا بالبحر .

وكتب ماركو بولو التاجر البندقى فى رحلته وصفا لهرمز وأحولها الاجتماعية والتجارية ، ومدح الخيول الايرانية الممتازة التى كانت تصدر من ميناء هرموز الى الهند كما وصفها الجغرافيون الاسلاميون ايضا .

ومنذ اواخر القرن الخامس الهجرى كان يحكم ميناء هرموز سلسلة من الامراء العرب ليس لدينا علم كامل عن مؤسسهم أو أول من حكم منهم ، وكل ما نعلمه أن الأمير الثانى عشر لهذه السلسلة وهو ركن الدين محمود وصل الى الامارة سنة ٦٤٤هـ . وكان امراء هرموز يتبعون اتابكة فارس ثم القراختائين فى كرمان ويدفعون لهم الخراج وبعد ذلك أطاعوا حكام المغول فى فارس والشيخ أبا اسحق اينجو وال مظفر (٦) . وفى سنة ٧٩٩ قبلوا الدخول فى طاعة الامير تيمور لك ومع أنهم كانوا مستقلين فى الظاهر ويحكمون جزر البحرين وبلاد عمان الا أنهم كانوا دائما يدفعون الخراج لامراء فارس وكرمان .

وفى نحو عام ٧٠١هـ انتقل الامير بهاء الدين ابن الامير الخامس عشر لهرمز من ذلك الميناء الى جزيرة جرون مع جميع الاهالى وذلك بسبب هجوم المغول الجفتائين (٦٩٩ - ٧٠٠ هـ) وغيروا اسم تلك الجزيرة الى هرمز ذكرى لموطنهم القديم وأسسوا هناك مدينة جديدة .

وقد كتب الرحالة المسلمون والاوربيون كثيرا عن مدينة هرمز الجديدة ومن بينهم أحد الرحالة الاوربيين واسمه « فرير أوردوريك (٧) »

(٦) آل مظفر حكموا شيراز وجنوب ايران ٧١٨ - ٧٩٥ هـ ، وأبو اسحق اينجو حكم شيراز فى منتصف القرن الثامن وينتسب الى أبى عبد الله الانصارى (المترجم) .

Frayer Odoric

(٧)

وقد عاش فى النصف الاول من القرن الثامن الهجرى وزار هذه المدينة يقول « لمدينة هرمز سور وقلعة حصينة والجزيرة التى تقع فيها هذه المدينة تبعد خمسة أميال عن ساحل إيران ويوجد فى هذه الجزيرة بضائع قيمة مختلفة » .

وجاء بعده ابن بطوطة الرحالة المعروف الذى زار المدينتين القديمة والجديدة فى أواسط القرن الثامن فقال « وهرمز مدينة على ساحل البحر ، وتقابلها فى البحر هرمز الجديدة وبينهما فى البحر ثلاثة فراسخ ، وهرمز الجديدة جزيرة مدينتها تسمى جرون وهى مدينة حسنة كبيرة لها أسواق حافلة وهى مرسى الهند والسند ومنها تحمل سلع الهند الى العراقيين وفارس وخراسان وبهذه المدينة سكنى السلطان، وطعامهم السمك والتمر المجلوب اليهم من البصرة وعمان ، والماء فى هذه الجزيرة له قيمة وبها عيون ماء وصهاريج مصنوعة يجتمع فيها ماء المطر » (٨) .

ووصف الرحالة الاوربيون الذين زاروا جزيرة هرمز فى القرن العاشر الهجرى هذه الجزيرة بالجمال ورواج التجارة وكتب أحدهم يقول « أحيانا كان يجتمع فى مرساها أكثر من ثلثمائة سفينة من الدول المختلفة ، ويقام فى هذه المدينة أربعمائة تاجر بصفة دائمة وأكثر تجارة هرمز هى اللؤلؤ والحريز والاحجار الكريمة والتوابل (٩) » .

وكتب آخر يقول « جزيرة هرمز أكثر جفافا من كل جزر العالم ولا يوجد فى أرضها غير الملح ويأتون بأغذية أهلها وما يحتاجونه من إيران ويشاهد فى هذه المدينة تجار كثيرون من مختلف الامم يعملون فى تجارة التوابل والاقمشة الحريرية والسجاه الايراني

(٨) مهذب رحله ابن بطوطة ص ٢١٥ .

Ludovig Wartheman

(٩) رحلة لودفيج وارتمان

الذى زار الجزيرة عام ٩٠٩ هـ قبل حمله البرتغاليين .

ويحضرون الى جزيرة هرمز لالىء كثيرة من البحرين ، وترسل الخيول
الايرانية الاصلية المصدرة الى الهند الى هذه الجزيرة أولا (٢٠) .

وقد اشتهرت جزيرة هرمز فى ذلك الوقت فى أوربا بالجمال
والثروة والعظمة حتى مدحها لويز فان دى كاموئنز (١١) الشاعر
الوطنى البرتغالى المشهور فى منظومته لوسياذ فقال « ايران هذه
الدولة العظيمة ذات المفاخر ورجالها الابطال المشجعان اللذين يتباهون
بقوة سواعدهم الحديدية الضاربة بالسيف وكذلك جزيرة جبرون
أعجوبة العصر التى أصبحت فى الشهرة والجاه مكان المدينة القديمة
لاتبعدهما عن ذكرالك » .

وكانوا يقولون فى الشرق على سبيل المثل « اذا كانت الدنيا
خاتما فان هرمز هى قصه » وظلت مدينة هرمز الجديدة نحو مائتى
عام ذات أهمية واعتبار وقوة وحينما استقر امراء هرموز القديمة
فى جزيرة جبرون أخذوا يسيطون نفوذهم شيئا فشيئا على جزر كيش
(قيس) والبحرين وحدود البصرة (١٢) .

(١٠) رالف فيتش Ralph Fitch الرحالة والتاجر الانجليزى
الذى جاء الى جزيرة هرمز حوالى ٩٨٦ هـ (يرجع الى كتاب الخليج
الفارسى تأليف سير ارنولد ويلسن طبع ١٩٢٨) .
(١١) لويز فان دى كاموئنز Luiz Van de Camoens من شعراء
البرتغال المشهورين ويعدونه مثل هوميروس اليونانى وفرجيل الرومانى
ولد ١٥٢٥ م (٩٣١هـ) وتوفى ١٥٨٠ (٩٨٨ هـ) وعاش حياته فى الهند
والصين ومنظومته لوسياذ Lusíades من أشهر الاعمال
الادبية الاوربية .

(١٢) كتب الامير الحادى والعشرون لجزيرة هرمز والمندوع
نورانشاه بن قطب الدين تهمتن كتابا فى تاريخ ايران وتاريخ امراء
هرمز وحكومته وأسرته بالنثر والشعر الفارسى ويظهر أنه كان يسمى
« شاهنامه » وقد نقل أحد الرحالة البرتغاليين وهو بدرو تكسيرا
Pedro Texeira والموالود ١٥٧٠ م (٩٧٧ هـ) مقتضرا من هذا

==

حملة الفونسو دى البوكيرك على جزيرة هرمز :

سبق أن ذكرنا أن الفونسو دى البوكيرك توجه الى الخليج فى عام ٩١٣ هـ (١٥٠٧م) مع ست سفن للاستيلاء على هرمز ، فاستولى فى طريقه على مدينة مسقط على الساحل العمانى والتي كانت مدينة كبيرة كثيرة السكان وتدفع الخراج لامير هرمز ، كما استولى على بعض موانى عمان وأشعل فيها النار ثم ألقى مراسيه فى مواجهة مدينة هرمز الجديدة ، وحينما رأى مرافقوا البوكيرك عظمة مدينة هرمز وسفنها الحربية وجيشها المجهز الذى استعد على الساحل شعروا بالخوف وترددوا فيما هم مقدمون عليه .

فى ذلك الوقت كان امير هرمز غلاما عمره ١٢ عاما اسمه سيف الدين ، وكان أحد رجاله يسمى العطار وكان قديرا شجاعا يتولى حكم الجزيرة كنائب للامير ، وحينما علم هذا الرجل بحمله البوكيرك جمع على الساحل اربعمائة سفينة بين صغيرة وكبيرة مع الفين وخمسماية مقاتل كما استأجر من الدول المجاورة مثل ايران والجزيرة العربية كثيرا من الرجال المحاربين وجهز جيشا من ٣٠ ألف رجل مسلح كان من بينهم أربعة آلاف نابل ماهر (١٣) .

ابتداء البوكيرك فطالب من امير هرمز ان يخضع ملك البرتغال ويدفع له الخراج ، فلم يقبل العطار طلبه ومع كثرة جند العطار وقلة

الكتاب فى وصف رحلته الذى طبع سنة ١٦١٠ م (١٠١٩ هـ) فى مدينة أنفرس البلجيكية وترجم وطبع فى باريس سنة ١٦٨١ م ولكن هذا الموجز لا يفيد كثيرا فى تاريخ هرمز ولكن يعلم منه ان الامير الثانى عشر لهرمز كان يسمى ركن الدين محمود وحكم لمدة ٣٥ عاما ، ويبدو ان امارته كانت معاصره لرحلة ماركوبولو حوالى عام ١٢٩٢م (٦٩١ هـ) وزار تكسبيراً هرمز مرتين الاولى من ١٥٩٣ الى ١٥٩٧ والثانية عام ١٦٠٣ م .

(١٣) نابل أى الذى يستعمل النبال والسهام .

قوات البوكيرك الا انه أصدر أمرا بالقتال وقد انتصر في حربه وذلك بسبب استخدامه للمدافع والبنادق والأسلحة النارية ، وبهذا أصبح أمير هرمز تابعا لحكومة البرتغال ، وأخذ منه خمسة آلاف اشرفى - وهو العملة المستعملة في الخليج آنذاك - كغرامة حربية . كما تقرر أن يدفع كل عام مبلغ ١٥ ألف اشرفى كخراج لحكومة البرتغال ، وعقد مع أمير هرمز اتفاقية بالآلا يأخذ عن البضائع والتجارة البرتغالية أية جمارك أكثر من مبلغ معين كما تف تجارة هرمز من دفع الجمارك في البرتغال ، ومنع أية سفينة محلية من الاشتغال بالتجارة في الخليج دون تصريح من المسؤولين البرتغاليين كما تقرر أن يقيم قلاعا في الجزر القريبة مثل قشم (طويلة) ونابند وغيرها كما اختير موقع قلعة مورونا في جزيرة هرمز حيث أقيمت هذه القلعة الحصينة في أكتوبر ١٥٠٧م (جمادى الثانى ٩١٣هـ) ، كما أسست شركة تجارية كبيرة في مدينة هرمز وأرسل اليها مقدار كبير من البضائع وأمر البوكيرك بخفض الأسعار تقيضا كبيرا استمالة لأهل الجزيرة .

بعد فترة وجيزة من هذه الأحداث طالب الشاه اسماعيل الأول ملك ايران بالخراج السنوى المعتاد من أمير هرمز ، فاضطر الأمير للاستعانة بالبوكيرك الذى أرسل الى شاه ايران يقول « لقد استولينا على هرمز بقوتنا وقدرتنا وهى مملوكة لجلالة دون ايمانويل ملك البرتغال (١٤) وليس لأمير هرمز حق دفع الخراج لملك غيره والافاننى سألخه من أمانة الجزيرة ونجلس مكانه شخصا لا يخشى ملك ايران ، - ثم أعطى لمبعوث أمير هرمز بعض طلقات المدافع والبنادق والبارود وقال له « قل لأميرك أن يرسلها الى الشاه اسماعيل بدل الخراج لأن ملك البرتغال أمرنا الا نجيب الأعداء الا بمثل هذه الاشياء ، وبعده

(١٤) Dom Manoel (Don Emwanuel) المعروف بالسعيد
والذى ملك من ١٤٩٥ الى ١٥٢١م (٩٠١ - ٩٢٨ هـ) .

أن أنتهى من قلعة هرمز فسوف أهاجم على سواحل الخليج الفارسية ونستولى على كل موانئها وبلدانها الساحلية التى تخضع الآن للمشاه اسماعيل ونضمها لاسم ملك البرتغال (١٥) .

وفى عام ٩١٤هـ (١٥٠٨م) اضطّر البوكيرك لترك جزيرة هرمز وذلك بسبب الخلافات الشديدة التى ظهرت بين الملاحين وكبار ضباط البحرية البرتغاليين وعاد الى الهند وانصرف عن متابعة فتوحاته فى الخليج . وحينما عزل الميدا فى عام ٩١٥هـ (١٥٠٩م) من منصب نائب الملك فى الهند جلس البركيرك مكانه .

ولقد اضطّر البوكيرك لعدم مغادرة الهند لمدة ٣ سنوات وذلك بسبب المضطرابات التى حدثت فى جوا مركز المستعمرات البرتغالية فى الهند . وفى عام ٩١٨هـ توجه للاستيلاء على ميناء عدن ومدينة مكة ولكنه لم يتمكن من تحقيق هدفه واكتفى بالحصول على الخراج من جزيرة هرمز .

وفى العام التالى وصل أمر من ملك البرتغال لكى يقوم بالاستيلاء على عدن وباب المندب ويفتح البحر الاحمر فى وجه السفن البرتغالية وقد ذهب البوكيرك هذه المرة فى عشرين سفينة كبيرة وألفين وخمسمائة من الهنود الى ميناء عدن ولكنه لم يتمكن من تحقيق شيء وعاد يائسا للهند .

بعد عودة البوكيرك الى الهند جاءه سفير من قبل الشاه اسماعيل الأول الصفوى وعقد معه معاهدة صداقة (١٦) . وفى نفس العام

(١٥) مذكرات الفونسو دى البوكيرك ، نقلا عن كتاب الخليج الفارسى بالانجليزية تأليف السير أرنولد ويلسون .
(١٦) لا يوجد فى المرجع الاوربية اسم لهذا السفير ولا تفصيلات عن هذه المعاهدة كما أن المصادر الايرانية ليس فيها اشارات الى مثل هذه المعاهدة .

أرسل البوكيرك ابن أخيه مع بعض السفن لاختضاع عرب عدن الذين كانوا قد اعتدوا على المستعمرات البرتغالية ، وبعد أن استولى هذا القائد على بعض سفن العرب التجارية ذهب فى ربيع الاول سنة ٩١٩هـ (١٥١٢م) الى جزيرة هرمز لتحصيل خراجها ولكن توران شاه أمير الجزيرة امتنع عن دفع الخراج له لأنه كان قد دخل فى حماية الشاه اسماعيل الأول فاضطر للعودة للهند .

بعد عودة هذه الحملة صمم الفونسو دى البوكيرك على الذهاب بنفسه الى جزيرة هرمز لتثبيت دعائم السيطرة البرتغالية عليها ، ولهذا اتجه فى شهر محرم سنة ٩٢١هـ (فبراير ١٥١٥م) مع ٢٦ سفينة و ٢٢٠٠ جندي الى الخليج « وفى الطريق بلغه انه حدث انقلاب فى الجزيرة وأن الوالى الايرانى على مسقط واسمه الرئيس احمد قد استولى على الجزيرة وسجن أمير هرمز ، ولهذا أسرع فى الوصول الى الجزيرة وأخذ فى اطلاق النار على المدينة فاضطر الرئيس احمد من الخوف الى اطلاق سراح توران شاه أمير هرمز وتصالح مع قائد الاسطول البرتغالى ، واستطاع الجنود البرتغاليون الاستيلاء على قلعة المدينة بسهولة ورفعوا العلم البرتغالى فوق قصر أمير هرمز .

بعد هذه الأحداث بفترة قصيرة جاء سفير آخر من قبل الشاه اسماعيل الأول الصفوى الى البوكيرك ، وعقدت اتفاقية بين الدولتين بالشروط التالية :

- ١ - تقوم القوات البحرية البرتغالية بمساعدة الحكومة الايرانية فى اخماد الانقلابات التى تحدث على سواحل بلوشستان ومكران .
- ٢ - تقوم القوات البحرية البرتغالية بمساعدة الحكومة الايرانية فى غزوها للبحرين والقطيف .

- ٣ - تتحد الحكومتان الايرانية والبرتغالية فى حربهما ضد الأتراك العثمانيين بالإضافة الى هذا فقد تغاضى الشاه اسماعيل

الصفوى عن جزيرة هرمز ووافق على أن يكون أمير هرمز بعد ذلك
تابعاً لملك البرتغال ويدفع له الخراج ولا تتدخل إيران في أمور
تلك الجزيرة .

في هذا العام اختار البوكيرك ابن أخيه برف لقيادة القوات
البرتغالية في هرمز وعاد هو إلى الهند وبعد وصوله إلى ميناء جوا
توفي في ١٥ ديسمبر ١٥١٥م (ذى القعدة ٩٢١هـ) .

أحوال جزيرة هرمز من وفاة البوكيرك حتى عصر الشاه الصفوى
عباس الأول .

منذ وفاة الفونسو دي البوكيرك وحتى عصر الشاه عباس الأول
أى إلى أواخر القرن العاشر الهجرى كان لحكومة البرتغال نفوذ قوى
في الخليج ، وكانت سفنهم تحتكر التجارة مع أكثر موانئ جنوب إيران
وسواحل الجزيرة العربية حتى البصرة عن طريق هرمز التى كانت
مركزاً لتجارتهم فى أنحاء الخليج . وكان نفوذهم يزداد يوماً بعد يوم
فى هذه الفترة على سواحل إيران ولكن مراكز التجارة فى بحر عمان
والخليج مثل مسقط وهرمز والبحرين كانت تتلاشى وتضعف نتيجة
لظلمهم وطمعهم .

بعد وفاة البوكيرك تولى نيابة الملك رجل اسمه لوبو سواريز (١٧)
وفى أثناء فترة حكمه استولى مساعدوه على جمرک جزيرة هرمز بأمر
من « دى مانول » ملك البرتغال (٩٢٩هـ - ١٥٢٢م) . وقد حدثت
اضطرابات شديدة بسبب ظلمهم فى جزيرة هرمز والبحرين وسواحل
مسقط وبعض مناطق الخليج الأخرى قتل فيها بعض حراس القلاع
البرتغاليين - وفى وسط هذه الأحداث تجرأ أمير هرمز وحاصر القلعة
البرتغالية فى الجزيرة ولكن وصلت إلى حراس القلعة مساعدات من

مسقط ولهذا أضرم الأمير النار فى المدينة لخوفه من الانتقام وهرب الى جزيرة قشم حيث قتل هناك وتولى ابنه الأمير محمد شاه الذى كان فى الثالثة عشرة من عمره الامر من بعده .

بعد ذلك عقد نائب الملك الجديد فى الهند وكان اسمه « دوم دورات دى مفزيس » معاهدة مع الأمير الجديد على شاطئ نهر ميناى واعترف أمير هرمز مرة أخرى بسيطرة ملك البرتغال على هذه الجزيرة وبأقى ممتلكاته (رمضان ٩٢٩ هـ - يوليو ١٥٣٣ م) .

كانت هذه الاحداث مقارنة لوفاة الشاه اسماعيل الاول الصفوى وتولية ابنه طهماسب (*) الاول ، ولم تتخذ فى عهد هذا الملك (طهماسب) أية اجراءات من قبل ايران للاستيلاء على جزر هرمز وقشم والقضاء على نفوذ البرتغاليين فيها وفى باقى موانئ جنوب ايران لانه انشغل طيلة حكمه بالحرب فى الولايات الغربية ضد عدوه العثماني القوي السلطان سليمان القانوني ، أو كان مشغولا ببرد هجمات الازبك التركمان على خراسان ولم تتح له الفرصة ليتوجه للسواحل الجنوبية .

ومن ناحية أخرى فان القوات البحرية البرتغالية فى المحيط الهندي وبحر عمان والخليج آنذاك لم يكن لها نظير أو منافس ، وكانت هذه الدولة تستولى على كل مراكز التجارة الهامة فى الهند وسواحل بحر عمان والخليج بواسطة اسطولها البحري وكان استرداد جزر وموانئ ايران الجنوبية ممكنا فى وقت من الاوقات لو أن حكومة ايران اهتمت باعداد سفنها الحربية وقواتها البحرية أو استعانت بحكومة يمكن أن تتساوى مع البرتغال قوة فى البحر ، ولم يتخذ أى من هذين الاجراءين فى عصر الشاه طهماسب الاول ومن بعده أيضا . وظل البرتغاليون دون رقيب أو منافس حتى جاءت السفن الهولندية والانجليزية الى المحيط الهندي وبحار جنوب ايران . وكان العثمانيون فقط يعكرون عليهم حريتهم التجارية من وقت الى آخر .

(*) تولى ٩٣٠ هـ .

وبعد معاهدة ميناب قام منزيس نائب الملك فى الهند باعادة
أمير هرمز الى الجزيرة وعاد هو محملا بغنائم كثيرة الى الهند ، ولكن
حين عودته علم أن دوم فاسكو دى جاما (١٨) عين مكانه نائبا للملك .
وبعد فاسكو دى جاما عين شخص اسمه لوبو فاز (١٩) ثم تولى هذا
المنصب نانو دا كونيا (٢٠) الذى جاء الى سواحل الخليج وجزيرة
هرمز فى ٩٣٥ هـ (١٥٢٩ م) ليطلع على أحوال المستعمرات البرتغالية

وفى العام التالى ايضا جاء الى هرمز أحد القواد البرتغاليين
واسمه تافاريز دى صوصا (٢١) وكان قد عين عاملا على نواحي
البصرة . وكان ملك البرتغال قد كلف هذا القائد بمساعدة حاكم
البصرة فى حربه ضد أمير الجزيرة (٢٢) ولكن حين امتنع أمير
البصرة عن تسليم سبع سفن كان قد استولى عليها الى القائد البرتغالى،
كما لم يمنع تجارة العثمانيين فى ميناء البصرة فقد أحرق دى صوصا
جزءا من ممتلكات هذا الأمير ثم ذهب الى هرمز . ويجب أن تعد هذه
الحادثة أول حملة برتغالية للجزء العلوى من الخليج . وفى ذلك
العام أيضا أرسل نائب الملك فى الهند سفنا الى جزيرة البحرين ، حيث
كانت قد قامت ثورة ضد أمير هرمز ولكن السفن البرتغالية هُزمت
وعادت للهند .

وفى عام ٩٤٩ هـ (١٥٤٢ م) لم يستطع أمير هرمز دفع الخراج
لنائب الملك فى الهند كما لم يستطع أيضا دفع مبلغ خمسمائة ألف

Dom Vasco de Gama (١٨)

Lopo Vaz (١٩)

Nuno de Cunha (٢٠)

Tavarez de Sausa (٢١)

(٢٢) يبدو أن المقصود هو أمير جزيرة الخضراء أو عبدان من

جزر مصب شط العرب .

دوكات (حوالى ١٢٠.٠٠٠ دولار) كانت قد أقرضت له ، ولهذا فان مارتيم دى الفونسو (٢٣) نائب الملك فى الهند تغاضى عن المبالغ القديمة واتفقوا على أن يجمع البرتغاليون دخل جمارك جزيرة هرمز، ولما كانت مستحقات حكومة البرتغال تحصل منذ ذلك الوقت من دخل الجمارك فان الخراج المستحق لها لم يتأخر دفعه أو تحصيله بعد ذلك .

وقد ابتدأت الحرب بين الاتراك العثمانيين والحكومة البرتغالية فى الخليج منذ عام ٩٥٧ هـ (١٥٥٠م) لانه فى تلك السنة سلم عرب القطيف قلعتهم هناك الى الاتراك كما أخرجوا أمير البصرة من مقر امارته ، فاضطر أمير البصرة الى طلب المساعدة من الفونسو دى نورونيا (٢٤) نائب الملك الجديد فى الهند فى مقابل موافقته على اقامة البرتغاليين لقلعة فى ميناء البصرة ، وقد أرسل نائب الملك ١٩ سفينة وألف ومائتى مقاتل بقيادة أنطونيو دى نورونيا لمساعدة أمراء القطيف والبصرة ، وبعد أن دمر نورونيا قلعة القطيف توجه الى البصرة ولكن أخذ باشاوات الاتراك خدمه وأعاده الى هرمز ولم يستطع استرداد البصرة .

وفى نفس هذه السنة أرسلت الحكومة العثمانية أحد قوادها واسمه بير بك على رأس ١٦ ألف جندى ويضعة سفن الى الخليج وانتصر بير بك على السفن البرتغالية التى أرسلت لمحاربته انتصارا ، أخفا واستولى على ميناء مسقط بعد أن حاصره ١٨ يوما ، كما أسر القائد البرتغالى ، ومن هناك ذهب الى جزيرة هرمز وهو يحمل كثيرا من الغنائم الحربية وهاجمها ، ولما لم يستطع فتح قلعتها البرتغالية نهب المدينة وذهب الى جزيرة قشم ومنها عاد للاراضى العثمانية محملا بغنائم وافرة ولكنه قتل فى القسطنطينية عام ٩٥٩ هـ

Martim de Alfonso
Alfonso de Noronha

(٢٣)
(٢٤)

بعد حملة بيرث أرسلت الحكومة العثمانية قائد آخر اسمه مراد بك مع ١٥ سفينة حربية الى الخليج ودارت حروب شديدة بين السفن العثمانية والسفن البرتغالية على السواحل الايرانية وبعد عام واحد تمكن البرتغاليون من القضاء على السفن التركية التى كان يتولى قيادتها قائد اسمه على شلبى ، وبعد هذا استردوا سلطتهم المطلقة على سواحل الخليج .

وقد اعاد العثمانيون الهجوم عدة مرات على جزر البحرين وميناء مسقط وبعض موانئ الجزيرة العربية الاخرى التى كانت خاضعة للبرتغاليين ولكن هذه الحملات لم تكلل بالنجاح وفى هذه الاثناء اندلعت الحرب بين والى لار وأمير هرمز واستطاع أمير هرمز أن ينتصر على والى لار بمساعدة البرتغاليين واستولى على قلعة شمىل التى كانت تحت سيطرته .

كانت العلاقات البرتغالية الايرانية فى عهد الشاه طهماسب الاول (٩٣٠ - ٩٨٤ هـ) فى ظاهرها ودية وليس فى أيدينا تفصيلات كاملة عنها ولكن ما نعلمه هو أن دون سياستيان ملك البرتغال (١٥٥٧ - ١٥٧٨ م) أرسل السفراء الى بلاط الشاه طهماسب الاول مرتين الاولى سنة ٩٥٨ هـ (١٥٥١ م) والثانية سنة ٩٨٢ هـ (١٥٧٤ م) عن طريق جزيرة هرمز وكانوا محملين بالهدايا والتحف . وقد وصل سفير الملك سياستيان - الذى كان من عظماء البرتغال - فى كثير من الابهة والعظمة الى ايران حتى أن معاونيه - غير المرافقين والخدم - كانوا خمسين شخصا ، ولكن الشاه طهماسب استقبل هذا السفير ببرود لان المسئولين البرتغاليين فى جزيرة هرمز كانوا يسيئون للمسلمين هناك ولم يسمحوا لهم باقامة مسجد ، ولم يأذن لهذا السفير ومرافقيه بالعودة حتى وفاته سنة ٩٨٤ هـ ، ولم يسمح لهم بالعودة الا فى عهد ابنه الشاه محمد خدا بنده .

وفي سنة ٩٨٨ هـ (١٥٨٠ م) أى فى السنة الرابعة من ملك محمد خدابنده خضعت البرتغال لاسبانيا وظلت تابعة لها الى سنة ١٠٥٠ هـ (١٦٤٠ م) أى الى العام الثالث من حكم الشاه صفى .
بعد أن استولى فيليب الثانى ملك اسبانيا الذى كان شديد التعصب للمذهب الكاثوليكي على البرتغال رأى أن يرسل سفيراً الى ايران لثلاثة اسباب :

الاول - أن يمنح شاه ايران لاتباع المذهب الكاثوليكي حرية دينية فى كل ايزان .

الثانى - ألا يكف يده عن عداوة وقتال العثمانيين .

الثالث - أن يمنح الرعايا الاسبان امتيازات تجارية .

ولهذا أرسل الى دوم مسكارينيا دى سانتا كروز (٢٥) نائبه فى الهند أمراً لى يرسل رجلاً لاثقا كسفير الى البلاط الايرانى ، ولكن نظرا لان الاوضاع المالية لنائب الملك فى اللند آنذاك لم تكن تسمح بإرسال سفير عظيم وتحمل نفقاته الباهظة ، لهذا رأى المجلس الاستشارى لنائب الملك أن يرسل قسيسا اسمه الاب سيمون موراليس (٢٦) . كان يعرف الفارسية ويتحدث بها ، وقد استقبل الشاه محمد هذا بالبهوت بالترحاب وأمره أن يدرس علوم الرياضة والفلك لابنه الاكبر حمزه ميرزا . وقد تغاضى الشاه محمد خدابنده عن المفاوضات اللودية والصلح مع الاتراك بناء على طلب هذا القسيس . ولكى يوطد اوامر الصداقة بين ايران واسبانيا فقد أرسل الشاه محمد خدابنده سفيراً من ايران مع القسيس الاسبانى أثناء وجودته وقد توجه السفير الاسبانى وسفير ايران الى أوروبا على ظهر سفينة اسمها « رحلة سعيدة » ولكن هذه السفينة - على غير ما يتوقع من اسمها - تعرضت لعاصفة على الساحل الشرقى لافريقيا ، وحملت جميع مسافريها الى الخالم الاخر .

Dom Mascarenha de Sonta Cruz

(٢٥)

Pere Simon Morales

(٢٦)

العلاقات الإيرانية الاسبانية فى عهد الشاه عباس الكبير

اتسعت العلاقات الإيرانية مع الدول الأوروبية فى عهد انشاء عباس الاول وجاء كثير من السفراء من قبل ملوك أوربا ، أو سافروا من إيران إلى أوربا لعقد معاهدات سياسية ضد الاتراك العثمانيين أو معاهدات تجارية بين دولهم وإيران .

فى سنة ١٠٠٧ هـ (١٥٩٩ م) جاء إلى إيران قسيسان برتغاليان أحدهما من جماعة الفرنسيسكان (١) واسمه الفونسو كورديزو (٢) والثانى من جماعة الدومينيكان (٣) واسمه نيكولاو دى ميلو (٤) وذلك عن طريق جزيرة هرمز وقابلا الشاه عباس فى مدينة اصفهان وقدم نيكولاو دى ميلو نفسه على أنه أسقف هرمز والمندوب الخاص لبابا روما وذلك أسبانيا وقد قابل الشاه عباس هذين القسيسين بكثير من المحبة والعطف ومنح نيكولاو دى ميلو صليبا من الذهب مكللا بالماس والفيروز والياقوت واستفسر منه عن الدين المسيحى والمركز الدينى للبابا . وقد كتب جورج مانورينج أحد مرافقى الاخوين شيرلى عن هذين القسيسين فقال « جاء قسيس من جماعة الفرنسيسكان إلى اصفهان وقال للسير انتونى اننى كمسيحى أرجوك انا ورفيقي من

(١) الفرنسيسكان أو الاخوة الدينيون الصغار Les freres Mineurs
أحدى الفرق الكاثوليكية التى أسسها القديس فرانسوا دى اسيس
Saint francois d' Assise عام ١٢٠٨ م (٦٠٤ هـ) من رجال الدين
المعروفين بهدف التبشير للمسيحية .

Alfonso Cordero (٢)

(٣) فرقة الدومينيكان أو الاخوة المبشرين Les freres prêcheurs
أحدى الفرق الكاثوليكية التى أسسها القديس دومينيك سنة ١٢١٥ م
(٦١١ هـ)

Micolao di Melo (٤)

جماعة الدومينيكان وأسقف هرمز أن تحصل لنا من الشاه عباس على إذن بأن نسافر ونتجول فى مملكته بملابسنا الدينية ولا يتعرض لنا أحد ، فقبل السير انتونى رجاءه ، وحصل له على أمر من الشاه عباس كما أراد ، وفى اليوم التالى رافق القسيس لمقابلة الشاه وقد استقبلهما الشاه عباس بحفاوة بالغة تكريما للسير انتونى شيرلى وسال نيكولاو دى ميلو قائلا « من اين جئت واى الدول شاهدت ؟ » .

اجاب القسيس « ان البابا ارسلنى نائبا عنه الى دول المشرق »

فقال الشاه عباس « ماذا تعنى كلمة البابا ؟ رغم انه كان يعرف تماما معناها ولكنه تعمد أن يظهر على غير علم .

فاجابه القسيس « ان البابا هو خليفة المسيح فى هذا العالم وهو يغفر ذنوب الناس » فقال الشاه « على هذا يجب أن يكون البابا عجوزا جدا لانه يعيش منذ أيام المسيح حتى الان ويخلفه .

فاجاب القسيس « ليس هكذا ، فقد تعاقب كثير من البابوات منذ زمن عيسى .

فقال الشاه « على هذا يجب أن يكون البابوات من البشر مث لنا وولدوا فى ايطاليا أو فى مدينة روما » .

فرد القسيس « نعم هو هذا » فسأله الملك « ألم يتكلموا اطلاقا مع الله أو عيسى ؟ » فاجابه « لا » .

فقال الشاه « إذن كيف يغفرون ذنوب الناس ؟ اننى لا اعتقد ان شخصا يمكنه غفران ذنوب الناس من دون الله ، أما فيما يتعلق بعيسى عليه السلام فأننى اعترف انه رسول كريم ولا شك انه هو الآخر يمكنه غفران ذنوب الناس وقرأت فى الكتب انه كانت له فى هذا الشأن معجزات عظيمة ، وأنه بغير اب إذ أن أمه حملته من نفس أحد الملائكة ، كذا أننى اعرف قصة صلبه ولهذا فأننى أكره اليهود » .

وبعد اسبوعين اى فى منتصف ذى الحجة عام ١٠٠٧ هـ سمح لهما بالعودة الى بلدهما مع السير انتونى شيرلى الانجليزى - الذى سنتحدث عنه فيما بعد - وحسين على بك بيات احد قواده المعروفين واللذين بعثهما الى الدول الاوربية ومن بينها اسبانيا لحقد معاهدات سياسية ضد الاتراك العثمانيين .

سفارة السير انتونى شيرلى الى البلاط الاسبانى

بعد ان قضى الشاه عباس على وجود الاوزبك فى خراسان عام ١٠٠٧ هـ واطمان على هذه الناحية عاد الى اصفهان وقرر ان يدخل فى حرب مع العثمانيين لكى يسترد الاقاليم (٥) التى اضطر فى بداية ملكه للتنازل عنها لتلك الدولة ، وبعد ان اعانة الاخوان شيرلى ورفاقهما على تنظيم الجيش وصنع المدفعية والبنادق والاسلحة الاوربية الحديثة رأى ان يتحد مع الملوك المسيحيين فى اوربا ضد الدولة العثمانية . وفى ذى الحجة عام ١٠٠٧ هـ - كما سبقت الاشارة الى هذا - امر احد قواده القزلباشية وهو حسين على بك بيات ان يسافر الى اوربا كمبعوث له ، وطلب من السير انتونى شيرلى ان يكون دليلا لسفيره ويرافقه فى سفره الى اوربا . وكان الشاه عباس يرمى الى هدفين من وراء ارسال السفير :

اولها - ان يتحد مع ملوك اوربا ضد الدولة العثمانية .

وثانيهما - ان يعقد معهم معاهدات لبيع حرير ايران الذى كان يحتكره شخصيا .

ومن البديهي ان الشاه عباس كان يهتما بالهدف الاول وهو استرداد الاقاليم التى فقدتها ايران . اما اقتراح الموضع الثانى فكان فى الحقيقة لاغواء الحكام الاوربيين وجلب موافقتهم على الهدف الاول لان اسعار الحرير الايرانى فى موانئ الخليج كانت ارخص كثيرا

منها فى الموانئ العثمانية على شاطئ البحر المتوسط ، ولما كان
للحرير سوق رائجة فى أوربا فقد كانت الدول الأوروبية ترغب فى أن
تختص هى بتجارته .

كان قيصر روسيا ايفان الرابع (المربع) (٥) ، والملكة اليزابيث
ملكة بريطانيا قد ارسلتا السفير انتونى جينكينسان (٦) لفتح باب
التجارة بين ايران وأوربا عن طريق روسيا فى عصر الشاه الاول
جاء بعض السفراء من روسيا لهذا الغرض ولكن حتى ذلك الوقت لم
يكن هدفهم قد تحقق تحققا كاملا ، وكانت التجارة الإيرانية ترسل
الى أوربا عن طريق الاراضى العثمانية أى من تبريز الى طرابزون
على البحر الاسود أو من بغداد الى حلب ، ومنذ أن استولى البرتغاليون
على جزيرة هرمز افتتح الطريق البحرى عن طريق الخليج ، ولكن
رجال الحكومة البرتغالية كانوا يريدون أن يصبح شراء البضائع
الإيرانية وتجارتها عن طريق الخليج فى ايديهم وحدهم ، ولهذا لم
يسمحوا لاي إيراني قط أن يرسل الحرير أو أية بضائع إيرانية الى
الهند أو أوربا عن طريق الخليج مباشرة وعن غير طريقهم حتى أن شاه
ايران نفسه لم يستطع أن يصدر حرير جيلان الذى كان يحتكره شخصيا
عن طريق الخليج ، ولهذا كان الطريق الوحيد لتصدير التجارة
الإيرانية الى أوربا هو طريق التجارة الزوى أى الاراضى العثمانية،
وكان التجار الإيرانيون يضطرون لدفع مبلغ كبيرة جدا لرجال
الحكومة العثمانية كرسوم جمركية ورسوم مرور .

والى جانب ان هذه الطرق العثمانية كانت اثناء فترات الصداقة
بين الدولتين مملوءة بالاحطار بسبب قطاع الطرق فاذها اثناء الحروب

(٥) ٩٣٦ - ٩٩٢ هـ (١٥٢٩ - ١٥٨٤ م) Ivan IV, le terrible
(٦) Anthony Jenkinsan

كانت تغلق تماما ولا يبقى طريق للتجارة بين ايران واوروبا .

لهذه الاسباب رأى الشاه عباس أن ارسال سفير الى بلاط ملوك اوروبا أمر ضرورى - وكما سبق أن ذكرنا - كلف حسين على بك بيات والسير انتونى شيرلى بهذه السفارة ، ومع أن السير انتونى شيرلى كان فى الظاهر دليلا لحسين على بك الا أنه فى الواقع كان قرينا ومساوينا للسفير القزلباشى ، وقد أعطى الشاه عباس للسير انتونى خطابات اعتماد خاصة تقدمه الى ملوك الفرنج - اى البابا وامبراطور المانيا ومملكة انجلترا وملوك اسكتلندا واسبانيا وفرنسا وبولندا وحكومة جمهورية البندقية - على أنه مبعوثه الخاص ، وفى أحد خطابات الاعتماد هذه كتب :

« ايها الملوك الذين تتبعون دين عيسى ، اعلموا أن سبب الصداقة بينى وبينكم هو هذا الرجل (يقصد سير انتونى شيرلى) ولا شك اننا كنا نريد صداقتكم قبل هذا ولكنه هو الذى ارشدنا الى طريق الصداقة ورفع حواجز الغربة ، وقد جاء هذا الرجل الينا برضاه ، وبناء على ما رآه وارتضاه ارسلنا معه أحد رجال بلاطنا اليكم ونحن نعهده فى ايران مثل أخ عزيز ونأكل معه فى طبق واحد ونشرب من كأس واحدة ، وعلى هذا فعندما يصل اليكم فيجب أن تنظروا اليه على أنه مندوبنا الخاص وتقوموا بما يقول أو يطلب وعندما يعبر البحر (بحر قزوين) ويضع قدمه على أرض الملك الموسكوى (الروسى) العظيم الذى نتحد معه ونعهده كأخ لنا ، فيجب على حكام تلك الدولة جميعا أن يسيروا معه حتى يوصلوه الى موسكو (٦) » .

(٦) كتب شارل شيفر فى مقدمته على كتاب رحلة رفايل دى مانس يقول « أن الملك عباس كان يريد من انتونى شيرلى أن يذهب فقط الى انجلترا ولكن شيرلى رأى أنه من الافيد أن يتحد مع كل الملوك المسيحيين

وعلى هذا يمكن القول أن السفير الحقيقى للشاه عباس كان هو
السفير أنتونى شيرلى كما كان يعتقد هو نفسه .

وكانت جميع رسائل الشاه عباس الى ملوك وحكام أوروبا
تتضمن تقريرا على النقط والشروط والموضوعات التالية :

١ - يفتح شاه ايران باب الصداقة والاتحاد بسبب اهتمامه
بالدول : المسيحية ورعاياها ، وكذلك لمكراهيته للعدو المشترك لهما
وهو الاتراك العثمانيين .

٢ - يرغب فى الاطمئنان على أنه اذا دخل فى حرب مع هذا
العدو المشترك لهما فان عبء الحرب كله لن يترك على عاتقه .

٣ - طلب من امبراطور المانيا وبابا روما وسائر حكام أوروبا
اذا كانوا قد عقدوا أية معاهدات صداقة ومودة مع الاتراك العثمانيين
أن يلغوها واذا لم يستطيعوا مساعدة شاه ايران ضد السلطان
العثمانى بكل قواتهم رعاية لمصالحهم ، فلا أقل من أن يساعدوه فى
الخفاء طالما كان فى حرب السلطان العثمانى ، وعليهم الا يتعاونوا
أو يساعدوا العدو بشكل من الاشكال .

٤ - لمح لحكام أوروبا أنه لما كانت جماعة من التجار الفرنج
(الأوربيين) قد عقدت اتفاقيات خاصة مع الحكومة العثمانية وأنهم
يرسلون لها مختلف المهمات العسكرية من مدافع وبنادق وسفن
وغيرها سواء عن الطريق البرى أو عن الطريق البحرى ، لهذا فان
عليهم أن يلغوا هذه الاتفاقيات بأسرع ما يمكن .

٥ - نصح حكام أوروبا بأن الحرب والعداوة بينهم إن تضرر الا
تقوية الامبراطورية العثمانية ومن الافضل أن يقبلوا نصيحته الاخوية
للخالصة ، وأن يسارعوا لعقد معاهدات صداقة ومودة وأن يتحدوا
حتى لا يفتنوا قواتهم التى يجب أن تستخدم فى هزيمة العدو المشترك
ولا يدمروها بلا سبب .

٦ - يتعهد الشاه عباس بأن يعد فورا ٦٠ ألف مقاتل مجهزين بالبنادق وأى عدد من الفرسان والمشاة التى يراها الحلفاء لازمة للحرب فى حالة ما اذا اتحدت الدول المسيحية معه ضد السلطان العثمانى .

٧ - يعتقد شاه ايران أن الحرب الدفاعية ليس وراءها الا ضياع الوقت والمال وقتل الرجال الابرياء وتعريض الكرامة والحيثية للخطر وأن الدول التى تأخذ بهذا المبدأ تعترف بمعجزها .

٨ - بناء على ما سبق فانهم أن رأوا القضاء على الامبراطورية العثمانية واجبا فعليهم أن يهجموا فورا على ممتلكات تلك الدولة من الشرق والغرب وخاصة من ناحية بلغاريا .

٩ - تعهد شاه ايران فى حالة ما اذا قام امبراطور المانيا وملك اسبانيا وبقية حكام اوربا بمحاربة السلطان العثمانى - بالهجوم على الاراضى العثمانية فورا من ناحية الشرق وفى هذه الحالة فانه يتوقع أن يرسل الامبراطور وبقية حكام اوربا سفراء مفوضين تفويضا تاما الى ايران تتخذ اية اجراءات عسكرية برأيهم ومشورتهم .

١٠ - اقترح الشاه عباس عقد معاهدات بين ايران والدول الاوربية شريطة الا تقدم اية دولة من الحلفاء على اى عمل يكون مخافا للسياسة العامة دون مشورة وموافقة الاخرين .

١١ - يعتقد شاه ايران انه اذا اتحدت ايران مع الحكام المسيحيين لاوريا ضد الدولة العثمانية وهبوا لحربها فانه لا يحق لاية دولة من الحلفاء أن تنسحب من الحرب أو تدخل فى صلح مع العدو دون استشارة وموافقة بقية حلفائها .

١٢ - تعهد أن يفتح كل ايران أمام اتباع الدين المسيحى من كل مذهب وفرقة ويسمح لهم بالذهاب حيث يشاءون ويقيموا فى اى مكان ويشيدوا الكنائس والمنازل ويزاولوا طقوسهم الدينية بحرية تامة ودون اية موانع اذا اتحدت معه اوربا ضد العثمانيين .

١٣ - وفى النهاية طلب شاه ايران من كل ملوك الفرنجة (أوروبا) أن يرسلوا الى ايران سفراء يحملون الشروط والخطط المقترحة التى يزونها كما فعل هو (٧) .

وقد ترك حسين على بك بيات وانتونى شيرلى اصفهان متوجهين الى أوروبا يوم الخميس ١٥ ذى الحجة عام ١٠٠٧ هـ (٩ يونيو ١٥٩٩ م) مع مرافقيهما . وكان المرافقون لهما فى السفر هم أربعة من حرس الفرسان الايرانيين (٨) و ١٤ مرافقا ايرانيا ورجل دين وخمسة من المترجمين وكان المرافقون لسير انتونى شيرلى ١٥ شخصا من الانجليز وخلفهم قافلة من ٣٢ جملا تحمل الهدايا التى كان الشاه قد اختارها للملك الفرنج ، ورافق الشاه عباس هذه البعثة حتى ضاحية من ضواحي اصفهان وهناك أعطى ختمه الذهبى الى السير انتونى وقال له « يا أخى ، اننى اقبل أى شئ توقعه بهذا الختم حتى ولو كان يساوى سلطنتى كلها » ثم قبل وجهه وأخذ يد أخيه روبرت شيرلى ووعده بأن يعامله كاخ له أثناء غيابه « انتونى » .

بعد شهر وصل السير انتونى شيرلى وحسين على بك ومرافقوهم الى ساحل بحر مازندران « قزوين » عن طريق كاشان وقم وساوه وقزوين وجيلان ومن هناك ركبوا سفينة متوجهين الى روسيا

استغرق عبور بحر الخزر « قزوين » شهرين لان السفينة واجهت عواصف شديدة ، وبعد تحمل الكثير من المشاق والمخاطر وصلوا الى ميناء هشتار خان ، وكان الشاه عباس قد أرسل شخصا الى هذا

(٧) تاريخ القسوس الكرمليين فى ايران طبع لندن ج ١
(٨) كان من بين هؤلاء الحرس على قلى بك ابن أخى حسين بك بيات سفير الشاه والثانى أروج بك الذى كان السكرتير الاول للبعثة .

الميناء قبل وصولهم بشهر لكى يخطر حكام روسيا بوصول هذا الوفد .
وينعد بما يلزم لمراحتهم ، وقد وصل هذا الشخص الى هشتير خان
أقبل . وصول أنتونى شيرلى ومرافقيه بيوم واحد فقط .

نزلت هذه البعثة الايرانية فى ضيافته بوريس جودونوف . (١)
قيصر روسيا منذ وصولها هشتير خان حتى بلغت موسكو بعد شهرين
ونصف ، ولم تطب الاقامة لسير أنتونى فى موسكو لان قيصر روسيا
عد حسين على بك وحده سفيراً للشاه عباس بل انه قدم المبعوث
الاخر الذى ارسل قبل هذه الجماعة الى هشتيرخان ورافقهم الى موسكو
على السير أنتونى شيرلى ، كما أن القيصر لم يسمح لشيرلى ورفاقه
الانجليز برؤية التجار الانجليز الذين كانوا فى موسكو آنذاك أو
الحديث معهم ، كما أن شيرلى تضايق من تصرفات القيصر فلم يذهب
مع البعثة الايرانية حين سمح لهم القيصر بلقائه وبهذا ازداد سوء
ظن القيصر تجاهه وأخذ يتريص للإيقاع به ، كما أمر أن تؤخذ جميع
الرسائل التى كان الشاه عباس قد كتبها للملك أوربا وأعطائها لشيرلى
وقراؤها ، كما أطلقوا سراح القسيس الدومينيكانى نيكولاو دى
ميلو والذى كان شيرلى قد ألقى القبض عليه أثناء الرحلة وسجنه
بتهمة خيانة شاه ايران ونصروه على شيرلى .

وقد ذكر بارى أحد سكرتيرى شيرلى الانجليزى سبب هذا الخلاف
فقال :

« حدث نزاع بين القسيسين البرتغاليين اللذان كانا يسافران
برفقتنا فأخبر أحدهما وهو الفونسو كورديرو الذى كان من جماعة
الفرنسيين كان السير أنتونى أن القسيس الاخر وهو نيكولاو دى ميلو
الدومينيكانى قضى أغلب وقته فى الهند فى اللهو ووصل به الامر
الى أن ملك اسبانيا علم بسيرته فأمر بإعادته . كذلك فان الهدايا

Boris Goudonoff

(٨)

التي قدمها نيكولا للشاه عباس كان أحد أصدقاء الشاه قد أرسلها مع رسالة ولكن القسيس تعرف على حامل الهدايا وخدعه بمبلغ قليل من المال وأخذ منه الهدايا والرسالة ثم ألقى الرسالة في الطريق وقدم الهدايا للشاه باسمه هو . وقد غضب السير أنتوني لسماع هذه القصة ، وأمر أن يلقى القبض على القسيس ، » .

ثم أضاف « أمر القيصر بإطلاق سراح القسيس من قيد شيرلى وأمر بتشكيل مجلس للتحقيق في سلوك شيرلى مع القس ، وقد أطلق القس لسانه في سب السير أنتوني أثناء المجلس مما أثار غضبه حتى أن شيرلى صفعه صفقة قوية مما أدى إلى اضطراب المجلس ، وبعد هذه الحادثة زاد رجال القصر من احترامهم للسير أنتوني شيرلى » .

بعد إقامة ستة أشهر في موسكو تحرك الوفد وكان ذلك يوم عيد الفصح عام ١٦٠٠م (أواخر ١٠٠٨هـ) متوجها إلى ألمانيا ، ولكن لما كانت الأحوال التي يحملونها من الهدايا ثقيلة فقد قيل لهم أن يسافروا عن طريق المحيط المتجمد الشمالي ، ولهذا فأنهم بعد أن تركوا ساحل نهر الفولجا أخذوا طريق الشمال وبعد ستة أسابيع وصلوا إلى ميناء أرخانجلسك أحد موانئ شمال روسيا ، وامتدت إقامة البعثة نحو شهر في هذا الميناء لاعداد المؤونة واحتياجات الرحلة ، ثم أبحروا على ظهر إحدى السفن متوجهين إلى ألمانيا وبعد شهر ونصف واجهوا خلاله عواصف شديدة وصلوا إلى ميناء اشتود (Stode) في مصب نهر الألب عن طريق رأس الشمال وسواحل النرويج ومن ذلك الميناء أرسل السير أنتوني سكرتيه باري إلى إنجلترا مع بعض الرسائل وذهب شيرلى مع السفير الإيراني وبقية البعثة إلى أيمدن .

وقد استقبلهم دوق أولدنبورج (من دوقيات ألمانيا) بحفاوة

وترحاب .

ومن أيمدن توجهت البعثة الى براغ عاصمة دولة بوهيميا مارّة
بمدن كاسل ونيمار وهال ، (٩) وقد وصلت براغ فى خريف سنة
١٠٠٩ هـ (١٦٠٠م) وكان رودلف الثانى امبراطور المانيا فى ذلك الوقت
الوقت فى بوهيميا وحين علم بوصول سفراء شاه ايران أرسل ثلاث
عشرة عربية تجرها الجياد مع جماعة من قواد وعظماء البلاط وخمسة
آلاف جندى لاستقبالها وقد أنزل الامبراطور أعضاء البعثة ضيوفا
عليه منذ وصولهم مع كثير من مظاهر الأجلال والاحترام .

قبل امبراطور المانيا اقتراحات السير انتونى شيرلى بخصوص
الاتحاد مع الشاه عباس ضد الاتراك العثمانيين ببعض التحفظات
وحاول كثيرا منعه من الذهاب الى بقية ملوك أوروبا والاكتفاء بإرسال
رسائل الشاه مع مبعوثين خاصين ولكن شيرلى لم يتقبل هذا الرأى
وإستأذن فى الربيع التالى من امبراطور المانيا وتوجه الى إيطاليا ،
وعند مغادرة البعثة لالمانيا اعطى الامبراطور ٥٠ قطعة من الاوانى
الفضية المختلفة الى انتونى شيرلى ومنحه الفى دوقية (١٠) المانية
لنفقات سفره كما منح كل واحد من مرافقيه كأسا فضية ومائتى
دوقية .

ذهب انتونى شيرلى ومرافقوه من براغ الى نورنبرج إحدى مدن
دوقية بايرن حيث استقبلوا هناك بالحفاوة والتكريم ونزلوا أربعة
أيام ضيوفا على حاكم المدينة ، وعند رحيلهم منح الدوق كأسين من
الذهب واحدة لشيرلى والأخرى لحسين على بك بيات ، ومن هناك
توجهوا الى ميونيخ حيث استقبلهم ويلهيلم الثانى المعروف بالزاهد
دوق بايرن الذى كان قد اعتزل حديثا من منصبه - استقبالا ملكيا .

(٩) Emden, Oldenburg, Prag, Weimar, Halle

(١٠) كان دوقيه كانت تعادل نحو ٢٠ قرشا او اكثر قليلا .

بعد ذلك قصدت المبعثة الى إيطاليا ونزلت فى مدينة مانتوفا احدى مدن الشمال ، وقد سبق أن ذكرنا أن الشاه عباس كتب رسالة الى دوق البندقية (فينيسيا) مما دفع شيرلى وبيات للذهاب الى تلك المدينة لتسليم الرسالة ، وكان شيرلى قبل وصوله الى إيطاليا قد أرسل شخصا اسمه مايكل انج سراى (١١) الى الدوق ليخبره بقدوم سفراء ايران اليه ، كما أرسل رسولا آخر من مدينة مانتوفا للغرض نفسه ، ولكن دوق البندقية (فينيسيا) رد عليه بأن سفيراً للدولة العثمانية وصل الى فينيسيا وأن الدولتين فى سبيلهما للصلح ، ولهذا فهو يعتذر عن مقابلة السفير الايرانى لانه من الممكن أن يؤدى وصول سفير الشاه عباس الى تعزيز صفر العلاقات بين فينيسيا والحكومة العثمانية مرة أخرى .

لهذا اضطر شيرلى ومرافقوه للذهاب الى روما عن طريق فلورنسا وقد استقبلهم الدوق فرديناند دى ميديتشى (١٢) دوق ولاية توسكانا بكثير من الترحاب فى مدينة بيزا وأصطحبهم لمشاهدة ميناء ليفورنو الذى يجرى انشاؤه بناء على أوامره (١٣) .

بعد هذا ذهبوا من بيزا الى سيينا ومن هناك توجهوا الى روما مع كاردينال كان قد جاء من قبل البابا كليمنت الثامن لاستقبالهم . وفى روما حدث خلاف بين شيرلى وحسين على بك ولهذا قابلهما البابا كلا على أفراد وحینما استقبل البابا أنتونى شيرلى شرح له السفير أهداف الشاه عباس من انشاء اتحاد ضد الاتراك العثمانيين ووعده أن يمنح شاه ايران للمبشرين والقسس الكاثوليك حرية كاملة فى

Michel ange Cerray

(١١)

Ferdinand de Medici

(١٢)

(١٣) كتب أروج بك أو دون جوان الايرانى أن خمسة الاف عبد

كانوا يعملون فى انشاء الميناء .

كل أنحاء إيران ، كما طمان البابا على أنه من الممكن للمبشرين الكاثوليك في يوم من الأيام أن يدخلوا كل أهل جورجيا في المذهب الكاثوليكي .

وقد ظل السير أنتوني شيرلي في روما حتى محرم سنة ١٠١٠هـ (١٦٠١ م) حين ذهب من مقر البابا مع اثنين من رجاله الى انكونا ومنها الى فينيسيا . وهناك رايان في سبب سفره السري هذا هما :

١ - كتب البعض أنه لما كان أحد رفاقه الانجليز قد سرق الرسائل التي كان الشاه عباس قد كتبها الى ملوك أوربا وحملها الى استانبول وسلمها للمصدر الاعظم العثماني فان السير أنتوني شيرلي رأى نفسه في خطر وأن عليه أن يلجأ لحكومة فينيسيا .

٢ - اما أروج بك أو دون جوان الايراني فقد ذكر في كتابه أنه حدث خلاف شديد بين سير أنتوني شيرلي وحسين علي بك ييات في مدينة سبينا الايطالية امام الكاردينال الذي جاء لاستقبالهم من قبل البابا لانه حين طلب حسين علي بك الهدايا التي كان الشاه عباس قد أرسلها الى البابا ، اتضح أن سير أنتوني شيرلي باع جزءا منها الى التجار الانجليز في موسكو وادعى أنه أرسلها مباشرة الى ايطاليا في سفينة انجليزية وهذا هو الذي أدى الى هروبه حين انكشف أمره (١٤)

(١٤) كتب أحد الانجليز المرافقين لسير أنتوني شيرلي لم يعرف اسمه في مذكراته عن الرحلة حول الخلاف بين شيرلي وحسين علي بك يقول : تشاجر السفير الايراني وشيرلي في روما حول أهمية مركز كل منهما وأغلظ شيرلي القول للسفير الايراني وطلب منه أن يطيع أوامره فحزن السفير الايراني مما سمعه وانفصل عنه غاضبا وعاد الى إيران وحين وصلها وذهب لمقابلة الشاه عباس وشرح له تفصيلات رحلته في حضور روبرت شيرلي أخو أنتوني شيرلي وأطلق لسانه في سبب سير أنتوني والصق به كثيرا من التهم ولكن روبرت دافع عن أخيه وبرهن على كاذب السفير ولهذا أمر الشاه عباس فقطعوا يدي السفير ولسانه امام روبرت . . .

وقد ظل حسين على بك بيات شهرين فى روما بعد هروب سير
انتونى شيرلى ثم توجه الى اسبانيا وعندما ودعه البابا اهدى له
سلسلة من الذهب والفضة دوقه ، كما منح كل واحد من حرمه سلسلة
ذهبية وبردة عيسوية ، كما امر احد كبار القسس من برشلونة وكان
اسمه فرانتشيسكو جواسك ان يرافق السفير الايرانى الى اسبانيا وان
يوفر له ومرافقيه كل ما يلزمهم .

ذهب حسين على بك ومرافقوه من روما الى ميناء جنوا ومن
هناك ركبوا سفينتين الى ميناء سافونا ووصلوا اسبانيا عن طريق
جنوب فرنسا وجبال البرنيز ، ثم ذهبوا الى برشلونة حيث استقبلهم
فى الميناء دوق فريا نائب الملك فى مقاطعة كاتالونيا ومن هناك ذهبوا
الى بلد الوليد مقر الملك فيليب الثالث ملك اسبانيا .

استقبل ملك اسبانيا حسين على بك استقبالا عظيما واستضافه
فى بلاطه. لمدة شهرين وبعد هذا مهمم سفير ايران على العودة الى
وطنه وارجاع مهمته فى خمس دول اخرى وهى انجلترا واسكتلندا
وفرنسا وبولندا وفينيسيا الى وقت اخر ، ولكى يجنب السفر بالطريق
البرى الطويل فقد اثن ان يعود الى ايران عن طريق البحر حول جنوب
افريقيا ورأس الرجاء الصالح .

وقد ودع ملك اسبانيا حسين على بك يوم سفره بكثير من التكريم
والى جانب الهدايا الكثيرة التى ارسلها معه للشاه عباس فقد منحه
سلسلة من الذهب تقدر قيمتها آنذاك بنحو ٦٥٠ دولارا مع احد عشر
الف دوقة نقدا للنفقات سفره كما كان السفير ومرافقوه ضيوفا
عليه حتى ميناء ليسبونيه حيث كانت هناك سفينة اسبانية مكلفة بتوصيلهم

ولكن هذا القول بعيد عن الحقيقة لانه كما سنذكر فان حسين
على بك بيات ذهب الى اسبانيا بعد هروب شيرلى وادى مهمته فى
تلك الدولة ايضا .

الى الخليج (١٥) *

ذهب السفير الإيراني مع مرافقيه من بلد الوليد الى مدريد ومنها الى توليدو (طليطلة) ثم ليشبونة ، ولكن في مريدا على بعد مرحلتين من ليشبونة حدثت حادثه مؤسفة . فكما ذكرنا من قبل كان يرافق البعثة الإيرانية منذ مغادرتها لاصفهان أحد رجال الدين لكى يشرف على الشئون الدينية للبعثة . ولكن هذا المسكين قتل فى مريدا بطعنة سكين من أحد المتعصبين الاسبان . وقد تضايق حسين على بك من هذه الحادثة وأرسل أروج بك الى بلد الوليد لكى يطالب الحكومة الاسبانية بديته .

وقد وقعت أحداث أخرى مؤسفة بعد هذا زادت من حزن حسين على بك بيات . وأسفه ، ان أنه قيل أن يغادر اسبانيا ترك ثلاثة من أعضاء البعثة الدين الاسلامى ودخلوا فى المذهب الكاثوليكي وكان أحد هؤلاء الثلاثة هو علي قلى بك ابن أخى السفير الذى ضايق عمه جدا وأحزنه بقبوله للدين المسيحى ، وعند تعميده قبل فيليب الثالث ملك اسبانيا أن يكون أباه الروحى وعندما دخل فى المذهب الكاثوليكي لقبه باسمه فأصبح يسمى دون فيليب . أما الثانى فكان سكرتيرا أول فى البعثة وهو أروج بك (١٦) الذى قبلت ملكة اسبانيا

١٥ - حصل حسين على بك ومرافقوه اثناء سفرهم على مبالغ كبيرة بالاضافة الى كنوس من الذهب والفضه والاشياء القيمة الكثيره الاخرى يصل مجموعها الى ٢١٦٠٠ دوقه (أى أكثر من سبعة الاف جنيه استرلينى) ان اعطاء قيصر روسيا ٢٨٠٠ وامبراطور ألمانيا ٤٨٠٠ والبابا ٢٠٠٠ وملك اسبانيا ١١٠٠٠ .

(١٦) بعد أن دخل أروج بك فى الدين المسيحي سمي « دون جوان الايراني » كان قد ولد عام ٩٦٧ هـ وعند سفره لأوربا كان فى حوالى الاربعين من عمره . كان أبوه سلطان على بك من قواد القزلباشية المعروفين من قبيلة بيات الكردية لكنه قتل سنة ٩٩٣ هـ فى الحرب بين العثمانيين والصقويين فى عصر الملك محمد خدا بنده ، وكان هذا القائد رئيسا لكتيبة خاصة وبعد مقتله عين ابنه أروج بك لقيادتها . وقد قتل دون جوان يوم ٤ محرم ١٠١٣ هـ (١٥ مايو ١٦٠٥ م) على

أن تكون أمه المتبناه أثناء تعميده ، وقد عرف بعد ذلك باسم دون جوان الايراني ٠ أما الثالث فاسمه بنياد بك وكان من أعضاء البعثة وقد لقبوه بعد دخوله في المذهب الكاثوليكي باسم دون دييجو ٠

وقد استأجر حسين على بك امرأة عجوزا بريرية كانت قد اعتقت بعد خدمة طويلة على السفن الاسبانية لتقوم بقتل هؤلاء الثلاثة الذين كانوا قد كفروا في رأيه ولولا أن الماركيز دى سانتكروز قائد الاسطول الاسباني لم يهب لحماية اخوته الجدد في الدين لمتعرضوا للمهلك ٠

يد أحد الاسبان في مدينة بلد الوليد ٠ وحتى لا يذاع خبر مقتله فقد وضعوا جسده في قارب ودفعوه في البحر وبعد بضعة ايام ألغته الامواج على الساحل فنهشته الكلاب وقد كتب هذا الرجل كتابا حوالى سنتي ١٠١٢ - ١٠١٣ هـ (١٦٠٤م) عن حلقة قصته الى ثلاثة ابواب : الباب الاول - مختصر عن ولايات واقاليم ايران ونظام الحكومة في العصر الصفوي وعادات الناس والطوائف والقبائل الكبيرة التي تسكن كل ولاية وكذلك ملوك ايران من عصر النمرود حتى عهد الشاه عباس الكبير ٠

الباب الثاني - يشتمل على عصر الملوك الصفويين وحروبهم مع السلاطين العثمانيين وامراء الاوزبك ٠

الباب الثالث - يتضمن تفصيلات وصول السير انتوني شيرلى الى البلاط الايراني وسفر حسين على بك ومرافقيه منذ حركتهم من اصفهان حتى وصولهم الى مدينة لشبونة ٠

وقد كتب أروج بك أصل هذا الكتاب باللغة الفارسية وترجمته الى اللغة الاسبانية وطبعه بمساعدة كاتب اسباني اسمه الفونسو ريمون ٠ وقد أشار الفونسو هذا في المقدمة الى أروج بك على أنه الصديق الحميم وأنه قدم كتابه الى قسيس الملك الخاص وهو دون الفارودي كرافخال ، وهذا القس هو الذي فصل أروج بك عند تعميده في الكنيسة الملحقة بالقصر الملكي ، وأشار أروج بك الى أنه كان يكتب أحداث الكتاب يوما بيوم لكي يقدمها للشاه عباس عند عودته لايران ٠

وقد ترجم هذا الكتاب المستشرق الانجليزى لوسترانج Le Strange وطبعه بالانجليزية عام ١٩٢٦ ٠

وفى منتصف عام ١٠١٠ هـ تحرك السفير الايرانى وكل مرافقيه
على ظهر سفينة من لشبونه صوب ايران وكان من المفروض وصولهم
الى ميناء هرمز فى اواخر نفس العام ولكن لا يعرف تاريخ وصول
حسين على بك ولا نعرف شيئاً عن مصيره أو مصير مرافقيه .



الاستيلاء على البحرين

كما سبق أن أشرنا كانت جزر البحرين تابعة لحكومة هرمز وفي دائرة نفوذ الحكومة البرتغالية منذ منتصف القرن العاشر الهجرى . وفي عام ١٠١٠ هـ عندما توفي فرخ شاه أمير هرمز وتولى ابنه فيروز شاه الامارة كان حاكم البحرين هو ركن الدين مسعود الذي كان اخا للرئيس شرف الدين لطف الله وزير هرمز ، فاعلن الاستقلال وشق عصا الطاعة عن أمير هرمز ، ولكن خوفا من قيام سفن البرتغال بمساعدة فيروز شاه الذي كان تحت حمايتها ومهاجمة البحرين فانه طلب مساعدة أحد كبار رجال فارس واسمه معين الدين فالى وكان على صلة قرابة به ، فقام معين الدين باخطار امام قلى بك بن الله وردى خان (١) أمير أمراء فارس الذى كان يحكم هذا الاقليم بعد أبيه ، وكان امام قلى يطمع منذ مدة فى الاستيلاء على البحرين فانتهاز الفرصة وأرسل معين الدين فالى مع بعض الجند لمساعدة ركن الدين مسعود فى الظاهر ولكن فى الحقيقة للاستيلاء على البحرين .

حينما وصل معين الدين بجيشه الى البحرين وبقي بها بعض الوقت ذهب فجر ليلة من الليالى مع ابن عمه الرئيس منصور الى منزل ركن الدين وقتله فى مخدعه ، وحين علم جند ركن الدين بما حدث هبوا لمحاربة معين الدين انتقاما لاميرهم وتمكنوا من تضيق الخناق على معين الدين ولكن يشاء القدر أن الامير يوسف شاه أحد أمراء اقليم فارس عند عودته من مكة كان قد وقع فى قبضة قراصنة الخليج وفقد جزءا من امواله فكان فى هذا الوقت يتجول فى البحر ومعه قوات من حملة البنادق للبحث عن هؤلاء القراصنة بناء على أوامر من الله وردى خان ووصل فى بحثه الى البحرين فاستطاع معين الدين بمساعدة يوسف شاه أن ينتصر على جيش البحرين .

(١) الله وردى خان تولى حكومة ولاية فارس سنة ١٠٠٤ هـ وظل فى هذا المنصب حتى وفاته عام ١٠٢٣ هـ .

حين ذاع خبر استيلاء الجنود الايرانيين على البحرين أرسل فيروز شاه أمير هرمز والحاكم البرتغالي لها جيشا وبعض السفن الى جزر البحرين فاشتعلت الحرب بين الجنود الايرانيين والجنود البرتغاليين بعض الوقت في البر والبحر ومع أن معين الدين والامير يوسف شاه قتلا في هذه الحرب الا أن النصر كان للايرانيين واضطرت السفن البرتغالية للعودة الى هرمز وخرجت البحرين من سيطرة البرتغاليين وخضعت لحكومة فارس وكان هذا في منتصف رمضان سنة ١٠٦٠ هـ .

أول بعثة لانطونيو دى جوفيا الى ايران

فى الوقت الذى كان فيه حسين على بك ييات متوجها من روما الى اسبانيا (أوائل ١٠١٠ هـ) امر فيليب الثالث ملك اسبانيا نائبه فى الهند دوم ارياس سالدانيا (١) والكسيس دى منزيس (٢) اسقف ميناء جوا لكى يبعثا هيئة دينية للتبشير للمسيحية فى ايران . فسارع نائب الملك والاسقف بارسال ثلاثة من القسس الكاثوليك هم جيرومينو دى كروز وكريستوفولو دى سبريتو سانتو (ذو الروح القدس) وانطونيو دى جوفيا (٣) مع هيئة الى ايران على أن تكون رئاستهم لجوفيا وكان القسس الثلاثة من فرقة القديس اغوسطين .

غادر انطونيو دى جوفيا ومرافقه ميناء جوا على الساحل الغربى للهند فى ٢٢ شعبان سنة ١٠١٠ هـ (١٥ فبراير ١٦٠٢ م) والتقوا بالشاه عباس فى مدينة مشهد فى منتصف ربيع الاول من العام التالى . وكان الشاه عباس قبل وصولهم الى مشهد قد ارسل جماعة من كبار قواده من بينهم روبرت شيرلى الانجليزى لاستقبالهم عند اقترابهم من مشهد .

وقد استقبل القسس الثلاثة بالترحاب البالغ وعرض جيرومينو دى كروز على الشاه عباس رسالة ملك اسبانيا والهدايا التى ارسلها له نائب الملك فى الهند ، كما قدم ايضا نسخة من كتاب « شرح حياة عيسى » مجلدة جلدا فاخرا مع بعض صور للبابا مقدمة من اسقف جوا . وكان لانطونيو دى جوفيا ثلاثة اهداف :

-
- | | |
|--|-----|
| Arias Saldanha | (١) |
| Alexis de Menezes | (٢) |
| Cristofolo de Sprito Santo antonio de Jouvea | (٣) |

أولها أن يقوى هيكل المصالح التجارية البرتغالية الذى كان قد
ضعف نتيجة لاستيلاء ايران على جزر البحرين .
ثانيها أن يمنع الشاه عباس من عقد اتفاقيات تجارية مع
التجار الانجليز والا يسمح لسفنهم بالمجئ الى الخليج .
والثالث أن يحصل من الشاه عباس على اذن بالتبشير للدين
المسيحى فى ايران .

وقد تحدث معه الشاه عباس مبدئياً موافقته ثم اصطحبه ورفاقه
الى كاشان ثم اصفهان حيث وافق على أن يقيموا فيها ديراً وكنيسة
بل انه دفع من خزانته تكاليف تزيينها وما تحتاجه من قيشانى . وقد
وعد سفراء اسبانيا وعوداً طيبة فيما يتعلق بالمسائل الدينية واعطاء
الحرية للمبشرين المسيحيين فى ايران وذلك لكى يثير بابا روما وملك
اسبانيا ضد السلطان العثمانى ويعقد معهم محادثات ضد هذا العدو
ولكنه بذلك أوكل انجاز وعوده الى الوقت الذى يقوم فيه البابا
وملك اسبانيا رسمياً بمحاربة السلطان العثمانى ، وقد كتب انطونيو
دى جوفيا تفصيلات هذه المحادثات فى كتاب رحلته وخلصتها « بعد
بضعة ايام استدعانا الشاه عباس نحن الثلاثة لمقابلته يوم السبت ١١
فبراير ١٦٠٢ م ومعنا الراهب فرانثيسكو دى كوستا الذى كان قد
جاء من عند البابا واخذنا الى قصر الحريم وهناك قال لنا « أريد أن
تدونوا ما أقوله لكم ثم طلب قلماً ومحبرة وأمر أن يكتبوا ما يقول
ثم قال : انا مستعد لاقامة الكنائس فى ايران وأرغب كثيراً فى أن يأتى
كل المسيحيين رجالاً ونساء الى بلدى ولكن رجال الدين عندى لايقبلون
هذا ويمنعوننى وأخشى أن أقدمت على هذا أن يقتلوني فان كنتم تقبلون
ان أقوم بما ترغبون مع وجود هذا الخطر فلا مانع عند ولكننى أرى
من الافضل أن يقوم ملوككم بالدخول فى الحرب مع الاتراك أولاً وبعد
ذلك تقومون ببناء الكنائس وفى هذه الحال تستطيعون اقامة الكنائس
فى جميع مدن ايران الى جانب مدينة اصفهان لانه اذا اراد رجال

الدين الاعتراض ومنع هذا العمل فسوف أقول لهم انه لم يعد لهم حق الاعتراض أبدا لاننى لا أستطيع العمل ضد رغبة وإرادة الاشخاص الذين يساعدوننى ضد اعداء ايران ٠٠٠ سوف أرسل رجالا مخصوصين لكى يقوموا بكل ما تشاءون وعلى نفقتى الخاصة وسوف امر جميع التجار من مسيحيين ويهود ومسلمين وغيرهم بالتجارة مع هرمز ، وأرجو أن تكتبوا الى البابا والى دون فيليب ملككم اننى احبهما كإبى وأخى » . ثم ختم ما كتبوه بالخاتم الخاص الذى كان يحمله فى اصبعه .

بعد هذا بفترة وجيزة وحينما طمأنه « انطونيو دى جوفيا » أن نائب الملك فى الهند لن يهاجم سواحل ايران الجنوبية ، خرج الشاه عباس فجأة مع جيش منتخب مختار من مدينة اصفهان فى السابع من ربيع الثانى سنة ١٠١٢ هـ وهجم على انزيبجان ودخل فى حرب مع السلطان العثمانى محمد خان الثالث ، وفى نفس الوقت أرسل أحد كبار قواده وهو الله وردى بك التركمانى مع رسالة وهدايا بصحبة انطونيو دى جوفيا الى اسبانيا حتى يعقد اتفاقية مع فيليب الثالث ملك اسبانيا ضد الاتراك العثمانيين .

وقد عبر الشاه عباس فى رسالته عن سروره من ارسال السفراء والرسائل الى بلاط ايران مما أدى الى تقوية علاقات الصداقة والمودة بين الدولتين ثم أشاد بالقسس الثلاثة من جماعة سان أغسطين الذين كانوا قد جاءوا كسفراء الى ايران وقال انه تلقاهم بكثير من الترحاب وسمح لهم باقامة شعائرهم الدينية بحرية تامة فى ايران ثم أشار الى حسن معاملته لكل المسيحيين خاصة الاسبان الذين يأتون الى ايران من المستعمرات البرتغالية لاسبانيا فى الهند ، وقد شهد سفراؤه علم هذا .

ثم ذكر انه يرسل الله وردى بك التركمانى أحد كبار قواد ايران الذين يطمأن اليهم ويعتمد عليهم مع انطونيو دى جوفيا كسفير اليه

عن طريق الهند وأنه استبقى القسس الآخرين في إيران وهو يتوقع أن يعيد الملك سفيره الله وردى بك إلى إيران في أقرب وقت ، ثم أشار إلى العلاقات الإيرانية الانجليزية وقال أنه سيعمل طبقا لما يريده ملك أسبانيا حفاظا على الصداقة الأسبانية الإيرانية .

وبعد مدة قصيرة وبينما كان الشاه عباس يهاجم أذربيجان وأرمينيا وكان مشغولا بالقتال مع الجيش العثماني على مقربة من قلعة قارص وصل مبعوث جديد من قبل ملك أسبانيا اسمه لويس برييرا دي لازردا (٤) على رأس بعثة من نحو ٥٠ شخصا ولما كان الشاه بعيدا عن العاصمة فقد ذهب السفير إلى أرمينيا وقابل الشاه في المعسكر الملكي في جمادى الأولى سنة ١٠١٣ هـ بناء على أوامر الشاه عباس .

ولم نقف على الهدف من بعثة لويس برييرا أو مضمون الرسائل التي أحضرها للشاه عباس ولكن كل ما نعرفه هو أن شاه إيران أرسل معه إلى أسبانيا أحد كبار قواده وهو امام قلى بك باكيژه التركمانى وهو الذى كان قد ذهب قبل هذا في سفاره إلى بلاط قيصر موسكو كما سبق أن ذكرنا .

أول سفارة لروبرت شيرلى الى أوربا

كان المشاء عباس ينتظر الفرصة دائما لكى يستعيد جزيرة هرمز ومراكز التجارة الاسبانية والبرتغالية على السواحل الايرانية للخليج من السيطرة الاسبانية ولكن تحقيق هذا الهدف كان يبدو مستحيلا باستخدام القوات البرية وحدها ، ولما كان شاه ايران لا يمتلك سفنا حربية فقد أراد أن يتحد مع احدى الدول الاوربية المنافسة لاسبانيا والتي لها قوات بحرية مثل انجلترا أو هولندا ويحقق هدفه بمساعدة سفن تلك الدولة . ومن ناحية أخرى كان المشاء عباس يستطيع أن يحارب اسبانيا بكل ارتياح اذا اطمأن من ناحية الاتراك العثمانيين ولهذا كان يسعى دائما لتشكيل اتحاد مع ملوك أوربا المسيحيين ضد الدولة العثمانية لكى يهزم عدوه الغربى القوي ولما ظل حتى عام ١٠١٦هـ دون أن يحصل على نتيجة من قدوم السفراء من أوربا وذهابهم اليها والعكس فقد سارع بارسال روبرت شيرلى الذى سبق أن أشرنا اليه من قبل - مثل أخيه - مع رسائل وهدايا كثيرة وبصحبته جماعة من الايرانيين الى بلاط كبار ملوك أوربا وكان هذا الرجل الانجليزى خلال اقامته فى ايران قد أدى خدمات جليلة للمشاء عباس - كما سنبين ذلك بالتفصيل فيما بعد - وخاصة البطولات التى كان قد ابدائها فى الحروب الايرانية العثمانية .

تحرك روبرت شيرلى ومرافقوه فى ٢٤ شوال سنة ١٠١٦ هـ (١٢ فبراير ١٦٠٨ م) من اصفهان وتوجهوا الى أوربا عن طريق مازندران وبحر قزوين وكان من بين مرافقيه الكابتن توماس باول (١) الضابط الانجليزى الذى أدى خدمات كثيرة فى تدريب الجيش الايرانى . وبعد

عبورهم روسيا وصلوا الى مدينة كراكوفيا (٢) التى كانت عاصمة بولندا آنذاك وقد استقبلهم ملكها سيجيسموند (٣) بكثير من الترحاب والاحترام ولا نعرف مدة بقاء روبرت شيرلى فى بلاط ملك بولندا ولكن ما نعلمه أن شيرلى كان فى مدينة براغ فى ربيع الاول سنة ١٠١٨ هـ (يونيو ١٦٠٩) .

وفى مدينة براغ استبقى رودلف الثانى امبراطور المانيا روبرت شيرلى ومرافقيه مدة فى بلاطه ومنحه رتبة فارس كونت دى بلاقين (٤) بسبب الخدمات العظيمة التى اداها للعالم المسيحى عن طريق الحرب التى خاضها ضد الاتراك العثمانيين ، كما اعطاه رسالة الى جيمس الاول ملك انجلترا شرح فيها خدمات روبرت شيرلى للمسيحيين الايرانيين ، وقد اراد روبرت شيرلى أن يذهب مباشرة من براغ الى انجلترا ولكن حينما علم كونت سالزبورى وزير جيمس الاول بهذا ابلغه أن ملك انجلترا يفضل أن يذهب الى انجلترا بعد انتهاء مهمته فى بلاط كل ملوك اوربا .

لهذا السبب توجه روبرت شيرلى الى ايطاليا فوصل مدينة روما يوم الاحد ٢٨ جمادى الثانى سنة ١٠١٨ هـ (سبتمبر ١٦٠٩ م) بكثير من الاحترام والعظمة . وفى اليوم التالى حينما قابل البابا بول الخامس قدم اليه رسالة الشاه عباس وأشار الى رغبة الشاه الايرانى التامة فى الاتحاد مع الملوك المسيحيين ضد السلطان العثمانى ، وقد تحدث اليه البابا بعطف ومحبة . وفى مقابلة أخرى منحه لقب كونت قصر لاتران المقدس (*) .

(٣) Sigismond
Conte de Palatin

(٢) Cracovie
(٤)

(*) قصر لاتران كان قد بناه بلوتيوست لاترانوس أحد معاصرى نيرون امبراطور روما والذي قتلته نيرون لكى يصادر أمواله ، وقد منح قسطنطين الكبير امبراطور روما هذا القصر للبابا ملكيا ، وظل مدة مقرا للبابا ولكنه تحول الى متحف للآثار المسيحية منذ ١٢٥٩ هـ (١٨٤٣) ولازال لليوم تابعا للبابا .

وعند مغادرة روبرت شيرلى لروما أعطاه البابا والكاردينال بورجيزى هدايا كثيرة وتوجه شيرلى من روما الى ميلانو ومن هناك الى ميناء جنوا ثم توجه الى برشلونة عن طريق البحر .

وحينما وصل الى برشلونة طلبوا منه أن يبقى فى تلك المدينة انتظارا لأوامر الملك فقد كان ملك أسبانيا ووزيره دون ليروا ينظران الى بعثة روبرت شيرلى بعين الشك وقال برادو - أحد سكرتيرى ملك أسبانيا لفرانسييس كوتينجتون سفير انجلترا أنه لما كان هناك أشخاص كثيرون يأتون من تلك البلاد البعيدة (ايران) ويدعون أنهم سفراء ، لهذا فان جلالة الملك لن يقابل شيرلى حتى يتأكد من صحة سفارة مثل هؤلاء الأشخاص الى جانب أن هذا الشخص لا يبدو أنه رجل عاقل لانه لو كان عاقلا لما وضع على رأسه عمامة المسلمين بينما هو رجل مسيحي (**). ولهذا السبب اضطر روبرت شيرلى الى السفر على نفقته من برشلونة الى الكالا ومنها الى اراخويز محل اقامة الملك فى الربيع وحينما قابله الملك فى شوال سنة ١٠١٨ هـ (يناير ١٦١٠) قدم اليه رسالتين كانتا معه من الشاه عباس وكذلك رسالة شفوية من فيليب الثالث الذى أراد أن يتحد مع بقية ملوك اوربا ويشن حربا شديدة على السلطان العثمانى ، ولكن الملك رد عليه ردا مختصرا وتحدثت معه الملكة فى الموضوعات العادية وقابلاه ببرود مما أغضب روبرت شيرلى وجعله يشتكى الى وزير الملك .

ذهب روبرت شيرلى من اراخويز الى مدريد وظل هناك شهرين ضيفا على ملك أسبانيا ، وحينما علم أن ملك انجلترا مستعد لمقابلته كسفير أخذ فى السعى للسفر الى انجلترا وذهب لمقابلة فيليب الثالث فى منتصف ذى الحجة سنة ١٠١٨ (مارس ١٦١٠) ليحصل على

(**) كان روبرت شيرلى يرتدى الملابس الايرانية ويضع على رأسه عمامة القزلباشية باذن من الشاه عباس مع وضع صليب صغير عليها .

اذن بالسفر فأعطاه ملك أسبانيا رد خطابات الشاه عباس وأربعة
ألاف دوقه له شخصيا ، ولكن روبرت شيرلى أضطر للبقاء فى أسبانيا
حتى صيف ١٠٢٠ وفى هذه المدة أحضر زوجته (٥) التى كانت قد
بقيت فى بولندا الى مدريد واندك وصل انطونيو دى جوبا ودينجيزبك
روملو الى أسبانيا فى شهر جمادى الاولى ١٠١٩ (١٦١٠ م) وكانا
قد غادرا ايران متجهين الى أسبانيا سنة ١٠١٧ هـ (١٦٠٨ م) كما
سيأتى ذكره فيما بعد وقدمتا هدايا قيمة من الحرير والاقمشة الحريرية
والجواهر الثمينه لفيليب الثالث فوافق الملك الاسبانى الى حد ما على
قبول مقترحات روبرت شيرلى فيما يتعلق بتجارة ايران وأسبانيا وشروط
الشاه عباس لارسال حرير ايران عن طريق هرمز والهند الى أوروبا
وتقرر أن يعود روبرت شيرلى بالسفينة من ميناء ليشبونيه الى ايران .

ولما كان رد الملك المنهائى على مقترحاته قد تأخر فقد صمم
روبرت شيرلى على الذهاب الى انجلترا وعرض مقترحاته التجارية
على جيمس الاول . ويتضح من الرسائل التى كتبها كيتنجين سفير
انجلترا الى لورد سالزبورى وزيد جيمس الاول أن روبرت شيرلى كان
يخشى من معاملة ملك انجلترا له باعتباره أحد الرعايا الانجليز ولا
يستقبله بالتشريفات والتقاليد التى يستقبل بها السفراء الاجانب
ولهذا فسوف يعد مقصرا ومستولا أمام الشاه عباس ، كما كان يعتقد
أن البلاط الاسبانى سوف يعارض سفره الى انجلترا وكان يريد أن
يعرف ماذا سيفعل ملك انجلترا لكى يحصل له على اذن بالخروج من
أسبانيا . كما كان قد أبلغ الوزير بمضمون الموضوعات التى كان
يريد عرضها باسم الشاه عباس على ملك انجلترا . وبناء على مقترحاته
فان الشاه عباس كان يوافق على أن يقيم التجار الانجليز فى مينائين
من موانئ جنوب ايران مراكز تجارية وأن يكون للحكومة الانجليزية

(٥) اسمها تريزيا وكانت بنت أحد كبار الشركس واسمه اسماعيل
خان وقد زوج الشاه عباس هذه الفتاة لروبرت شيرلى سنة ١٠١٦ هـ/
١٦٠٧ م .

ممثلون سياسيون فى المينائين ، وان يكون لموظفى شركة الهند الشرقية الحرية الكاملة فى شئونهم التجارية فى المينائين وكان كوتينجين قد سأل شيرلى عن سبب عدم قبول ملك اسبانيا لمقترحاته . ورد شيرلى قائلا أن ذلك لسببين : أحدهما أن فيليب الثالث لا يرغب فى الدخول فى حرب مع السلطان العثمانى . والثانى أنه لا يريد أن يتنازل عن الرسوم الجمركية الباهظة التى يحصل عليها من المصادرات الاسبانية للدول الشرقية .

وكان الهدف الأصلى من وراء ذهاب شيرلى الى انجلترا هو ان يعقد اتفاقية تجارية مع جيمس الأول بناء على أوامر المشاه عباس ويفتح طريقا جديدة لتصدير الحرير الايرانى وبقيّة البضائع الايرانية الى أوربا حتى لا يضطر التجار الايرانيون الى ارسال تجارتهم الى اوربا عن طريق الأراضى العثمانية ، وبهذا يحرم السلطان العثمانى من الرسوم الجمركية الباهظة التى كان يتقاضاها على مرور البضائع الايرانية .

ولقد ابتلى روبرت شيرلى فى أواخر أيام اقامته فى اسبانيا بعداوة ومخالفة أخيه السير انتونى شيرلى الذى كان قد جاء من ايطاليا الى اسبانيا مسكينا مقلسا ، فقد كان يتهمة بأن الغرض من ذهابه الى انجلترا هو عدائه للحكومة الاسبانية والقيام بالتحريض ضدها . وكان روبرت يخشى أن يفسدوا له السم فى اسبانيا ، وكان يسعى لمغادرة تلك البلاد بأسرع ما يمكن ، واستطاع فى النهاية أن يحقق هدفه ويتمكن مع زوجته تريزيا فى ربيع الاخر سنة ١٠٢٠ هـ (يونيو ١٦١١م) من رؤية بيت ابائه فى انجلترا رغم مؤمرات أخيه، واستقبله جيمس الاول ملك انجلترا فى ٢٢ رجب من نفس العام (أول أكتوبر ١٦١١م) فى قصر همبتون كورت(٦) واطلع على خطابات اعتماده ، وبعد اثنى عشر يوما كلف أريمة من

(٦) قصر همبتون كورت أحد القصور الملكية الانجليزية فى قرية همبتون على مقربة من لندن على شاطئ نهر التيمز وهو من القصور القديمة الجميلة فى انجلترا .

التجار الانجليز الأعضاء في شركة الهند الشرقية يبحث مقترحات شيرلي.
وسوف نتحدث بالتفصيل عن سفارته الى إنجلترا في الفصل الخاص
بعلاقة الشاه عباس مع الحكومة الانجليزية .

بعد أن أقام روبرت شيرلي نحو عام ونصف في إنجلترا صمم
على العودة الى إيران وبناء على أمر جيمس الأول فقد كلفت إحدى
السفن الانجليزية بتوصيله ومرافقيه عن طريق البحر عبر جنوب أفريقيا .
وقد وصل شيرلي وزوجته (٧) ومرافقوه في أواخر سنة ١٠٢٣ هـ الى
ساحل الهند ، وفي جمادى الاولى من العام التالي وصلوا الى اصفهان

(٧) وضعت تريزيا زوجة روبرت شيرلي طفلا في إنجلترا سمياه
هنري ، وقد تركه شيرلي في إنجلترا عند عودته الى إيران .

بقية قصة السير أنتوني شيرلى

بعد أن انفصل السير أنتوني شيرلى فى مدينة روما عن حسين على بك بيات سفير المشاه عباس فى المحرم سنة ١٠١٠ هـ (يوليو ١٦٠١ م) وكما سبق أن ذكرنا ذهب الى ميناء أنكونا ومن هناك توجه الى فينسيا حيث بقى هناك ٢ سنوات ٠ ولما كان اثناء اقامته الاولى فى مدينة براغ (١٠٠٩ هـ / ١٦٠٠ م) قد ترك المذهب الرسمى لانجلترا ودخل فى المذهب الكاثوليكي فقد غضبت عليه اليزابيث ملكة انجلترا وحرمته من حمايتها وحتى من العودة الى انجلترا ولكنه فى سنة ١٦٠٥ م (١٠١٣ - ١٠١٤ هـ) عاد مرة ثانية الى مدينة براغ ، فكلفه رودلف الثانى امبراطور المانيا بسفارة الى مراکش وفى نهاية هذه البعثة سافر الى ليشبونه عاصمة البرتغال ٠ وفى هذا الوقت كان فيليب الثالث ملك اسبانيا يريد ارسال أنطونيو دى جويا القس فى جماعة سان أغسطين كسفير الى المشاه عباس مرة ثانية لكي يشكو من حملة خان فارس على جزر البحرين وممتلكات البرتغال على ساحل الخليج ولكي يزيد من أهمية هذه البعثة ويحملها بخبر تحرك عسكري جديد ضد السلطان العثماني وفى نفس الوقت يرضى المشاه عباس الذى كان دائم الشكوى من تهاون وحياد حلفائه الاوربيين ٠ لهذا فقد عين السير أنتوني شيرلى فى خدمته وكفله بقيادة مجموعة صغيرة من السفن الاسبانية لكي يتجول بها فى البحر المتوسط ويحارب بكل قواته ومشيبته القوات البحرية العثمانية والهولندية سواء فى البحر أو البر ٠

وكان السير أنتوني شيرلى قد قطع أخباره مدة عن البلاط الايراني ولهذا سارع بكتابة رسالة الى المشاه عباس يعلمه بمهمته العظيمة الجديدة ٠ وقد وصلت رسالته فى جمادى الآخرة سنة ١٠١٧ هـ (أغسطس ١٦٠٨) على يد قسيس برتغالى (١) الى أصفهان

(١) ذكر أنطونيو دى جويا اسم هذا القسيس فى رحلته الثانية وهو دومينيكو ستروبين Dominico Stropen

وقدمها انطونيو جويلا الذى كان موجودا انذاك فى المدينة الى الشاه عباس ، ومضمون هذه الرسالة التى ترجعت فى ذلك الوقت الى الفارسية بواسطة أحد القسس الكرمليين المقيمين فى أصفهان هو :

« اعرض على الجناب العالى نائب الامام الموفق المسعيد الاشرف الاقدس الارفع الاعلى خلد الله ملكة أنه منذ حرمت من خدمتكم فاننى لم أتوان دقيقة واحدة عن الخدمات التى كنتم كلفتمونى بها . ولم يحدث أى تقصير منى فى أى أمر ولو أننى تجرعت حنة هذا السفر وقاسيت ألم الغربة ولكننى جعلت ملك الفرنج صديقا صدوقا لكم . وقرر ملك اسبانيا وصمم على أن يحارب الروم (العثمانيين) دائما بشكل لا يقبل المسلم أبدا وعين العبد الحقير (شيرلى) قائدا وأصدر أمرا بأن أفعل ما أشاء فى البر والبحر ولن يعفنى من خدمته وما يحدث بعد هذا سوف أعرضه على جلالة الهمايون وقد ذكر قبل هذا أن ملك المجر تصالح مع سلطان الروم (العثماني) وكان هذا ضدنا ولكن الان ازدادت عدواتهما وقد جمعوا سفنا كثيرة وجيوشا لاتحصى واتفق ملوك الفرنجة واتحدوا على محاربة الاتراك ولما كانت الصداقة الوطنية تربط بين الشاه الاعلى وملك اسبانيا فقد كان من المضرورى أن أذكر بعض الاشياء التالية :

فيما يتعلق بالحرير فلقد تقرر أن تتم تجارته فى هرمز لان الفرنجة يحملون كل عام كثيرا من الذهب وتجارة كثيرة من ادوات الحرب الى سلطان الروم ويتاجرون فيها فاذا توقف تعامل الجانبين ازدادت عدواتهما . وقد أرسل ملك اسبانيا أمرا الى قائد هرمز ألا يتقاضى نفقات أزيد من الواقع من العجم التابعين للشاه والذين يحضرون الحرير الى هرمز وأن يرعاهم ويحترمهم وتقرر أن يتم التعامل على الحرير فى هرمز . ومن المتوقع أنه حين يقرأ الشاه الرسالة أن يرسل ما يراه من هدايا لان ملك اسبانيا أبدى من المحبة أن يقوم ملوك الفرنجة بتقديم أية مطالبات يطالب بها الشاه وسوف أقوم بأى عمل يجب اتخاذه أمره اعلى .

أمر الشاه عباس بأعداد رد على رسالة السير أنتوني شيرلي بعد بضعة أيام من استلامها وقد أرسل الرد مع نفس القسيس الذى أحضر الرسالة ومضمونه :

الأمر الهمايوني أن الأمير العزيز البيك زاده الأكرم الدون انطونيو شيرلى قد حظى بغاية الشفقة الملكية وافتخر بالمراحم الهمايونية الوافرة ولتعلم أن عرضته وكتبته للسريـر (العرش) الأعلى وأرسلته مع رسـولك قد وصل وعرف مضمونه وأنت منذ ذهبت من البلاط الأعلى لم تقتصر في خدمة ولم تنسنا ولم تنصرف عن عداوة أعدائنا وأنت تسعى في زيادة محبة وصداقة ملوك الفرنجة وملك المغرب مع جلالة الهمايون . وقد عرف انحيازك لنا وإخلاصك وأنت لا تقتصر في الخدمة وماذكرته من أنك الآن في خدمة صاحب الجلالة الملك الرفيع العظيم عالى الجاه ملك الفرنجة . ولما كان قد منك قيادة البحر فقد سرنا هذا وأسعدنا وما شرحته عما يمكنه من ضحية لنا فنحن كذلك لدينا عشرة أضعاف هذه المحبة له ونحن نسعد لانقتصاراته وفتوحاته وأن ماقلته من أنه سعى ويسعى حتى لا يحدث صلح يبين ملوك الفرنجة وجماعة الأتراك وأن ماذكر من أن ملك المجر قد تصالح مع الروم وهو خطأ وأنت ذهبت الى هناك وأزلت هذا الصلح ولعلك من الذين يعلمون ما هي الحروب العظيمة التي وقعت بيننا وبين الجيوش الرومية (التركية) وما أخذناه منهم من قلاع حصينة وعلى مدى هذه السنين التي حاربناهم فيها لم يحدث من سلاطين الفرنجة أية حركة ولم نسمع أنهم قد تحركوا من الناحية الأخرى . وعلى أية حال فنحن معهم في حروب ومناوشات على هذا النهج. ولن نكف عن حربهم ويجب عليك أن تسعى بشكل ما حتى يتحرك الفرنجة لمحاربة الأتراك ولا يقصروا في هذا السبيل .

أما ماكتبته عن موضوع الحرير وحتى لا يحمل الحرير بعد هذا من بلاد العجم الى حلب ويأخذوه الى هرمز ويبيعونه هناك ، ومما يبديه الفرنج للروم (الأتراك) من صداقة بسبب الذهب والمجىء الى حلب وأخذ الحرير وأن هذا سوف يقضى عليه فهذا أمر جيد فما أفضل أن يحمل الحرير الى هرمز ويحضر تجار الفرنجة تجارتهم ومتاعهم الى هناك ويحملون الحرير بدلها ، وسوف نامر - أن شاء الله تعالى منذ الآن أن يحمل تجار العجم الحرير الى هرمز ويبيعونه هناك وعليهم أن يأمرؤا بحسن معاملة التجار

في هرمز والا يأخذوا منهم رسوما زائدة حتى يبعث هذا على اقبال التجار فانه حينما يسمع التاجر أن الرسوم أقل ، وأكثر اقتصادا في الذهاب الى هرمز فانه سوف يحمل الحرير الى هرمز لفائدته وعليك أن تبدى ولاءك في كل شيء ، وأن تعرض علينا كل الحقائق والاحوال والاخبار هناك وأن تقدم أية مطالب قد تكون لك لأنها سوف تقترن بالانجاز والسرعة . تحريرا في جمادى الثاني سنة ١٠١٧ هـ .

بعد أن أرسل السير أنتوني شيرلي خبر توليه قيادة القوات البحرية الاسبانية الى الشاه عباس سافر الى ميناء نابولي سنة ١٠١٦ هـ وأصبح عضوا بالمجلس الاستشاري للحكومة هناك (٢) ، ثم عاد في سنة ١٠١٩ هـ (١٦١٠ م) الى مدريد وهناك - كما سبق أن ذكرنا - تقابل مع أخيه روبرت شيرلي الذي كان قد أرسل الى بلاط فيليب الثالث وهناك خلفه وعاداه . وليس لدينا علم تام عما حدث له على مدى خمسة وعشرين سنة وكل مانعلمه أنه كان يتقاضى راتبا من ملك أسبانيا وكان يعيش في فقر وعوز حتى توفي سنة ١٦٣٥ م (١٠٤٤ - ١٠٤٥ هـ) .

(٢) حرض السير أنتوني شيرلي نائب الملك الاسباني في نابولي وهو الكونت دي بنافنت Conte de Benavent على الكتابة للشاه عباس حتى يرسل حرير ايران عن طريق هرمز بدلا من الاراضي العثمانية فكتب الكونت رسالة في هذا الصدد أرسلها مع قسيس الى بلاط ايران وأمر الشاه حاتم بك اعتماد الدولة أن يرد على خطاب نائب الملك بالموافقة على اقتراحه وحتى يبرهن على حسن نيته فانه سيرسل لاوربا مالدیه من حرير في اصفهان مع أنطونيو دي جوفيا وبنكيز بك روملو اللذان سيذهبان في سفارة الى أسبانيا حتى يقع ماقد يكون من أخطار عليه شخصا وبهذا يطمئن التجار الايرافون ويرسلون حريرهم الى أوربا عن طريق هرمز ثم أمر بحمل ما في اصفهان من حرير لكي يرسل مع السفراء (رحلة جوفيا ص ٤٦٧ و ٤٦٨) .

السفارة الثانية لانتونيو دي جوفيا (١)

بعد أن استولى أمير أمراء فارس في سنة ١٠١٠ هـ على جزر البحرين مع بعض القواعد العسكرية والتجارية للبرتغال في الخليج بناء على أوامر الشاه عباس أرسل الحاكم البرتغالي لجزيرة هرمز تقريرا في هذا الصدد الى ملك أسبانيا ، واستكى من السلوك العدائي للشاه عباس وحاكم اقليم فارس . وقد وصل هذا التقرير في نفس الوقت الذي وصل فيه أنطونيو دي جوفيا واليه وردى ببك التركماني مع رسالة وهدايا من الشاه عباس الى البلاط الاسباني . وعندما علم فيليب الثالث بهجوم القوات الايرانية على البحرين أعاد انتونيو دي جوفيا مع الرسالة والهدايا مرة أخرى الى ايران .

وكان ملك أسبانيا قد كتب رسالته في أنه حتى تاريخ كتابة الرسالة (رمضان ١٠١٦ هـ - يونيو ١٦٠٨ م) فان سفيره لويس بريرا دي لازردا (٢) وأمام قلى بك باكيزه التركماني لم يكونا قد وصلا الى أسبانيا بسبب عدم وجود سفن تحملهم من الهند كما أنه لا يعلم شيئا عن أخبار صديقه العزيز الشاهنشاه الصفوي فانه يرسل أنطونيو دي جوفيا كسفير اليه ، كما هنا الشاه عباس على انتصاراته وحروبه مع العثمانيين وذكر أن قواته البحرية في البحر الابيض المتوسط قد ألحقت بالسلطان العثماني خسائر فادحة كما تمنى من الشاه أن يعد الامبراطورية الاسبانية مثل ايران كأنها ملك له وتحدث عن الاستيلاء على البحرين وقال أنه لما كانت الصداقة وطيدة بين ملكي ايران وأسبانيا فانه يجب على رؤسياهما أن تقوم بينهم بأوصار الصداقة والمودة وعاتبه على سلوك أمير أمراء فارس لاستيلائه على البحرين والتطاول على بعض القلاع وموانئ ساحل ايران التي تتعلق بأمير هرمز التابع له . وكتب في نهاية الرسالة أنه يأمل أن يكون الشاه عباس راضيا عن القسس الكاثوليك والمبشرين المقيمين في ايران ويرجو ألا يتوانى شاه ايران عن بذل رعايته وحمايته لرجال الذين المسيحي الذين جاءوا الى ايران .

حينما وصل أنطونيو دي جوفيا من سبانيا الى الهند أرسل دوم الكسيس دي مزييس أسقف ميناء جواقسيسا آخر اسمه غليوم دي جبسوس برفقة

Antonio de jouvea
Luis Perier de Lazerda

(١)

(٢)

أنطونيو دى جوفيا الى ايران بناء على أوامر فيليب الثالث ملك أسبانيا فوصل الاثنان من الهند الى اصفهان فى منتصف ربيع الأول سنة ١٠١٧ هـ (أواخر يونيو ١٦٠٨ م) وبعد ستة أيام من وصولهما ذهب الشاه عباس الى همدان وأمر المضيف السلطانى* بأن يصحب أنطونيو دى جوفيا ومرافقيه أيضا الى همدان .

فى نفس اليوم الذى التقى فيه القس الاسبانى بالشاه وقدم رسالة ملك أسبانيا وهداياه قال له الشاه عباس أن عليه أن يعود مرة أخرى الى روما وأسبانيا ويحرض البابا وملك أسبانيا على حرب الاتراك العثمانيين وكتب أنطونيو دى جوفيا نفسه فى هذا الشأن يقول :

« فى نفس يوم تقديم الهدايا للشاه قال لى أنه يجب على أن أذهب مرة أخرى الى أسبانيا وروما مع السفير الذى يعينه وأن أحرص البابا وملك أسبانيا على حرب الاتراك ، فقلت ان أوامر ملك أسبانيا عكس هذا ، فقد أراد أن أقيم فى بلاط جلالته فقال الملك لا بد أنك تذكر أنه فى رحلتك الأولى حرصت على حرب الاتراك والآن يجب أن تحت ملوك الفرنج على الحرب . فعدت الى خيمتى وحزنت من التفكير فى هذا السفر للطويل وبعد هذا مرضت وطلبت الاذن للعودة الى اصفهان (لان معسكر الشاه كان قرب همدان) ولكن الشاه لم يأذن لى وكلف أطباءه بعلاجى ولكنى ذهبت فى النهاية الى اصفهان وعرضت أمر الشاه على كل القسس الذين كانوا فى تلك المدينة وتقرر أن أقبل هذه السفارة اذا أصر الشاه على طلبه » .

وكان الشاه عباس قبل هذا ببضعة أشهر (فى سنة ١٠١٦ هـ) عندما كان يحاصر قلعة شماخى فى منطقة شرवान علم عن طريق جواسيسه أن رودلف الثانى امبراطور المانيا عقد صلحا مع السلطان أحمد خان العثمانى فتأثر جدا من هذا الخبر وتغير لأن الامبراطور كان قد كتب اليه رسالة وتعهده بالا عقد صلحا ابدا مع السلطان العثمانى ولهذا كان الشاه عباس يحترمه أكثر من كل ملوك الفرنجة ويعزه ويقول أنطونيو دى جوفيا فى هذا الشأن :

* المضيف السلطانى أو الملكى هو المسئول عن استقبال ضيوف الملك وإقامتهم والقيام نحوهم بواجب الضيافة .

« كان امبراطور المانيا خصوصا قد كتب رسالة الى الشاه عباس وعده بالا يعتقد مطلقا مع صلحا السلطان العثماني . وكان الشاه عباس يحتفظ بهذه الرسالة وعرضها على ذات يوم وكان يعتقد أن امبراطور المانيا سوف يبر بوعده ولهذا كان يحترمه جدا حتى أنه وضع صورة له في مدخل حجرته الخاصة وكان يخنى رأسه احتراما له في كل مرة يدخل فيها حجرته (٢) . وقد تعجبت من هذا العمل الذي شهدته بنفسى ذات يوم ولما رأى للشاه تعجبي سألنى هل تعرف هذا الرجل ؟ فقلت لا أعرفه قال هذه صورة امبراطور المانيا والذي يستحق الاحترام لانه يحارب الاتراك » .

وقد غضب للشاه من صلح امبراطور المانيا والسلطان العثماني وتأثر لدرجة أنه قال يوما لانتونيو دى جوفيا ومرافقيه يوبخهم « أن المسيحيين لم يعودا اقوياء كما كانوا في السابق كما أنهم لا يرتبطون بأقوالهم أو قراراتهم » . لقد أخذت بقوة سيفى مائة وخمسا وعشرين قلعة من الاتراك ولكن ملوك الفرنجة بدلا من أن يستغلوا هذه الفرصة المناسبة يتجهون للصلح مع السلطان العثماني . ومع هذا الوضع كيف تتوقعون أن أسمح لكم ببناء كنيسة في بلدى وأشجع الأرمن على طاعة البابا الاعظم وأترككم تدقون الاجراس في البلاد الايرانية اذهبوا واشكروا لاننى لا احطم نواقيسكم ولا اهدم كنائسكم ولا اخرجكم من البلاد . . . » فقال أحد القسس اذا كان ملك المانيا قد تصالح مع الاتراك فما ذنب ملك اسبانيا الذى أرسلنا كسفراء وكذلك البابا الاعظم الذى لم يكن له شأن في أمر الصلح ؟ « فاجاب الشاه لقد ذكرتم مرارا أن ملك اسبانيا تربطه قرابة بملك المانيا وكلاهما يطيع البابا وعلى هذا فمن المؤكد أنهم قد تشاوروا معا في مثل هذا الامر الهام » .

بعد أن عاد أنطونيو دى جوفيا من اصفهان الى المسكر الملكى احضره الشاه عباس على الفور وقال له أشياء من الافضل أن ننقلها عينا من رحلة ذلك القسيس حيث كتب :

(٢) كان الشاه عباس ينحنى احتراما لصورة امبراطور المانيا التى وضعها أعلى مدخل حجرته الخاصة كلما دخل اليها لمجرد أنه أرسل له رسالة يتعهد بالا يعتقد صلحا مع العثمانيين ، لى هذا الحد بلغ احترامه لمن يحارب العثمانيين (المترجم) .

« أبدى الشاه سرورا لعودتي وحينما رأى أن حالتي حسنة قال إذا لم يكن مرضك مصطنعا فهو لم يكن خطرا أيضا فقلت أن المسيحيين قليلا ما يكذبون خصوصا وأن عملنا يستلزم الصدق ولكن العناية الملكية شملتني، فقد شفيت بسرعة فقهه الشاه وقال لقد تصورت أنك مرضت خوفا من العودة الى أسبانيا فأجبت « توجد علل كثيرة يمكن أن تمنعني من العودة الى أسبانيا الاول : أن ملك أسبانيا أمر أن أبقى في إيران • الثاني أن أمام قلبي بك باكيظه الذي أرسلته جلالتك مع لويس برييرا الى أسبانيا لم يعد للان كما أن روبرت شيرلي لم يعد أيضا وأعتقد أن موضوع هذه السفارات جميعا وأحد وأخيرا فان ذهابي لا فائدة منه • فقال الشاه : فيما يتعلق بأمر الملك والذي قال لك ابق في إيران فانني أتحمل مسئوليته وأما عن كثرة عدد السفراء فهذا لا يدعو للعجب لانني أقمت على أمر عظيم وإذا قدر أن أدافع وحدي أمام الاتراك فانني سوف أهزم (٣) ، خاصة وأن التتار (الاوزبك) يهددون من الناحية الاخرى ، وعلى هذا فان ارسال عدة سفراء ليس أمرا غريبا فعلى أن أجبر ملوك أوروبا على الوفاء بتعهداتهم ويجب عليك أن تذهب وتحدث البابا على معاتبة الامبراطور الالماني لتصالحه مع الاتراك العثمانيين ، وتطلب منه أن يدخل في الحرب ضد السلطان العثماني لانه من غير المستحب عند الله أن يضع البابا وبقية حكام الفرنج يداي في هذا الامر الخطير ثم يتصالحون ويتصادقون مع الاتراك وأنت نفسك الذي كنت سبب حربي مع الاتراك فانت أيضا يجب أن تضحي في هذا السبيل ، »

وكانت بضعة قطرات من الدموع قد تساقطت أثناء هذا الحديث من عيني الشاه من الحزن أو من التأثر • فقلت « كنت أرجو أن تكون ارادة كل ملوك أوروبا مرتبطة برغبتى حتى كنت أدفعهم جميعا لحرب السلطان العثماني ولكنني أسف لان الامر غير هذا • وعلى أية حال فحينما يشاء الملك فانني سأكون مستعدا للحركة • فسر الشاه كثيرا ورجوته أن يعد الخطابات الرسمية وأن يسمح لى أن اصطحب معي خليفة الارمن لمقابلة البابا الاعظم • فقال الشاه : تعلم أنني أعطيت الحرية للمسيحيين كافة في إيران ولاأستطيع

(٣) وهذا اعتراف خطير من الشاه عباس أن انتصاراته على العثمانيين كانت بمساعدة الدول المسيحية التي كانت تساعد الشاه عباس كما كانت تهاجمهم العثمانيين من الغرب (المترجم) *

أن أجبر خليفة الارمن على أن يأتي معك • ولكن اذا أرضيته فلا شأن لي
والحقيقة أنني أرغب في أن يرسل حضرة البابا قسما كبيرا الى ايران ليكون
خليفة لكل المسيحيين» (٤) •

بعد هذا استدعى الشاه عباس أحد قواده المشهورين واسمه دنجيز بك
قورجي روملو والذي كان حاكما على مدينة كمره وأمره بالاستعداد للسفر
وأن يذهب الى أسبانيا وإيطاليا بصحبة أنطونيو دي جوفيا • كما كتبوا بناء
على أوامره رسائل الى البابا وملك أسبانيا وقراوها في حضور القس
ودنجيز بك ثم سلمها لدنجيز بك وأذن له والقس في السفر ،
كما أرسل معه أحد كبار التجار الارمن واسمه خواجه صفر مع
خمسین حملا من الحرير لكي يبيعها في أسبانيا ويفتح طريق تجارة الحرير
الايراني الذي كان احتكارا للشاه وحده مع أسبانيا وبقية الدول الاوربية عن
طريق البحر عبر الهند وجنوب أفريقيا •

ويبدو أن الشاه عباس كتب رسالة على حدة مع كلا السفيرين
الى ملك أسبانيا ، فقد جاء في مقدمة الرسالة التي أعطيت لانطونيو
جوفيا :

أنا سالم بحمد الله ودائما في حرب ضد الاتراك العثمانيين
الاعداء المشتركين لبلدنا ، وسوف أحصل على انتصارات جديدة وقد
وصلت الى ما طلبت حتى الان • ثم أبدى شكره على أن أرسل ملك
اسبانيا هذا القس كسفير اليه مرة أخرى ، ثم طلب منه أن يرسل رجلا
لائقا كقنصل في ايران يقيم بها ويقف على شئون المسيحيين ويعمل على
محاكمة ومجازاة المجرمين المسيحيين طبقا لمبادئ وقوانين المسيحية •

ثم كتب بعد ذلك يقول « ان جلالتك أرسلت منذ سبع سنوات
نفس هذا القس انطوان (انطونيو دي جوفيا) كسفير الى لكي يحرضني
على حرب الاتراك العثمانيين ولا شك أنكم علمتم بالحروب التي خضتها

(٤) رحلة أنطونيو دي جوفيا ص ٤٥٢ - ٤٥٥ •

ضد الاتراك بناء على رغبتك وكلام هذا القس وتعلمون أننى استوليت منهم على مدن وقلاع كثيرة . ومن مقتضيات المحبة والصدقة أننى لما كانت قد قمت بواجبى أن تشجع جلالتك حلفاءك وأصدقائك ومرؤوسيك على محاربة السلطان العثمانى . وكما لاحظتم جلالتكم أننى أحب المسيحيين ولهذا فأننى أرغب أن يرسل من عنديكم قس ذو قدر لتكون له الرئاسة على كل المسيحيين فى ممالكهم ويقوم فى أوتش كليسا التى هى مركز كل أرمينيا ومكان مقدس فى كل البلاد التابعة الى ونظرا للمحبة التى أكنها لكم فقد منحت كل القسس والروحانيين المسيحيين المقيمين فى عاصمتى منازل ومساكن لائقة ويستطيعون جميعا إقامة منازل أخرى طبقا لرسومهم ورغبتهم وبهذه الرسالة التى تعبر عن علاقتى بجلالتكم والتى يحملها دنجيز بك أحد كبار رجال بلاطى وجيشى فأننى أتوقع أن تسمحوا له بالعودة بأسرع ما يمكن وسوف يعرض عليكم بعض الموضوعات التى لم تذكر فى هذه الرسالة . وفيما يتعلق بتجارة الحرير فأننى سأحاول أن أخرجها من يد الاتراك العثمانيين وأحولها لرجالكم وأدير تجارته عن طريق هرمز ويكون من الأحسن لو أرسلت أحدا من قبلك الى جزيرة هرمز ليحافظ على مصالح التجار الايرانيين حتى لا يتضرر الاشخاص الذين يحملون الحرير من اصفهان الى هناك ولا تلحقهم خسائر ما (٥) .

وقد كرر الشاه عباس نفس هذه الموضوعات تقريبا فى الرسالة الأخرى التى بعثها مع دنجيز بك روملو الى فيليب الثالث مع قليل من الزيادة أو النقص . ولما كان ملك أسبانيا قد طلب منه أن يكف يد التجار الانجليز عن تجارة الحرير الايرانى والا يسمح لسفن هذه الدولة بالدخول للموانئ الايرانية ، فقد أشار الى هذا فى رسالته فقال :

(٥) ترجمة من رسالة الشاه عباس باللغة الفرنسية فى رحلة انطونيو دى جوفيا .

« أما ما سبق أن ذكرتموه من عدم استقامة جماعة الانجليز والتوصية بالكابتن جرون وجماعته من الفرنج فانه قبل وصول رسالتكم المحترمة كنت قد أمرت الامراء العظام فى ولايتى فارس ولار الامتناع عن حسن معاملة تلك الجماعة وأن يسلكوا معهم سلوكا يرضى عنه اتباعكم ويشكروه ولا يتوانوا عن امدادهم واسعادهم وقد جاء بعض الانجليز الى البلاط العالى وطالبوا كثيرا بالتجارة فى الحرير وان شاء الله تعالى فانه عند بحث هذا الامر سوف يحدث ما يرضى ملازميكم والتابعين لكم ولن يصدر ما يغضب الكابتن المذكور والتابعين لكم » .

وفى نهاية الرسالة أشار الى أنه أرسل بعض الحرير « لفتح الطريق البصرى وطماننة التجار الفرنجة » مع سفيره ولكنه لم يشر فى رسالتيه الى جزر البحرين أو المناطق الساحلية للخليج والتي كان قد استولى عليها من أمير هرمز .

وقبل أن يتحرك أنطونيو دى جوفيا ودنجيليك الى اسبانيا شاع أن الشاه عباس يريد أن يعقد صلحا مع السلطان العثمانى لانه الى جانب الرسائل المتبادلة بين أم السلطان العثمانى وزينب بيجم عمة الشاه عباس فإن رجال الحكومة العثمانية استطاعوا أن يتقربوا للشاه عباس عن طريق حاتم بيك اعتماد الدولة وبعض زعماء الدولة كما أن شريف مكة الذى كان قد ذهب الى استانبول أرسل جن هناك رسائل للشاه عباس يدعوه لترك العدواة التى تضر جميع المسلمين . وقد كتب أنطونيو دى جوفيا فى هذا الشأن يقول :

« يبدو أن الشاه رضى بالصلح ، ومع أن هذه المسائل من الاسرار السياسية فقد سمعت أن الشاه اختار أحد الباشوات الاتراك والذى كان قد وقع أسيرا فى الحرب ليكون سفيراً ويرسله الى استانبول

للاعداد للصليح . ولهذا أفضيت (٦) موضوع سفارتي على الفور لكي
تصل الى مسامع الجواسيس الاتراك الذين من الممكن أن يكونوا في
معسكر المشاه والى الباشا الذي تقرر سفر للوساطة وأشعت أن المشاه
بعثني الى بلاد الفرنج لكي أثير الملوك المسيحيين ضد الاتراك كي
لا يهدأ وحتى يقضوا على السلطان العثماني . كما أن المشاه يريد
أن يجعل تجارة الحرير عن طريق هرمز لكي يحرم الاتراك من أرباحه
وكان هدفي من هذا أن يدرك السلطان العثماني أن المشاه عباس يخدعه
وفي الوقت الذي يتحدث فيه عن الصليح يشجع المسيحيين على قتاله
حتى لا يثق في كلام المشاه ويحتفظ بجيش مستعد للحرب على حدود
ايران . ويحتفظ شاه ايران أيضا بجيش مجهز على الحدود العثمانية
لانه كلما انشغل هذان العدوان بالحرب فان العالم المسيحي يبقى في
سلام وطمانينة .

(٦) تأمر انطونيو دي جوفيا ضد المشاه عباس حتى لا يعقد صلحا
مع الاتراك . ويظل كلامها يحتفظ بجيشه على الحدود فتتوقف فتوحات
العثمانيين في أوربا ويتوقف توجه المشاه عباس لمناطق الخليج
واستعادتها من الاسبان .

السفارة الثالثة لدون أنطونيو دى جوفيا الى ايران

عاد الدون أنطونيو دى جوفيا ودنجز بك روملو من اسبانيا الى ايران فى أواخر سنة ١٠٢١ هـ وهو الى جانب سفارته لفيليب الثالث كان يحمل عنوان مندوب البابا أيضا وعند وصوله الى اصفهان كان الشاه عباس فى مازندران لكنه عاد فى الثلاثين من المحرم من العام التالى الى العاصمة وطلب الدون أنطونيو لمقابلته فى ميدان نقش جهان (*) . ولكنه هذه المرة قابله بمرارة ، وحينما ذهب القس ودنجز بك لمقابلته أمر فى البداية فمثلوا بدنجز أمام عينى الدون أنطونيو ثم شنقوه ، وكان سبب شنقه بعض الاخطاء التى حدثت منه أثناء سفارته أولها أنه فى ميناء جوا المركز التجارى للبرتغاليين فى غرب الهند رفع ختم الرسالة التى كان الشاه قد كتبها لفيليب الثالث بناء على طلب نائب ملك البرتغال وأوقفه على مضمونها ثم أنه خلافا للعرف والتقاليد السياسية لبس الملابس السوداء حدادا على وفاة ملكة اسبانيا فى مدريد بينما لا يجب على السفراء تغيير ملابس بلادهم العادية .

كما أنه قام ببيع الرسالة التى كان يحملها من الشاه عباس الى بابا روما لتاجر كان ذاهبا الى روما ادعى فى بلاط البابا أنه سفير ايران . وقد استفاد من هذا المنصب المزعوم . أما اكبر عيوب دنجز بك فهو اهداؤه خمسين حملا من الحرير الى ملك اسبانيا وكان الشاه عباس قد أرسلها برفقته مع خواجه صفر الارمنى فاحذها منه باغواء أنطونيو دى جوفيا ، كما أنه بسبب سوء سلوكه دفع جماعة من مرافقيه لدخول المسيحية والبقاء فى اسبانيا (١) .

(*) اكبر ميدان فى اصفهان ومن اكبر ميادين العالم
(١) عندما كان الدون أنطونيو دى جوفيا ودنجز بك متوجهين الى اوربا ولكى يقدم القسيس خدمة لسيدته ملك اسبانيا فقد أقنع

وقد كتب اسكندر بك التركمانى فى كتابه « تاريخ عالم اراى عباسى » تفاصيل قتل دنجيز بك فى احداث سنة ١٠٢٢ هـ فقال :

فى هذه السنة جاء الرسل والقسس الفرنج الذين كانوا عبارة عن علماء ورهبان مسيحيين موفدين من قبل ملك اسبانيا اكبر ملوك الفرنج الى بلاط المشاه وتشفروا بمقابلة ملك العالم (عباس) فى ميدان نقش جهان وعرضوا التحف والهدايا وأدوا التحية والرسالة وحظوا بالعناية الملكية ، ولما كان سلاطين المسيحيين وحكام الممالك المسيحية جميعا لهم علاقات طيبة مع المشاه الاعلى وكان طريق التراسل والسفر مفتوحا لهذا كان قد أرسل قبل هذا دنجيز بك روملو الذى كان رجلا طلق اللسان لبقا كسفير الى بلاد الفرنج . وقد بدرت منه هناك بعض الاعمال نتيجة للطمع والبخل لم يرضى عنها المشاه ،

==

دنجيز بك أن بيع الحرير فى اسبانيا بواسطة مندوبى شاه ايران لا يابق بمقامه واقنع دنجيز بك من قبيل الخير والنصح - أن يأخذ الحرير من خواجه صفر ويقدمه كهدية من المشاه عباس الى ملك اسبانيا وقد خدع السفير وأعد الحرير لتقدمة كهدية ولكن خواجه صفر الذى كانت لديه تعليمات أخرى من المشاه عباس عارض هذا ، ولما لم يستطع أن يثبته عن عزمه ترك البعثة احتجاجا على هذا التصرف وعاد الى ايران وأخبر المشاه عباس بما حدث .

يقولون أنه عندما قابل فيليب الثالث دنجيز بك وأنطونيو دى جوفيا وقدموا اليه حرير ملك ايران كهدية له تعجب من هذه الهدية الغريبة وقال بتهكم « يبدو أن ملككم ظن اننى امرأة وأرسل الى كل هذا الحرير الخام لكى أشتغل بنسجه » . ثم قدم احمال الحرير هذه هدية للملكة اسبانيا فى نفس الجلسة فاهدتها بدورها الى أحد الأديرة فى قرية اغوسطين وبهذا وبدلا من أن يباع حرير شاه ايران فى اسبانيا فإنه أنفق فى سبيل الكنيسة والتبشير .

وقد قال القس « أنطونيو دى جوفيا لقب اسقف تقديرا لخدمته هذه . ثم أمر مرة أخرى أن يحمل هدايا ورسائل ملك اسبانيا ويعود مع دنجيز بك الى ايران .

وكانت قد عرضت عليه وفي هذا الوقت الذي عاد فيه مع الرسل المذكورين حل عليه الغضب في الحال • وكلما حاول أن يتحدث للاعتذار عن أخطائه فانه لم يسمح له وقام جنود تعذيب الشاه بالتمثيل به وعلقوه على المشنقة مقلوبا للعبه ثم حكم عليه بالاعدام ونال جزاءه وفضيحته التي لا أراها الله لأحد • وكان من أعماله القبيحة أنه في ناحية جوا وبناء على طلب بوزره حاكمها وقائد موانئ الفرنج فض الختم الشريف عن رسالة الشاه الى ملك اسبانيا وأعلمه بمضمونها • وهذه الخيانة في خدمة السلاطين خطا عظيم • وكما أنه من التقاليد القديمة أن مبعوثي مختلف السلاطين يلبسون ملابس بلادهم التي جرى العرف والعادة عليها في كل بلد يذهبون اليه ويسلكوا سلوكهم العادي في كل الأمور ولم يأمر الملوك في أي عصر أو زمان بتغيير العرف والعادة الجارية • وحينما كان دنجيز بك في عاصمة ملك اسبانيا وتوفيت زوجة الملك ولبس الملك ورجال الجيش الملابس السوداء كالعرف والعادة وكان الواجب لو كلفوه بهذا أن يقول الحمد لله أن ملكي وولي نعمتي سالم ويخير • فلا يلقى بى أن اللبس ملابس للحداد وكان هذا عذرا مقبولا ومستساغا • ثم أن الرسالة التي كتبها جلالة المشاه المعظم الى البابا الذي هو خليفة الامة المسيحية والجالس مكان أصحاب عيسى عليه السلام وأرسلها مع دنجيز بك الذي قام ببيعها لقاء مبلغ من المال الى تاجر على أن يدعي هذا التاجر أنه دنجيز بك ويوصل الرسالة الى دار الخلافة الفرنجية ويستفيد من ورائها • وكان هذا أمرا غير مستحب فقد كان يجب اذا تعذر ذهابه الى تلك الولاية أن يعيد الرسالة ثانية ويذكر الحقيقة ولكنه لم يحترم كتاب اعتماده أو رسالة ولى نعمته • بل انه في الواقع باعها الى تاجر مجهول وتهاون في هذه المهمة • أما أعظم أخطائه والتي استوجبت قتله أنه أساء السلوك مع المرافقين الذين اصطحبهم معه وعمل على ايدائهم حتى أن بعضهم فضل الدخول في المسيحية ليتخلص من ظلمه وبقوا في بلاد الفرنج • وكانت الحماية الاسلامية تستوجب قتله فنال جزاءه •

بعد قتل دنجيز بك أمر الشاه عباس بمصادرة كل أمواله وحتى نسائه وابنائهم ووهبهم الى شخص من فينسيا اسمه مايكل أنجلو كريستيانو البينيرو كان يعيش فى بلاط الشاه . وكان الملك يهتم به ويرعاه وبهذا العمل - فى اعتقاده - عاقب مخطئا وكافا مخلصا ، فمنح نساء رجل مسلم الى رجل مسيحي دليل على غاية الغضب وعدم الرضى عن السفير الخطيء .

بعد هذا سأل الشاه أنطونيو دى جوفيا سفير ملك اسبانيا ان كان قد أحضر ثمن التحرير المشاهانى أم لا ؟ فاجاب القس « ان ملك اسبانيا ليس تاجرا وليس له شأن بالبيع والشراء ولكنه أرسل هدايا الى الشاه فى مقابل التحرير الذى أهده اليه دنجيز بك » فقال الشاه اذا كانت هدايا ملك اسبانيا قد أرسلت فى مقابل هداياه فيجب ان يحسبوا اذا كانت تساويها فى القيمة أم لا . فلما حسبوا قيمتها وجدوا ان هدايا فيليب الثالث لا تساوى أكثر من خمس ثمن هداياه فتظاهر بالغضب وقال معاتبا وشاكيا للقس « لماذا لم يرسل ملك اسبانيا ثمن حريرى ؟ ولكن حزنه وعدم رضاه كان بسبب ان ملك اسبانيا لم يدخل فى حرب ضد السلطان العثمانى بناء على كلامه ووعوده السابقة ، كما أن رجاله البرتغاليين نى جزر هرمز وقشم والبلاد التابعة لهم كانوا يسيئون الى الايرانيين . ولهذا أراد ان يجعل موضوع التحرير ذريعة ووسيلة لاعلان الحرب واخراج البرتغاليين من جزر الخليج .

ولقد هرب أنطونيو دى جوفيا من اصفهان الى جزيرة هرمز خوفا من الشاه عباس ولكن الشاه أرسل الى امام قلى خان أمير امراء فارس أمرا بأن يتحفظ عليه فى مدينة شيراز ويأخذ منه ثمن التحرير الذى أهده دنجيز بك الى ملك اسبانيا بايعاز منه . وقد تحفظ امامقلى خان مدة على القس فى شيراز ولكنه لم يستطع ان يحصل منه على شىء ولهذا طلب من الشاه أوامر جديدة فى هذا الشأن ولما لم يصله

رد صريح فقد سمح للقس بالذهاب الى هرمز . ولما علم الشاه
وكان في مازندران بذهاب القس غضب غضبا شديدا وكتب رسالة
عتاب الى امامقلي خان الذي خاف لدرجة انه استعد للهجوم على
قلعة جمبرون وجزيرة هرمز واخراج البرتغاليين من المياه الايرانية
اذا سمح له الشاه ، ولكن الشاه لم يأذن له لان مثل هذه الحملة
كانت من الممكن أن تتسبب في قطع العلاقات بين ايران واسبانيا ،
كما أن حاكم اصفهان الذي كان قد شجع الشاه على ارسال الحرير
الى اسبانيا أخذ يعد لجمع قيمته بأية طريقة خوفا من غضب الشاه
كما طلب من قسس الكرمليين في اصفهان أن يسلموه كنيسة الاغسطيين
التي ينتمي اليها انطونيو دي جوفيا حتى يستولى على ما بها من أموال
في مقابل ثمن حرير الشاه .

السفارة الثانية لروبرت شيرلى الى أوربا

سبق أن ذكرنا أن روبرت شيرلى غادر إنجلترا سنة ١٠٢١ هـ وذهب الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح ، ولما كان مكلفا من المشاه عباس بالذهاب الى ملكها جهانجيز الجوركاني ، فقد توجه من جوا الى أجره عاصمة ملوك الهند • ويعد انتهاء مأموريته عاد الى إيران حاملة رسالة جهانجير وهداياه ، وكان من بينها فيلان فوصل اصفهان سنة ١٠٢٤ هـ •

وكان فيليب الثالث قد وعد المشاه عباس في الرسالة التي أرسلها مع شيرلى أنه سيدخل قريبا في الحرب ضد السلطان العثماني بمساعدة بابا روما وبقية حكام أوربا • وأنهم سوف يرسلون سفنا للبحر الاحمر ليمنعوا وصول البضائع الهندية التي كانت ترسل عن هذا الطريق الى الامبراطورية العثمانية •

ولم تسفر رحلة روبرت شيرلى الى أوربا عن نتائج ذات قيمة ، ولكن الاستقبالات الحارة التي استقبله بها امبراطور المانيا وبابا روما وملك أسبانيا دفعت المشاه عباس الى إعادة إرساله مرة أخرى الى أوربا املا الحصول على نتيجة من خطواته السياسية والتجارية التي استمرت بضع سنين ، ولهذا أمر روبرت شيرلى بعد أربعة أشهر من وصوله أي في رمضان سنة ١٠٢٤ هـ بالذهاب الى أسبانيا عن طريق جزيرة هرمز والهند وجنوب إفريقيا وأرسل معه أحد القسس الكرمليين المقيمين في أصفهان وكان اسمه القس ريدمتودي لاکروز (*) وكتب المشاه عباس في الرسالة التي بعثها معه الى فيليب الثالث ملك أسبانيا :

« بعد اللقائ والمجاملات — لما كانت سبل المحبة والصداقة

لحضررات السلاطين المسيحيين قوية معه ومستحكمة وخاصة مع جلالته
وكان الرسل الحكماء وخاصة من القسس العظام يترددون فيما
بيننا وفتحت أبواب المراسلات والكتب ولهذا أرسلنا اليك المعظم
المكرم الدون البرت شيرلى الذى كان فى خدمتنا الشريفة كسفير
اليكم ليحدد أسس الصداقة . كما أرسلنا معه أحد القسس العظام
هو القس ريمتو وهو من الرجال الحكماء المتزنيين الصادقين للأطمئنان
والاعتماد وقد أرسلنا رسالة شفوية ونتوقع وننتظر أن جلالته الرفيع
المنزلة سيقون باب التراسل والصداقة مفتوحا ويكتب لنا عن أحواله
التي تبعث السرور والفرح عند أحبائه وأصدقائه وأن يذكر أى خدمة
تكون حتى ننجزها ولا نزيد أكثر من هذا (٢) .

وقد توجه شيرلى مع رفاقه فى نفس الشهر (رمضان ١٠٢٤ هـ)
الى أوربا عن طريق هرمز والهند وكان مكلفا من المشاهير عباس بأجراء
مباحثات مع المسؤولين البرتغاليين فى هرمز والهند وب عقد معاهدات
صداقة ، لان الحكومة الاسبانية - كما سنذكر فيما بعد - كانت
قد استردت منهم فى سنة ١٠٢٢ هـ ميناء جمبرون (بندر عباس الحالى
الذى كان من القواعد البحرية البرتغالية القوية على ساحل ايران ،
كما استردت بعض القلاع الاخرى الساحلية ، ولهذا السبب فان
المسؤولين البرتغاليين التابعين للحكومة الاسبانية فى جزيرة هرمز
ومناطق سيطرتهم الاخرى كانوا يسيئون جدا للمراعى والتجار الايرانيين
وقد استطاع روبرت شيرلى ارضاء حاكم قلعة هرمز البرتغالى حتى
يكف يده عن معاداة الحكومة الايرانية الى أن تتضح نتيجة بعثته
ومفاوضاته مع ملك اسبانيا . ولكنه لم يوفق لعقد اتفاقية صداقة
فى مستعمرة جوا الهندية لان البرتغاليين كانوا يريدون أن تعيد الحكومة
الايرانية الى حكومة اسبانيا المستعمرات البرتغالية القديمة فى الخليج
مثل جزر البضرين وميناء جمبرون وبعض الموانى الساحلية الاخرى .

(٢) من مجموعة مراسلات المشاهير عباس المحفوظة فى المكتبة
الوطنية فى مدينة نابولى .

وبعد أن قضى شيرلى عشرة أشهر فى ميناء جوا توجه الى أسبانيا على ظهر احدى السفن الاسبانية ٠ وفى هذا الوقت كانت شركة الهند الشرقية التى أسست سنة ١٠٠٩ هـ (١٦٠٠ م) قد ازدهرت فى الهند واعترضت على سفر روبرت شيرلى الى أسبانيا لان مسئولى هذه الشركة فى الهند - كما سنفصل هذا عند الحديث عن علاقات الشاه عباس مع الانجليز - كانوا قد علموا بأهداف هذه الرحلة والتى منها احتكار تجارة حرير ايران عن طريق أسبانيا بواسطة أعوانهم وجواسيسهم فى اصفهان ، وعدوا هذا ضد مصالحهم التجارية ، ولهذا أصدروا أمرا الى سفنهم بالهجوم على السفن البرتغالية فى ميناء جوا والقاء القبض على روبرت شيرلى ولكن السفينة التى كانت تحمل شيرلى استطاعت الإفلات من أيديهم ووصلت فى سنة ١٠٢٦ هـ (اكتوبر ١٦١٧ م) الى ميناء لشبونه عاصمة البرتغال ٠

بقى شيرلى حتى أواخر سنة ١٠٣١ هـ (١٦٢٢ م) فى أسبانيا وقد حاول أثناء هذه المدة تحريض أسبانيا على الحرب ضد الدولة العثمانية ولكى يصل الى غرضه هذا فقد وعد فيليب الثالث - بناء على تعليمات من الشاه عباس - أن يحصل على موافقة الشاه عباس على إعادة ميناء جمبرون اذا استولت السفن الحربية الاسبانية على مدخل البحر الاحمر وأغلقت طريق التجارة العثمانية مع الهند والحجاز ومصر ، وكان ملك أسبانيا يتوقع إعادة جزر البحرين أيضا فى مقابل هذا الاجراء ٠ ولما كان روبرت شيرلى غير مستعد لاعطاء وعود فى هذا الصدد فان فيليب الثالث رفض قبول مقترحاته ولانه كان يشك أصلا فى سفارة شيرلى فقد بعث برسالة الى دون جارسيا دى سيلفا فيجورا الذى كان سفيراً له فى البلاط الايرانى انذاك وأمره أن يتحدث مع شاه ايران بخصوص مقترحات شيرلى ويخبره انه فى حالة إعادة الحكومة الايرانية لميناء جمبرون والقلاع الساحلية للخليج على الاقل الى الحكومة الاسبانية فان ملك أسبانيا سوف يدخل

فى حرب مع الحكومة العثمانية وسوف يخلق طريق تجارة اسيا والهند
فى وجه الدولة العثمانية عن هذا الطريق ، كما طلب روبرت شيرلى
سفير الشاه عباس . وقد كتب روبرت شيرلى عدة خطابات الى الشاه
عباس عن مفاوضاته مع ملك اسبانيا اثناء اقامته فى تلك البلاد
من بينها رسالة بعثها مع القس ريمتودى لاكروز سوف نتحدث
عن مضمونها فى الصفحات القادمة .

ولما لم يحصل شيرلى على ما كان يتمناه من سفارته فى اسبانيا
فانه سافر من لشبونة الى روما بالسفينة ، وفى سنة ١٠٣٢ هـ توجه
من ايطاليا الى انجلترا وظل هناك ثلاث سنوات لعقد معاهدات سياسية
وتجارية كما سنذكر عند شرح تاريخ العلاقات السياسية بين الشاه
عباس وانجلترا ، وفى النهاية عاد الى ايران سنة ١٠٣٦ هـ (١٦٢٧م) .

سفارة دون جارسيدى سيلفا فيجورا لايران

بعد أن وعد روبرت شيرلى فى سفارته الاولى فيليب الثالث أن المشاء عباس مستعد لاعطاء احتكار تجارة الحرير الايرانى الى التجار البرتغاليين مع بعض الشروط رأى ملك اسبانيا ارسال سفير الى بلاط المشاء عباس للوقوف على حقيقة الامر ومعرفة الاوضاع التجارية الايرانية . لهذا ارسل أحد رجال اسبانيا المعروفين اسمه دون جارسيا دى سيلفا فيجورا وهو من عائلة فريا الكبيرة المعروفة على رأس بعثة كبيرة مع رسالة ودية وهدايا قيمة الى ايران .

غادر هذا السفير اسبانيا فى بداية عام ١٠٢٣ هـ (١٦١٤م) ووصل الى جوا مركز التجارة البرتغالية فى الهند فى رمضان من نفس العام وهناك علم أن المشاء عباس استولى أيضا على جزيرة كيش (قيس) وقلعة جمبيرون .

قام المسئولون البرتغاليون التابعين لاسبانيا فى ميناء جوا والذين كانوا فى الباطن غير راضين عن الحكومة الاسبانية والذين لم يستطيعوا رؤية اسبانى مرسل فى مهمة خطيرة بابقاء السفير الاسبانى مدة ثلاث سنوات فى الهند واختلقوا الموانع المختلفة للحيلولة دون سفره الى ايران وفى النهاية سافر دون جارسيا بسفينة صغيرة من ميناء جوا فى ٨ ربيع الاول سنة ١٠٢٦ هـ ووصل بعد خمسة اسابيع الى جزيرة هرمز وفى الجزيرة خالفه المسئولون البرتغاليون أيضا ولكنه استطاع أن يصل الى شيراز عن طريق لار وظل فى هذه المدينة فى انتظار أوامر المشاء عباس ، وبعد أربعة اشهر وصلت الامر من المشاء عباس الذى كان آنذاك فى فرح اباد فى مازندران لكى يذهب الى اصفهان فتوجه من شيراز الى العاصمة اصفهان وبقي حتى ٢٣ جمادى الاولى ١٠٢٧ هـ حين توجه الى قزوین بناء على أمر المشاء الذى كان قد ذهب الى هناك .

وقد كتب بيترو دلا فاله الرحالة الايطالى - الذى كان فى ايران فى ذلك الوقت وكان يرافق الشاه عباس فى تنقلاته - فى كتاب رحلته تفصيلات عن وصول دون جارسيا الى قزوین ومراسم استقبال البلاط الايرانى له ومحادثاته مع الشاه عباس وكل جزئيات سفره ورحلته ، ولما كان هذا يعد من اصدق ما يعكس الاوضاع الاجتماعية والسياسية والادارية فى ايران اثناء حكم اعظم الملوك الصفويين كم يعد من اوثق المصادر التاريخية عن ذلك العصر ، لهذا فاننا ننقل اهم ما تضمنه فى السطور القليلة التالية :

« امضى الشاه بقية اليوم فى ارسال الاحكام والرسائل المختلفة وسماع موضوعات الخطابات التى وصلت من مختلف اقاليم البلاد ، وكان اغامير (٢) يقرأها له بصوت مرتفع وكان من بينها عريضة حاكم اصفهان الذى يخبره بوصول السفير الاسباني ، وكان هذا السفير قد

(١) ولد بيترو دلا فاله Pietro della Valle فى روما سنة ٩٩٤ هـ (١٥٨٦ م) بدرس الادب ثم اشترك فى جيش البابا بول الخامس فى جريه ضد فينيسيا وبعد الصلح التحق بسفينة متجهه لافريقيا للقضاء على القراصنة . ثم ذهب الى استانبول متوجها للقدس ثم ذهب للقاهرة ودمشق وحلب وبغداد . وهناك تزوج فتاه مسيحية اسمها ستنى معانى اصلها من ماردين (تركيا) ثم ذهب لايران على امل ان يشترك مع الجيش الايرانى فى حروبه ضد العثمانيين ثم ذهب الى سواحل بحر قزوین واصفهان وشيراز وساحل الخليج حيث توفيت زوجته ستنى معانى فى مدينة ميناب ولهذا ذهب الى الهند فى سفينة انجليزية وبعد عام عاد الى البصرة ومنها الى حلب واوروبا فوصل روما سنة ١٦٣٦ فعينه النابا ادربان الثامن مافقا له وكتب مشاهداته عن رحلاته فى رسائل كان يبعثها لصديق له اسمه ماريو سكاينو فى نابولى وقد جمعت ونشرت كوصف للدول التى زارها من مختلف النواحي السياسية والاجتماعية والعادات وغيرها .

(٢) اغامير هو مبرزاً طاهر نطنزى المشهور بالامير « ابو المعالى » او اغامير كاتب الوقائع والكاتب ووزير غلمان وبغادقة الشاه عباس .

غادر أسبانيا قبل ذلك ببعض السنوات ولهذا كان البلاط الايرانى ينتظر وصوله ولكن طال بقاءه فى الهند وهرمز كثيرا .

وكما هى عادة الشاه فقد طلب حضور رئيس بريد اصفهان وسأله شخصا : أين أنزلتم السفير الاسبانى ؟ فأجاب أننا نستضيفه فى منزل جلال المنجم ، فقال الشاه اننى اشتريت هذا المنزل خصيصا لاستقبال ضيوفى الاجانب ثم التفت الى رسائلى « هل صحيح أن هذا السفير من رجال أسبانيا العظام كما يقولون ؟

فأجبت اننى لا أعرفه شخصا ، ولكننى أعرف أنه من عائلة مشهورة ومعروفة جدا » فسأل الملك وهل هذه العائلة من رعايا أسبانيا أم من رعايا البرتغال ؟ فقلت : يظهر أن هذه العائلة تنسب للدولتين ولكنها تميل أكثر الى جانب أسبانيا ولافراد هذه العائلة مراتب ومنازل رفيعة فى البلاط الاسبانى .

ويتحدث بيثرو فى الجزء الاخر من الرسالة عن سفر الشاه عباس من مازندران الى قزوین واشتغاله بالصيد فى منطقة جبل فيروز (فيروزكوه) ثم يتابع الحديث عن السفير الاسبانى فيقول :

« حينما اخبرونى أن اغامير قد وصل ونزل بالقرب من خيمتى عزمت على زيارته . فى اقرب فرصة لاسأله عن احوال الشاه . ولهذا ذهبت الى خيمته . فى يوم من ايام اواخر مايو (جمادى الاولى سنة ١٠٢٧ هـ) ووجدته فى خيمته وحيدا تقريبا . لانه كان قد ارسل حريمه وكل حاشيته قبله الى قزوین . وكانت خيمته من الخيام الجديدة التى يطلقون عليها فى ايران اسم « شروانلى » لان هذه الخيام تستعمل فى ولاية شروان الشديدة البرد والكثيرة الامطار نظرا لان الخيام العبادية بقماشها الرقيق لا تقوام البرد القارس فى هذه المناطق ، ولهذا يطنونها من الخارج بلباد سميك ولما كانت هذه الخيام تصبح ثقيلة جدا فهم ينصبونها فوق اقواس من الخشب لتحمل سقفها ، »

كان اغامير يجلس مع شخصين من الايرانيين ولكنهما خرجا بعد قليل من دخولي وبقينا وحدنا وأخذنا نتحدث فى موضوعات مختلفة من بينها أنه قال ان السفير الاسبانى قادم من اصفهان لمقابلة الشاه وقد سمعت أنه غاضب على القسس البرتغاليين فى اصفهان وخاصة القس ملكيورد يزانج (١) مندوب ملك اسبانيا والرئيس الحالى للدير هناك . ووصف اغامير السفير الاسبانى بأنه خفيف العقل وأثنى على القس ملكيور بسبب صداقته التى يظهرها للشاه وقال ان هذا السفير الجديد أرسل مبعوثا الى فرح اباد ويبدو أنه يسىء . الظن بى ان اوصاه ان يسلم رسائله للشاه شخصا ، وقد ظل مبعوثه عدة ايام فى انتظار مقابلة الشاه وفى النهاية لم يستطع رؤيته فأعاد للسفير رسائله ،

بعد هذا كتب بيدرو دلافاله فى رسالته الخامسة فى مايو ١٦١٩ يصف وصول السفير الاسبانى الى قزوين وترتيبات مقابلة الشاه له فقال :

« فى يوم الخميس ١٣ يونيو ١٦١٨ م (١٨ جمادى الثانى ١٠٢٧ هـ) علم ان السفير الاسبانى الذى جاء الى ايران عن طريق الهند وجزيرة هرمز وكانوا ينتظرون وصوله منذ مدة طويلة قد غادر اصفهان واقترب من قزوين وهو ينتظر أمر الشاه لدخول المدينة وكانوا قد اعدوا منزلا للسفير فى قزوين ، فلما علمت بقدمه أرسلت على الفرر مترجمى الى هناك لكى يهنئه بالوصول وليخبره اننى سأذهب لاستقباله بنفسى .

فى اليوم التالى أمر الشاه ان يستقبلوا السفير ويدخلوه المدينة وكنت أول شخص ذهب لاستقباله على بعد ميل من المدينة وأبديت له من الاحترام ما استطعت حتى اننى ترجمت أمامه عن فرسى وهذا ليس

معتادا فى ايران حتى ان الايرانيين لا يترجلون عن خيولهم امام الشاه
ايضا وبعدى بقليل وصل حسين بك كبير الأمناء مع حاكم قزوین وداود
خان شقيق امام قلى خان امير امراء فارس وقد ارتدوا ملابس فضمة
مع هديریات من الأطلس المقصبة وعمامات محلاة بالجواهر والريش
المختلف وسروج خيولهم ولجمها فضية وذهبية وبصحبتهم مئتان من
الفرسان من عظماء المدينة وذلك لاستقبال السفير بناء على امر الشاه .

قال داود خان للسفير نحن جميعا عبيد الشاه وكان يقصد من
هذا ان يظهر عظمة شاه ايران وجلاله . ثم سرنا جميعا فى اثر السفير
اثنين اثنين . وقد سرت أنا وداود خان مع مترجم السفير - الذى كان
يرتدى الملابس الأسبانية وعارى الرأس ويسير بيننا ، وكان كبير الأمناء
والحاكم يسيران على بعد عدة اقدام أمامنا .

كان السفير يتحدث طول الطريق مع داود خان ويبدى نحو أسرته
كثيرا من الاحترام وقد أثنى كثيرا على شجاعة أبيه الله وردى خان
ومهارته وأبدى كثيرا من التأثر على وفاته وأسفه كثيرا على عدم رؤيته
ولكننى كنت أعجب من هذا الكلام لأن الله وردى خان مع كل شجاعته
ومهارته لا يجب ان يكون موضع اعجاب أو ثناء سفير ملك اسبانيا لأنه
كان قد استرد جزيرة البحرين أهم مركز لصيد اللؤلؤ من امير هرمز
وفى الواقع من البرتغاليين كما استعاد ابنه امام قلى خان امير
امراء فارس الحالى قلعة ميناء جمبرون التى كان البرتغاليون
يحتلوها مع مائتى ميل من البحر حولها .

حتى لا اخرج عن الموضوع ، فقد كان السفير الاسباني يدعى
دون جارسيا دى سيلفا فيجورا وكان رجلا مسنا أبيض الشعر
وقد تساقطت أسنانه ، ومع هذا فقد كان يبدو صحيح الجسم قويا
ومع أنه فى العادة يسافر فى محفة (تخت ران) الا أنه دخل قزوین
فى ذلك اليوم ممتطيا حصانا .

كان السفير ومرافقوه يرتدون الملابس الاسبانية التى كانت تتميز بالياقات المنشأة المتعرجة الجميلة ولم يكن عدد مرافقيه يتجاوز العشرين أو الخمسة والعشرين وبعد أن أوصل أعيان ايران السفير الى منزله تركوه - كما هى العادة فى ايران - دون أن يترجلوا من على ظهور خيولهم . فيما عدائى أنا لاننا مواطنان ومعنا كبير الامناء بمقتضى واجبه ، فقد رافقناه الى حجرته . وقد ذكرت للسفير اننى مواطن له تبعا لمفهوم الايرانيين الذين يعدون جميع المسيحيين الاوربيين من اى دولة كانت مواطنين لبعضهم . وقد بقيت لدى السفير أكثر من ساعة وتحدثت معه فى كل أمر خاصة فيما يتعلق بشئون أسبانيا .

وفى يوم الاحد ٢٧ يونيو (٢٢ جمادى الثانى) سمح الشاه للسفير الاسبانى كى يتشرف بمقابلته فى احدى الحدائق الملكية وكانت تسمى حديقة الجنة وليس لها أى طريق سوى شارع واحد يمر بالقرب من القصر الملكى .

كان الشاه قد وجه الدعوة الى شخصيات مختلفة كنت من بينهم وقد حضر هذا الحفل أكثر من مائة شخص من مختلف الدول يتحدثون بلغات مختلفة وكانوا يلبسون ملابسهم الوطنية .

وقد أخبروا السفير منذ الصباح أنه يجب عليه مقابلة الشاه فآخذ فى اعداد نفسه وارتدى ملابس السفراء كما أمر مرافقيه أن يرتدوا الملابس الرسمية الاسبانية ولما كان يريد أن يعرض هدايا ملك أسبانيا على الشاه فى نفس هذا اليوم فقد اختاروا خمسمائة شاب وسيم من أبناء المدينة وأرسلوهم اليه لكى يحمل كل منهم قطعة من الهدايا مهما صغر حجمها وذلك حتى تبدو قيمة الهدايا وكثرتها .

وكانت هدايا السفير التى أحضرها معه الى قزوين كما ذكرنا تساوى نحو مائة ألف اكوى أسباني . بالإضافة الى هذا فقد أحضر ثلثمائة حمل جمل من الفلفل من الهند كهدية تركها لرجال الشاه

فى اصفهان وكانت هداياه تضم بعض الاواني الذهبية والفضية والبللورية
والجواهر والاحجار الكريمة ومن بينها صندوق به ستين سلسلة مختلفة
محللة بالزمرد والماس وأنواع الجواهر الاخرى . وقد حملها ستون
شخصا أى أنه حسب العادة فى ايران حمل كل شخص سلسلة كذلك
كان من بين الهدايا بعض السروج والمجم المحلاة بالذهب والمساهم
والاقواس والبنادق ذات الفتيلة والات الحرب الاخرى المرصعة وكذلك
خنجر وسيف مرصعان بالجواهر الثمينة كان ملك اسبانيا قد تمنطق بهما
فقط فى يوم زفافه وضمت الهدايا بعض المبارد والادوات الاخرى التى
تستعمل فى الحداة والنجارة نظرا لان شاه ايران أثناء فراغه كان
يحب هذه الاعمال اليدوية فأرسل له ملك اسبانيا هذه الادوات لاسعاده
وكان من بين الهدايا أيضا دروع اوربية ورماح هندية وملابس مختلفة
وصور من بينها صورة ان النمساوية ملكة فرنسا الجديدة وصورة
اخرى لبنت ملك اسبانيا الكبيرة التى قدمها السفير كهدية منه للشاه
عباس .

حينما رتب عرض الهدايا حسب رغبة السفير خرج من منزله فى
المساءة الثانية بعد الظهر وتوجه للقصر الملكى وكما كانت العادة فان
حملة الهدايا كانوا يتقدمون السفير واحدا وكان هو يسير فى اثرهم
وعلى هذا النحو مروا من الشرع الرئيسى فى المدينة حتى وصلوا
الى باب قصر الشاه وقد شاهدتهم من فوق سطح منزلى والسبب فى
اننى لم اخرج ولم اذهب للقصر الملكى اننى اعرف أن عرض الهدايا
يستغرق وقتا طويلا والجلوس امام الشاه على المركبتين مدة طويلة
على هذا النحو ليس امرا سهلا .

وعندما وصل السفير الى الباب الكبير للحديقة لم يكن الشاه
قد وصل بعد ولهذا رجوا السفير أن يستريح فى مكان للجلوس مستدير
كانوا قد أعدوه مثل العرش وفرشوه بالسجاد تحت شجرة كبيرة .
ولا شك أن روحه وجسمه كانا فى عذاب . كانت روحه فى عذاب

لاجلاسده مدة طويلة قرب طريق عام وهذا السلوك مع أشخاص فى مقامه ومنزلته غير مقبول على الاطلاق فى أوربا وكان فى عذاب جسمى لجلوس رجل مسن مثله ساعتين اثناء الصيف وفى أشد ساعات النهار حرارة يمثل هذه الملابس الاسبانية المضيقة والياقات المرتفعة المنشأة .

واثناء جلوس هذا العجوز تحت الشجرة فى انتظار أوامر الشاه اكتب لكم بضعة أسطر عن هذه الحديقة : -

يطلق الايرانيون على هذه الحديقة اسم حديقة الجنة وفى رأى أنه من الافضل أن يطلقوا عليها اسم الحديقة البرية أو الغابة الوطنية لانه لا يوجد فى هذه الحديقة سوى أشجار الحور العالية الكثيفة التى تظللها من كل ناحية ، ولا توجد أشجار أخرى غيرها وطرقات هذه الحديقة عريضة جدا وتمتد على مدى البصر وعلى جانبى كل شارع نهيرات تتدفق فيها المياه ٠٠٠ وفى وسط الحديقة أقاموا مبنى صغيرا من عدة غرف وفى مقابل هذا المبنى بركة للمياه مربعة كبيرة وعلى أحد جوانبها المواجهة للمبنى أقاموا سقيفة تدخل فى بركة السباحة كأنها شبه جزيرة تحيط بها المياه من ثلاث جوانب ويحمل السقف أربعة أعمدة فقط بحيث يصبح المكان مفتوحا ولا يحول دون سريان الهواء وتحت السقف مكان غير متسع بحيث لا يجلس الا أشخاص قليلون يستطيعون التمتع بنسيم الحديقة وهوائها العليل .

وكان الشاه يريد أن يستقبل السفير الاسبانى فى هذا المكان الصغير ، ولكن عدد المدعوين كان كبيرا ولهذا امر ففرشوا حول حوض السباحة بالابسطة .

وبعد أن وصل الشاه الى الحديقة وذهب الى شبه الجزيرة تلك ، أدخلوا السفير مع هداياه ومر الأشخاص الذين كانوا يحملون الهدايا بالترتيب من أمام الشاه ثم لفوا من خلف الضيوف حول حوض السباحة وذهبوا للمكان الذى حدد لهم .

ولم أكن فى الحديقة أثناء عرض الهدايا ولكن الذين حضروا قالوا أنه بعد وصول السفير الاسبانى نهض المشاه من مكانه وذهب لاستقباله بكثير من الترحيب والمحبة وعندما رأى السفير المشاه أدى الاحترام الواجب وقبل يده وطرف ثوبة ثم قبل رسالة ملك اسبانيا وأعطاهما للمشاه . بعد هذا أرشد المشاه سفير اسبانيا الى السقيفة التى سبق وصفها فحمله ستة من غلمان المشاه وبعده دخل السفير العثمانى أيضا . وكان هناك حاكم جيلان وأحد كبار رجال كرغستان وبعد دقيقة توجه المشاه الى هناك وكان يحمل فى يده احدى البنادق التى أحضرها السفير الاسبانى كهدية وقد طلب من دون جارسيا بيانات عنها .

غير المشاه والاشخاص الاخرين الذين ذكرتهم كان يقف مترجم السفير الاسبانى بين المشاه والسفير عارى الرأس ويقوم بترجمة كلام الاثنين وكان بقية الحاضرين - كما قلت - يجلسون حول حوض السباحة .

فى الناحية السفلى من حوض السباحة التى يدخل المدعوون من ناحيتها كانت سفرة العشاء معدة على الابسطة وكانت الاوانى الكبيرة الذهبية والفضية المملوءة بالارز تبدو من بعيد كاهرامات مصر . وكان الخدم الخاص للمشاه يقفون بملابسهم المازندرانىة القصيرة استعدادا لتوزيع الطعام على الضيوف . وكان الانجليز اقل الضيوف عددا فى هذه الضيافة ، وقد جعلوهم فى اخر السفرة ولولم يكن مندوب الانجليز المقيم فى ايران اكثر احتراما من مواطينة لما وجد مكانا مناسباً لجلوسه . وكان اتباع السفير الاسبانى سواء المخدمين أو الخدم يجلسون بعد المرعايا الانجليز ، ولم يكن يفصل بينهم الا مجرى الماء الخارج من حوض السباحة . وكان المرافقون للسفير العثمانى يجلسون قبل مرافقى السفير الاسبانى وقبلهم بعض كبار العرب والاكراد الذين جاءوا من أنحاء ايران المختلفة وكانوا ضيوفا على المشاه وقبلهم كان يجلس شقيق أمير مكران الولاية التى على حدود ايران وساحل بحر عمان .

وقد أجلسنى كبير الامناء الذى نظم هذه الضيافة وأشرف على كل شىء فيها قبل شقيق امير مكران لانه اعتقد اننى لما كنت لا أمثل أية دولة ، وجئت الى ايران برغبتي ، فاننى أكثر اعازا واحتراما من كل الاوربيين المدعويين لهذه الضيافة ، ولا يجب ان اجلس معهم فى مكان واحد . ولم يكن يجلس قبلى سوى وزير مازندران وبعض كبار رجال تلك الولاية وذلك لخدماتهم الجليلة للشاه ولتشرفهم بالحصول على خلعتة العادية وهى نصف جبة مقصبة بالذهب .

وأخذ الشاه يتحدث مع سفيرى اسبانيا وتركيا فى موضوعات مختلفة حتى الغروب ولم يتعرضوا للمسائل السياسية . وكانوا اثناء الحديث يتناولون كئوسا من الشراب أو يأكلون بعض الفاكهة . ولم يقدم لنا شىء منها وأخذ كل واحد يتحدث مع من بجانبه . ولما اظلمت الدنيا أحضروا أولا مصابيح شمعية كبيرة وضعوها خلفنا على مسافات معينة ، ثم فرشوا أمامنا مفارش مائدة صوفية ، ثم وضعوا عليها شموعا كبيرة ومصابيح (شمعية) مختلفة . وكان ضوء هذه المصابيح المنعكس على صفحة الحوض يختلط مع ضوء السماء الصافية على مياه الحوض الجميل ، وتلك الاشجار الخضراء الشاهقة مما يعطى صورة جميلة تبعث على البهجة ، لا يمكننى ان أتصور أجمل منها .

بعد أن رتبتم الشموع والمصابيح بشكل معين أحضروا العشاء وكان خدم الشاه يقدمون الشراب لمن يرغب فى أباريق وكئوس من الذهب . ان يقدمون له الماء فى أباريق كبيرة مملوءة بالثلج . وقد تم تناول العشاء بسرعة لان السفير الاسباني لم يستطع الجلوس على الارض بملابسه الضيقة أكثر من هذا مما دعاه الى الاستئذان من الشاه فى الانصراف ، وقال له انه لو بقى أطول من ذلك على هذا الوضع فسيموت . وقد سمح له الشاه بالانصراف ، وبعد ذهابه نهض أيضا

السفير العثماني من باب الادب وبقي الشاه وحده ولم يمض الا القليل حتى طلبنا الاذن أيضا وخرجنا من الحديقة ٠٠٠ ء ٠

نسيت ان اذكر أنه اثناء هذه الضيافة - كما هي العادة - لم ينقطع صوت الموسيقى وغناء المغنين ، ولكن هذا لم يمنع حديث الحاضرين لان العادة في مثل هذه الحفلات أن العزف والغناء يكون هادئا ٠٠٠ ء ٠

وقد قابل السفير الاسباني الشاه عباس مرتين خلال شهر بعد هذا الحفل الرسمي ، وكانت المرة الاولى مصادفة اذ ان السفير كان قد خرج من منزله لزيارة صديق فالتقى بالشاه اثناء الطريق فاصطحبه الشاه معه الى احدى الحدائق الملكية القريبة من الميدان وهناك تناول معه الشراب مدة في حضور جماعة من رجال البلاط ٠ وتحدث معه بحرارة في كثير من المسائل وبعد بضعة أيام عندما اراد الشاه استعراض هدايا حاكم مدينة شماخي ويوسف خان حاكم شروان في ميدان قزوین فقد دعى السفير الاسباني الى الميدان وتناول الحديث كل الموضوعات سوى الموضوعات السياسية ٠

وفي اواخر شهر رجب من نفس السنة علم أن الشاه ينوي الرحيل من قزوین والذهاب الى اذربيجان ، فأراد السفير الاسباني أن يطلب الاذن بمقابلته ويعرض عليه في مجلس خاص سبب مجيئه وسفارته ٠ وقد كتب بيترو دلافاله في هذا الشأن يقول : « حين علم السفير الاسباني بنية الشاه على الرحيل اثار ضجة كى يستقبله الشاه في جلسة خاصة ولكن هذا الامر كان يبدو مستحيلا لان شاه ايران لم يكن يستقبل السفراء الاجانب في قصره ابدا على انفراد اذ أن استقبالهم كان دائما في ضيافة رسمية حتى ولو كان لدى السفراء موضوعات سياسية هامة فلم يكن هناك ما يمنع من عرضها عليه في وجوه الآخرين ٠ ولكن السفير الاسباني لم يتحدث في المسائل السياسية بين الدولتين مع انه قابل الشاه ثلاث مرات ٠

ولقد سعى السفير كثيرا لعله يستطيع أن يتحدث مع الشاه في جلسة خاصة وقد بذل حسين بك كبير الامناء وأغامير وزير الغلمان جهودا كبيرة في هذا الصدد ولكنها لم تكلل بالنجاح وفي النهاية لجأ السفير الأسباني الى المقس جان ثادية (١) رئيس المقسس الكرمليين في اصفهان والذي كان قد جاء لمقابلة الشاه وقد ألح المقس على شاه ايران حتى يقبل طلب السفير الأسباني . وقد استجاب الشاه يوم ١٩ يونيو ١٦١٨ م (٢٥ رجب ١٠٢٧ هـ) لرجائه - كما سنبين فيما يـمـه .

ففي عصر يوم ١٩ يونيو طلب الشاه من السفير الأسباني أن يـمـضـر الى ميدان قزوین ، وحين وصل الشاه توجه مباشرة الى السفير الأسباني ، وبعد أن تحدث بضع دقائق مع الآخرين في وجود السفير أشار اليه كي يسير معه ثم سارا راكبين فرسيهما ودارا عدة دورات في الميدان ، وكان مترجم السفير وهو عاري الرأس يركب فرسه ويسير بينهما ، وكنا لا نسمع ما يدور بين الشاه والسفير ، ولكن ساروتقى وزير مازندران واسفنديار بك وهما من خاصة الشاه وكانا يسيران خلفهما مباشرة قد اطلعا على موضوع المحادثات .

ولقد سمعت فيما بعد نقلا عن السفير أن فيليب الثالث شكى من الاستيلاء على البحرين مركز هيد اللؤلؤ وقلعة جمبرون ومينائها والتي استردها جيش ايران من أيدي البرتغاليين ولكن الشاه دون أن يشير الى موضوع الاستيلاء على الميناء أجاب بقوله أننا أخذنا جزيرة البحرين من أمير هرمز الذي كان منذ القدم تحت حمايتنا ويدفع الخراج لنا ، ولم يكن هذا الأمر يرتبط بالبرتغاليين رعايا ملك أسبانيا ، ولهذا فلا موجب لشكوى ملك أسبانيا أو عتابه ، وعلى عكس ما يتصوره السفير فليس للحكومة الأسبانية أية حقوق على جزيرة البحرين .

بعد هذا ترك الشاه السفير الأسباني وتوجه الى قصره وبقى
السفير وحده فى الميدان ، وقد اصطحبه كبير الأمناء حتى منزله وتفرقنا
نحن أيضا •

كان الشاه عباس حاد الذكاء ماهرا ، فقد كان اثناء احاديثه
السياسية يتكلم بحيث يرضى الجانب الآخر ، ولكنه لا يتعهد له بشيء
يستمتع للحديث ولكنه لا يهتم له وكان لا يعقد اتفاقا ضد مصالحه او
منافعه ولا يمكن استنتاج نواياه مما يتظاهر به •

بعد ذلك حينما رأى السفير الأسباني أن الشاه على وشك الرحيل
طلب مقابلته لمستأذن فى العردة الى وطنه ويتسلم الرد على رسالة
ملك اسبانيا ، ولكن طلبه لم يقبل ، ويعد له الشاه عباس من يقول له
أنه لما كان بعض رفاقه مرضى ، ولما كان السفر بالنسبة له صعبا متعبا
نظرا لكبر سنه ، فمن الأفضل أن يذهب الى اصفهان ويستريح هناك
من عناء السفر ووعده أنه حينما ينتهى من حملته العسكرية ويعود الى
اصفهان فإنه سيهيء له ما يرضيه • وكانت هذه الرسالة من الداء بحيث
لم يجد السفير الأسباني مقرا من قبولها لأن الشاه كان قد طلب من
السفير عدة مرات أن يرافقه الى آذربيجان ولكن السفير تذرع بمرض
مرافقيه وشيخوخته لرفض طلب الشاه •

ومن البديهي أن الشاه لم يسمح للسفير الأسباني بالعودة لأحد
اسباب الثلاثة التالية :

١ - أراد أن يرد على سوء تصرف السفير لرفضه الدعوة لمرافقته له
فى السفر الى آذربيجان •

٢ - أراد كعادته أن يبقى السفير فى ايران بعض الوقت لأنه كثيرا
ما ذكر أن السفراء اذا أنهموا مهامهم بسرعة وعادوا الى بلادهم فيجب أن
يسموا سعاد بريد لا سفراء •

٣ - ربما أراد أن يبقى السفير فى ايران حتى تعرف نتيجة حربه مع

السلطان العثماني كي يتمكن من اتخاذ اجراء بتعلق بتوثيق علاقات
الصداقة مع هلك اسبانيا او قطعها .

دلى أية حال فان الشاه غادر تزوين دون أن يتقابل السفير الذى
اضطر للتوجه الى أصفهان .

الاستيلاء على ميناء جمبرون

قبل أن نستطرد فى الحديث عن سفارة دون جارسيا دى سيلفا ، نتحدث
عن ميناء جمبرون وأحواله السياسية فى ذلك الوقت .

كان ميناء جمبرون عبارة عن قرية صغيرة على ساحل مضيق هرمز
يبعد عن جزيرة هرمز نحو فرسخين ، ولم يتفق الرحالة الاوربيون على صحة
اسم هذا الميناء فمن جمبرون الى كمبرون بضم الجيم والكاف وفتحها الى
كمبرو أو الاكتفاء باطلاق اسم « البندر » عليها أو حتى البندل .

عندما استولى البرتغالون على جزيرة هرمز وجعلوا أمير تلك الجزيرة
تحت حمايتهم ، واستولوا أيضا على ميناء جمبرون الصغير بحجة أنه ضمن
ممتلكات أمير هرمز مع مائتى ميل من المياه المحيطة به ولما كانت سواحل
الجزيرة لا يوجد بها ملجأ مناسب لسفنهم الحربية للصغيرة فقد جعلوا
ميناء جمبرون مرسى لمثل هذه السفن كما بنوا قلعة هناك فى بداية حكم
الشاه عباس لتتولى حراسة سفنهم والمحافظة عليها والتي كان يوجد منها
بصفة مستمرة نحو من ٢٥ الى ٣٠ سفينة مسلحة وكان رجال المراقبة
فى جزيرة هرمز عندما يرون سفينة أجنبية فى البحر يخبرون سفنهم
باطلاق المدافع حتى تخرج هذه السفن من ميناء جمبرون لتحصيل رسوم
العبور فى المضيق والرسوم التجارية الأخرى .

وبعد استيلاء البرتغاليين على البحرين وسوء معاملتهم للتجار
الاييرانيين وأهالى جمبرون وكل الموانئ والجزر المحيطة بهم صمم الشاه
عباس على القضاء على نفوذهم فى سواحل الخليج قدر الامكان . وكلف الله
وردي خان أمير أمراء فارس لتنفيذ هذا الاجراء . وقد أرسل حاكم فارس
بدوره ابنه أمام قلى خان والذى كان حاكما على لار للاستيلاء على ميناء
جمبرون وذلك سنة ١٠٢٢ هـ . ولكنه لم يتمكن من فتح القلعة فى ذلك العام

وفي العام التالي وبعد وفاة أبيه (١٤ ربيع الثاني سنة ١٠٢٢ هـ) وحينما أصبح مكانه أميرا للامراء تمكن من الاستيلاء على قلعة جمبرون وخربها وأنشأ بدلا منها قلعة حصينة على نمط القلاع التي كانت تبني آنذاك في أوربا على مسافة ٣٠٠ قدم من القلعة السابقة بعيدا عن البحر .

منذ ذلك الحين خرج ميناء جمبرون من أيدي البرتغاليين وخضع للسيطرة الإيرانية وفوض أمام تلي خان أحد قواده لحكومة هذا الميناء وإدارته .

وعندما وصل دون جارسيا دي سيلفا فيجورا سفير أسبانيا الى إيران كان حاكم جمبرون اسمه قاسم بك وكان هذا الميناء يتكون من نحو مائتي منزل وقد ارتقى ميناء جمبرون كثيرا بعد أن استولى الشاه عباس على جزيرة هرمز وسمى الميناء منذ ذلك الوقت باسم بندر عباس وأصبح مركز تجارة الانجليز والهولنديين كما سنبين ذلك فيما بعد .

بعد أن توجه الشاه عباس من قزوین الى آذربيجان كما سبق أن ذكرنا اضطر دون جارسيا سفير أسبانيا للذهاب الى اصفهان بناء على أوامره وأقام هناك في انتظار انتهاء الحرب الإيرانية العثمانية وعودة للشاه عباس الى عاصمته اصفهان .

ولكن الشاه عباس بعد أن انتهى من الحرب مع العثمانيين وتصالح معهم عاد الى قزوین ومنها الى فرح آباد في مازندران (٢٨ ذى القعدة ١٠٢٧ هـ) ولم يعد الى عاصمته حتى ألتا من شهر رجب في العام التالي (١٠٢٨ هـ) .

وقد وصلت بعض الرسائل من ملك أسبانيا عن طريق مندوبية في الهند الى دون جارسيا وذلك خلال المدة التي قضها الشاه في فرح آباد (١) مازندران وقد تضمنت هذه الرسائل أن روبرت شيرلي سفير الشاه عباس الى ملك أسبانيا قد اقترح عليه اقتراحا خلاصته أن الحكومة الأسبانية اذا أرسلت بعض السفن الحربية الى مدخل البحر الأحمر وأغلقت طريق التجارة مع الهند في وجه الجزيرة العربية ومصر وبقية الدول التابعة للعثمانيين فإن شيرلي سيطلب من الشاه عباس أن يبذل مساعدات أكثر في المسائل التجارية

(١) فرح آباد كان اسمها طاحونه (المترجم) .

والسياسية للبرتغاليين الاسبان في جزيرة هرمز والهند وربما استرضى الشاه عباس حتى يصرف النظر عن ميناء جمبرون وأيضاً يعيده مرة ثانية للحكومة الاسبانية . ورأى ملك أسبانيا أن يطالب باعادة جزيرة البحرين كشرط لتبول هذا الاقتراح ولكن روبرت شيرلي ذكر أنه لا يمكنه التفاوض في هذا الامر على أية حال فان ملك أسبانيا لا يثق في كلام روبرت شيرلي مع أنه كاثوليكي المذهب ويطلب من القس ملكيور ديزانج المنسوب المقيم لاسبانيا في ايران أن يتفاوض مع الشاه عباس مباشرة بشأن مقترحات سفيره ويبلغ الحكومة الاسبانية عن مدى صحتها حتى يمكن للحكومة الاسبانية أن تعقد اتفاقاً مع روبرت شيرلي بشأن ارسال سفن حربية للبحر الاحمر بشرط أن تعيد الحكومة الايرانية الى أسبانيا ميناء جمبرون على الاقل .

وقد أرسل دون جارسيا هذه الرسائل من اصفهان الى قزوین حيث كان يقيم القس ملكيور آنذاك فحملها القس وتوجه بها الى فرح آباد لمقابلة الشاه ولكن الشاه عباس قال له أنه لا حاجة به الى السفن الحربية الاسبانية نظراً لأنه كان قد تصالح مع الحكومة العثمانية كما أبلغه عن طريق السفير أيضاً أن الاراضی التي استولى عليها أرض ايرانية ولن يعيد شبراً واحداً منها للبرتغاليين .

ويجب أن نذكر هنا أنه قبل أن تصل رسائل ملك أسبانيا الى سفيره دون جارسيا فان روبرت شيرلي كان قد قام بارسال عدة رسائل باللغة الاجنبية وبواسطة مبعوث خاص عن طريق حلب الى القس جان تادييه رئيس القسس للكرملين في اصفهان ورجاه أن يترجمها للشاه عباس ولكن هذه الرسائل وصلت الى القس في اصفهان بينما كان الشاه وقتذاك في أردبيل وكانوا يقولون أنه سيتوجه منها الى اصفهان ولهذا اضطر القس الى حملها معه الى اصفهان ولكن الشاه توجه الى مازندران خلافاً لما كان شائعاً وحينما طلب منه القس جان تادييه تعليمات بشأن رسائل روبرت شيرلي رد عليه بأن يبقها معه حتى يعود هو الى اصفهان ويعرضها عليه ، ولهذا بقيت رسائل روبرت شيرلي مدة في اصفهان دون أن تقرأ . ولهذا استطاع سفير أسبانيا في ايران أن يطلع على مقترحات روبرت شيرلي قبل أن يطلع عليها الشاه وذلك عن طريق الرسائل التي وصلتته من الهند .

في أواسط سنة ١٠٢٨ هـ عاد الشاه عباس من مازندران الى اصفهان

وبعده بثلاثة أيام وصل سفراء الهند والعثمانيين وحكومة هوسكو الذين كانوا قد التقوا قبل هذا مع الشاه في أردبيل وقزوين . وقد كتب بيترود لاماليه - الذى كان آنذاك فى اصفهان - يصف وصول السفراء وترتيبات استقبالهم بالتفصيل . ولما كان يمكننا من هذا الوصف الرقوف على مراسم البلاط الايرانى وترتيبات استقبال السفراء الاجانب فى ذلك العصر ، فاننا ننقل هنا خلاصة الاجزاء الهامة التى كتبها :

فى صباح يوم الاربعاء ١٩ يونيو ١٦١٩ م (٦ رجب ١٠٢٨ هـ) وصل الى اصفهان سفراء الدول الثلاث : الهند وهوسكو والعثمانيين بكثير من الحفاوة ، وكانت حكومة هوسكو قد بعثت بسفيرين الى بلاط الشاه عباس ، وقد توفى أحدهما فى قزوين ووصل الآخر مع سكرتيه الى اصفهان ، وفى يوم وصول السفراء أعلن الشاه لاهل اصفهان أنه سيستقبلهم شخصيا ، ويجب على أهل المدينة أيضا أن يستقبلوهم ويرحبوا بهم ، كما طلب من سفري الدولتين الآخرين وهما سفير أسبانيا ومندوب انجلترا وكانا يقيمان قبله فى اصفهان أن يلحقا به خارج المدينة ليكونا فى استقبال السفراء الثلاثة .

وكان الشاه قد أعد قبل هذا نحو ٦٠ ألفا من حملة البنادق من أهل اصفهان والمناطق المحيطة بها وأمرهم أن يأتوا الى المدينة فى يوم معين وهم على أحسن صورة ممكنة وقد حضروا من مختلف الجهات فى جماعات وقد ارتدوا الملابس الملونة البهيجة وعلى رؤسهم الممائم المزينة بالريش الجميل وكان لكل جماعة قائدها الخاص ، وكانت تسير على أصوات الموسيقى من طبل وأبواق وآلات موسيقية حربية أخرى معروفة فقط فى ايران . كما كان لكل جماعة علمها الخاص بها وحربة مربوط فى نهايتها أشرطه عريضة وبعض الشرائط الرفيعة الملونة . وقد اصطف هؤلاء الجنود البالغ عددهم ستين ألفا فى صفين من أمام القصر الملكى الواقع فى ميدان اصفهان حتى قرية دولت آباد التى كان بها السفراء وتقع على بعد ١٢ الف قدم من المدينة وكان كل منهم يحمل بنحفية وضعها واقفة على قاعدتها بجانبه .

فى صباح هذا اليوم تصاعدت أصوات الطبول والابواق والآلات الموسيقية الاخرى التى تصم الاذان ، وكان الجنود يخرجون من صفونهم فى جماعات من ثمانية أو عشرة جنود ويرقصون كما هى العادة فى ايران وكانت

كل جماعة تتعب من الرقص تعود الى مكانها لتحل محلها جماعة أخرى تتابع الرقص وتعطى سلاحها للآخرين حتى تنتهى من رقصها وقد لاحظت أن الإيرانيين ميالون للرقص كثيرا فهم عندما يسمعون صوت الموسيقى ويبدأون جماعة ترقص يفقدون سيطرتهم على أنفسهم شيئا فشيئا حتى أكثرهم وقارا وانزانا فانهم يشتركون في أماكنهم بالرقص بتحريك أيديهم وأقدامهم وعيونهم وحواجبهم ورؤوسهم *

على أية حال فإن الطريق كله من دولت آباد حتى اصفهان ويبلغ نحو أربعة كيلو مترات استمر فيه الرقص والغناء والموسيقى من الصباح حتى المساء وانشغل الناس بالرقص والحركة والتصفيق وكان يسمع بين لحظة وأخرى صيحات « اطلال الله بقاء الشاه عباس ونصره » *

وكان يقف أمام قصر الشاه وعلى طول الميدان صفان من الغلمان الحسنى الصورة الى جانب الصفيين من حملة البنادق وكانوا يحملون أقداحا ذهبية للشراب وبعضهم يحمل آنية الماء المثلج وكانوا يسقون الناس من هذا أو ذاك *

وكان الشاه عباس قد أمر رجاله المعروفين وأعيان البلاط كي يخرجوا الى دولت آباد لاستقبال السفراء فتوجهوا الى هناك وسط صفوف الجنود وسار خلفهم تابعوهم ومرافقوهم وكانوا يلبسون ملابس فاخرة من الحرير وعمائم محلاة بالجواهر النفيسة والريش الجميل ويركبون خيولا أصيلة ألجمتها فضية أو ذهبية وكان الازدحام شديدا حتى يخيل اليك أن كل أهل اصفهان ركبوا الخيول وخرجوا للاستقبال *

ولم يكتف الشاه بهذا بل أمر بقية الناس من غير المسلمين من فرنجة ومجوس وأرمن ويهود كي يخرجوا للاشتراك في الاستقبال خاصة اليهود الذين كان قد أكد عليهم وقد خرجوا من المدينة في جماعات وكانوا يغنون أغاني خاصة ويقرأون أدعية ويحملون شيئا ملفونا في قماش يقال أنه التوراة مع شمع مضاء ، كما كان المجوس مع نسائهم وبناتهم يغنون ويرقصون في الحواري ، وكان يقف في وسط حملة البنادق سبعمائة شخص من مسيحيي جلفا كما كان يقف ثلاثمائة فارس بأسلحتهم السكاملة وملابسهم الجميلة في مكان آخر عين لهم من قبل *

بالإضافة الى هذا أمر الشاه أن تشترك جماعة من نحو عشرين الى خمسة وعشرين سيدة من نساء الحرم في استقبال السفراء ، وهذا الامر من بين التشریفات الخاصة التي تحدث مع السفراء فوق العادة فقط وقد سار هؤلاء النسوة راكبات خيولهن مكشوفة وجوههن وفي كامل نظامهن لاستقبال السفراء ، وكما ظنت كان معروفا أنهن من نساء الحرم ، ولكنى على يقين أنهم غير ذلك لأن نساء الحرم وحتى جوارى الشاه لا يستطيع أى رجل حتى سوى الشاه شخصا وأغوات قصوره رؤيتهن، ويستطيع المفربون أيضا مثل الاب أو الاخ الذهاب لرؤيتهن في قصر الملك .

حينما سمع السفير الهنـدى أن الشاه سيخرج لاستقباله في قرية دولت آباد انـتظر هناك طويلا ، ولكن الشاه - الذى كان في رأسه فكرة أخرى - اكتفى بإرسال الاعيان وكبار رجال الدولة وبقي الشاه في اصفهان حتى اضطر السفير الهندي في النهاية الى التوجه للمدينة واضطر سفيرا العثمانيين والروس الى متابعته في السير . ومن الاشخاص الذين كلّفهم الشاه بالذهاب لاستقبال السفراء كان السفير الانجليزى الذى لم يكن يهتم بالسلوك والتقاليد الدبلوماسية والملكية ، فقد ذهب الى دولت آباد كذلك أرسل الشاه عباس سبعة خيول بالجمّة وسروج ذهبية خصيصا للسفير الاسباني وطلب منه الخروج من المدينة ليكونا معا في استقبال السفراء ورؤيتهم . وقد أطاع هذا الكهل المتكبر وخرج برفقة حاكم المدينة . ولما كان لا يريد أن يرافق بقية السفراء ترفعا منه وتكبـرا ، فقد كان دائم البحث عن الشاه . ولكن الشاه كان على العكس يريد أن يرى السفير الهندي الذى من أجله أقيمت كل هذه الاستقبالات . ولهذا فقد غادر المدينة عن طريق آخر وحينما وصل الاشخاص الذين كانوا يتقدمون موكب السفير الهندي الى مشارف المدينة التقوا بالشاه في مكان على مقربة منها فأدى مراسم الاستقبال وبعد ساعة ونصف من وصول الآخرين للمدينة اصطحب الشاه سفير الهند وحده الى القصر الملكى ، وقد غضب السفير الاسباني حين علم أن الشاه لم ير السفراء الآخرين بل حتى لم يستقبلهم وأخذ يشكو قائلا أن مقامه أرفع من أن يخرج ليستقبل تاجرا ، وكان يقصد بالتاجر سفير الهند ، ذلك أن أكثر رجال الهند آنذاك كانوا تجارا محترفين ولكنه كان مخطئا إذ أن هذا السفير الهندي كان من أقارب ملك الهند وكان أحد أهم ثلاثة رجال في بلاطه ، وكان هؤلاء الثلاثة بالترتيب

هم : خان الخانين ، وكان يلي الشاه في علو المرتبة ، ثم أمير الأمراء ،
والثالث خان العالم ، وهذا الشخص الذي أرسله السلطان سليم الملقب نور
الدين جهانكير كسفير الى الشاه عباس كان خان العالم أى الشخص الثالث
في الهند بعد السلطان .

على أية حال لم يكد سنير أسبانيا يعود في غاية الضيق والغضب الى
منزله مع مرافقيه حتى ارسل الشاه في اثره حسين بك كبير الامناء وطلب منه
أن يذهب الى القصر الملكي لأن كل السفراء هناك فاضطر دون جارسيا لارتداء
ملابسه من جديد والذهاب الى القصر مع مرافقيه ، وكان هناك حسين بك
قورجى وداود خان شقيق أمام قلى خان أمير أمراء فارس وقرجى خان
قائد الجيش الايرانى وكذلك كل الوزراء واصطحب تيمور اغا رئيس أغوات
القصر السفير الى الداخل وكان في القاعة الكبرى السفير العثمانى وسفير
الهند وشقيق شريف مكة وسفير الازبك والروس ومندوب انجلترا * وبعد
تقائى دخل الشاه من باب خاص مع اثنين من الخدم وحيا السفراء واختار
مكانا لكل واحد وأجلس سفيرى الهند واسبانيا على مقربة منه كما سمح
لمرافقى السفير الاسباني بالدخول * ولما كان السفير الاسباني لا يستطيع
الجلوس على الارض ، فقد طلب أن يحضروا له كرسيًا قصيرا .

في هذا المجلس قام كل سفير بتقديم رسائل من قبل ملكه ومن بينهم
السفير الاسباني الذى قدم رسالة كانت قد وصلته آنذاك من الملك فيليب
الثالث بواسطة قس برتغالى اسمه برنار آزفيدو (١) وقد أعطى الشاه
الرسالة الى القس جان تاديه رئيس القسس الكرملين في أصفهان كى
يترجمها ولم تكن هذه الرسالة تتضمن غير المجاملات الرسمية ، ثم شرب
الشاه مع السفراء وبعد ساعة استأذن السفير الاسباني وعاد ثم تفرق
الباقون بعد ذلك .

وفي مغرب ذلك اليوم دعا الشاه السفراء ومرافقيهم لمشاهدة أضواء السوق
 واصطحبهم جميعا الى احدى القهاوى، وكانت القهاوى آنذاك واسعة كبيرة نظيفة
ومفتوحة وفي تلك الليلة زينت كل الاسواق وانقهاوى والحكاكين بالمصابيح
حيث علقت في أسقفها مصابيح بدت كأنها النجوم في السماء ، ولما كانت

للقهاوى مسقوفة وفي وسط أفنائها توجد أحواض كبيرة ، لهذا كانت الارض أيضا تتلالا كالسماء التى ملأتها النجوم من انعكاس مصابيح الاسقف والمصابيح الاخرى التى وضعت حول الاحواض .

كما أقيمت أمام كل قهوة أقواس نصر فرشت تحتها البسط المختلفة لجلوس المترددين على القهوة والمتفرجين ، وقد جلس الشاء تحت أحد هذه الاقواس ، وأذن للسفير الاسباني بالجلوس على كرسى فى الناحية الاخرى المواجهة له وجلس السفير العثماني على يساره وتحت قوس آخر جلس سفراء موسكو ومرافقوهم وجلس مندوب انجلترا ورجاله تحت قوس نصر أبعد قليلا وجلس الآخرون من قسس وضيوف الشاء ورجال الدولة جماعات جماعات فى أقواس نصر أخرى وجلس سفير الهند - الذى وصل متأخرا بضغ دقائق - فى مواجهة الشاء .

بعد هذا قام غلمان على قدر كبير من الجمال من جورجيا واصفهان ممن يعملون عادة فى مثل هذه القهاوى لخدمة الرواد والرقص بأداء رقصات جورجية وايرانية وهندية وتاتارية وهم يلبسون ملابس نسائية ويغنون أيضا على أنغام الموسيقى .

فى هذه الاثناء احضروا مفارش مائده صغيرة وضعوها أمام الشاء والسفراء رقدموا لهم العشاء وقد أكل الشاء قليلا ولكن السفراء لم يتناولوا شيئا من الطعام أما لشبعهم وأما لانهم لم يروا من المناسب أن يتناولوا العشاء على هذا النحو ، كما أنهم لم يشربوا القهوة التى وضعها امامهم غلمان القهاوى الحسان الوجوه واكتفوا بشرب الخمر وقد شرب الشاء نخب كل واحد من ملوكهم . وبعد انتهاء الطعام وغسل الايدى من الاباريق ذات الطشوت الذهبية جففوها بالمناديل التى كان يحملها الخدم فى وسطهم نهضوا وخرجوا من القهوة وتوجه الشاء مع السفراء والمرافقين الى السوق واصطحبهم لمشاهدة دارسك النقود الذهبية والفضية ومنازل القوافل (الخانات) ، وكان يتوقف فى الطريق للشرب أو مشاهدة بعض الدكاكين . وكان وقوفه دقائق أمام مكان مك بك رئيس تجار طرابزون الذى كان أكبر دكان فى السوق ثم أمام دكان الكساندر شوفوندىولى الفينيس الذى كان مملؤا بالصور والرايا والبضائع الايطالية المختلفة . وقد تحدث معه الشاء بعض الوقت فى تواضع وعرض صورة ولوحاته التى كان أغلبها للملوك

ومشاهير ايطاليا على السفير الهندي ورجاه أن يأخذ منها مايريد وألا يتقيد بالثمن لأنه شخصا سوف يرضى التاجر الفينيقي ، ولكن السفير الهندي أبى تمنعا وتكبيرا ولم يأخذ شيئا ، كما توقف الشاه أمام دكان خواجه نظر أحد تجار جلغا الارمن وبعض دكاكين الارمن الآخرين وأخذ من دكان أحدهم زجاجة خمرا استحسنها ثم واصل جولته *

كان الشاه طيلة هذه المدة يضحك ويهزح مع السفراء خاصة سفيرى أنسبانيا والهند وكان السفير الاسباني رجلا رزينا مقرا وكان الشاه يخاطبه بلقب « بابا » وكان هو بدوره يراعى الاحترام الكامل للشاه . أما سفير الهند فكان على العكس من ذلك دائم الضحك يتحدث بأحاديث لطيفة ويسلك سلوكا وديا جدا مع الشاه ، فمثلا كان أحيانا يضربه على ظهره وأحيانا يتكئ على كتفه كمن يريد أن يسر اليه شيئا في أذنه وأحيانا يخاطب الشاه ضاحكا بلقب العجوز مع أن شعر رأس السفير ووجهه كان أبيضا لكبر سنه . وكان حديث السفير الهندي وسلوكه في الظاهرينمان عن قربه من الشاه ولكنها في الواقع تدل على خفته وعدم معرفته بالمراسم والسلوك الملكي ، ولعله كان يرتكب هذه الحركات عمدا لكي يتفادى تكبر الشاه الطبيعي وعدم اعتنائه بأحد *

بعد مدة من التجول في السوق شعر السفير الاسباني بالارهاق والنوم فاستأذن الشاه وذهب الى منزله وتبعه جماعة من المدعويين مثل القس جان تادية وبقية القسس . وبعد هذا بقليل عاد الشاه الى القصر الملكي دون أن يحس به أحد وظل الباقون حتى طلوع الصباح يتجولون ويشربون *

وفي يوم الجمعة ٥ يوليو (٢٢ رجب) أقيمت احتفالات عيد نثر الماء أو رش الماء ولم أكن قد شاهدت احتفاله حتى هذا اليوم . ففي هذا اليوم أرتدى جميع الناس ومن مختلف الطبقات وحتى الشاه نفسه ودون أى اعتبار لمراكزهم ارتدوا ملابس قصيرة على طريقة أهل مازندران . وحتى لا تتسخ عماثهم من الماء أو الوحل فقد ارتدوا بدلا منها قبعات وشمروا أكمامهم حتى سواعدهم . وتوجهوا الى شاطئ النهر حيث حضر الشاه وبمجرد أن أذن لهم أخذوا ينثرون الماء على بعضهم باوانى التي كانت معهم وهم يغنون ويرقصون ويلعبون ويضحكون وأحيانا بسبب الغضب

الانفعال أو لاسباب أخرى كان البعض يلقي بالآنية ويأخذون في نثر الماء بأيديهم أو يلقون بمنافسيهم في النهر أو الاحواض ، وغالبا ما ينتهي هذا العيسد ببعض الغرقى .

ويتم الاحتفال بعيد نثر الماء هذا على شاطئ زاینده رود في نهاية شوارع چهارباغ (الحدائق الاربع) في مواجهة جسر الله وردى خان الجميل، ولهذا السبب ذهب الشاه الى هناك في الصباح الباكر وظل طول النهار في إحدى الغرف التي تحت الجسر يشاهد الاحتفال وقبل أن تنتهي الاحتفالات ببعض الوقت ويكف الناس عن نثر الماء بعضهم على بعض دعى الشاه السفراء الى غرفته تحت الجسر ، ولما كان الوقت ضيقا فقد سمح للناس بالانصراف بعد وصولهم بقليل وأخذ يتناول الشراب أثناء حديثه مع السفراء .

في هذا المجلس أفضى الشاه عزمه على فتح قندهار ، وأثناء حديثه مع سفير أسبانيا أشار الى سفير الهند وقال له متعمدا ، هل ترى هذا الرجل ، ان لم يعد ملكه الشاه سليم قندهار الى فسوف يرى ماذا ساصنع به . وكان الشاه عباس بهذا الكلام يريد أن يبلغ سفيرى أسبانيا وتركيا بالاتطع بلادهما في الاراضى الايرانية لانه في نفس اليوم أبدى كثيرا من العطف على السفير الاسباني الذى شكره قائلا : « أننى سعيد بالمحبة التى يبديها لى صاحب الجلالة لانها في الواقع احترام لملك أسبانيا » فالتفت للشاه الى رئيس القسس الكرملين الذى كان حاضرا وقال له « بالله هلا قلت له أن احترامى له ليس لاجل ملك أسبانيا بل هو احترام لشخصه لأنه ضيفى » .

بعد هذا أذن الشاه للسفراء جميعا بالانصراف فيما عدا مندوبى انجلترا الذين استبقاهم وأبدى لهم كثيرا من المحبة والاحترام ووعدهم بأن يترك لهم أحد موانى جنوب ايران مثل ميناء جمبرون الذى استرده من البرتغاليين ويقع أمام جزيرة هرمز أو مكانا آخر في جزيرة قشم التى تمتاز عن هرمز بوجود الماء العذب بها وقد سمعت الشاه يكرر لهم القول بأنهم اذا نشطوا في شراء الحرير الايراني ونقله الى أوروبا عن طريق البحر فان يرسل شيئا منه عن طريق العثمانيين البرى .

في اليوم التالى - كما كتب دون جارميا وكما ذكر بيترو دلافاليه أيضا - قام الشاه بدعوة السفراء الى ميدان المدينة لمشاهدة صراع الحيوانات

كالتيран والكباشي • وفي اليوم التالي أرسل بعض المربي والطوى للسفير
الاسباني وبعد ليلتين من هذا ذهب مع جميع السفراء الى قرية عباس آباد
التي كانت على مقربة من قرية « خرابات » - كما يذكر دون جارسيا -
وتوجه الى منزل أمام قلتي خان أمير أندرا فارس • ولما كان قد شاع في
أصفهان في ذلك الوقت أن الأمير تاج الدين أمير صيدا وجماعة من أهل لبنان
قد ثاروا ضد السلطان العثماني واستولوا على بيروت وأن ملوك فرنسا
وأسبانيا وجمهورية فينيسيا في حرب مع الاتراك ، فقد وجه الشاء بعض
أسئلة للسفراء عن هذه الامور ولكن أحدا منهم لم يكن لديه اطلاع
كامل على هذه الاحداث •

وفي منزل أمام قلتي خان جلس الشاء ومرافقوه فوق (مهتابي خانه)
قمرية وأخذوا في تناول الشراب وكان سفير الهند مدمنا تدخين « البايب »
ويبدو أن رائحة دخانة كانت تضايق الشاء ، لهذا نراه ينهض فجأة من
مكانه بدون عمامته ويذهب الى ناحية أخرى ، وأثناء سيره يأخذ عمامة أمام
قلتي خان من على رأسه ويتوسدها وينام في أحد الاركان ، ويأمر بإعطاء
عمامته لامام قلتي خان • وبعد أن انتظر السفراء بعض الوقت ويئسوا من أن
يستيقظ الشاء عادوا الى منازلهم ■

وفي الليلة التالية دعا الشاء السفراء للعشاء في قصر عالي قابو (الباب
العالي) ولكنه لم يحضر وبعد فترة انصرف الضيوف •

وفي يوم الجمعة ٢٠ شعبان من نفس العام (٢ أغسطس) وقبل أن
يغادر أصفهان للذهبة في المناطق الجبلية القريبة ، استدعى السفراء مغرب
ذلك اليوم للقائه في ميدان « نقش جهان » وسمح لسفراء أسبانيا وموسكو
والبابا بالعودة لبلادهم ثم اصطحب دون جارسيا سفير أسبانيا الى ناحية
مظلمة من الميدان ونزل من على حصانه وجلس على الأرض وسمح للسفير
بالجلوس أمامه واستدعى كذلك القس جان تاديه رئيس القسس الكرملين
واثنين من عظماء الاسبان الذين كانوا يرافقون السفير ليكونوا شهودا على
محادثاته مع السفير • ولم يكن من الايرانيين سوى ساروتقي الوزير
وقرجاي خان القائد وحين بك كبير الأمناء وبعض أشخاص من المقربين
للشاء وطلب الشاء من القس جان تاديه أن يترجم محادثاته مع السفير ،

ثم قال اذا كان لديه شيء يود قوله فلا يذكره . فقال للسفير ليس لدى شيء سوى أنني أرجو أن يقوم جلالة الشاه شخصيا بوضع كل المسيحيين المقيمين في ايران مثل البرتغاليين والاسبان والايطاليين تحت رعايته وحمايته ويسمح لهم باقامة كنائس لهم كما هو الحال في اصفهان . فقال الشاه : أن هذا الطلب لا يحتاج الى رجاء لانه شخصيا يرفع المسيحيين كما أنه لا يعارض اقامة الكنائس . والرجاء الثاني للسفير هو أن ينظر الشاه نظره صداقة الى جيرانه البرتغاليين في هرمز والا بحمي أو يؤيد اللصوص والقراصنة كالانجليز وأمثالهم الذين يعدون أعداء للبرتغال .

ولما كان الشاه لا يريد من السفير أن يذم الانجليز فقد قطع كلامه قائلا : « اذا كانت علاقتي اليوم قد وهنت بالبرتغاليين في هرمز فذلك تقصيرهم لانهم يسيئون للمسلمين ويأسرونهم ويسجنونهم دون ذنب أو سبب كما أنهم يمنعونهم من التردد على ايران ويجبرونهم على الدخول في المسيحية ولا شك أنه يجب عليهم أن يكونوا عن هذه الاعمال القبيحة كما أن عليهم ألا يتدخلوا في شئون الانجليز » .

ثم عرض السفير موضوع ميناء جمبرون وجزيرة البحرين ، فاجابه الشاه أننا أخذنا جزيرة البحرين من أمير هرمز ولم تكن متعلقة بالبرتغاليين، وإذا كان للبرتغاليين قبل هذا عمل في جزيرة البحرين مع أمير هرمز المسلم فسيكون لهم معنا ونحن مسلمون أيضا نفس العمل وبهذا لم يختلف الامر بالنسبة لهم ولا أظن أن فائدة شاه ايران لجاورته أسبانيا ستكون أقل من فائدته لجاورته لأمير هرمز . أما فيما يتعلق بميناء جمبرون فيجب أن نقول صراحة أن هذا الميناء يقع على الاراضي الايرانية ويخرج كلية عن نفوذ حكومتى البرتغال وهرمز واستيلائى على هذا الميناء ليس فيه اعتداء على حقوق أحد .

على أية حال فان الشاه أخبر السفير صراحة أنه لن يرد شيئا مما استولى عليه ، كما اشتكى من أن ملوك الفرنج غالبا ما وعدوه ولكنهم لم يوفوا بوعودهم ، وقال أنني الى الآن قد استوليت من الاتراك على قلاع يزيد عددها على عدد أيام السنة أى أكثر من ٣٦٥ قلعة . بينما ملوك اوربا المسيحيين لم يستطيعوا الاستيلاء على منزل أو مخزن بل حتى على حظيرة

ماعز ، واذا استمروا معي على هذا المنوال فلا مفر أمامي من الاستيلاء على بيت المقدس ، وعمل مايجب عمله •

ثم سمح الشاه للسفير بالعودة بكل احترام قائلا أنه سيرسل معه سفيرا يحمل هدايا قيمة ، وسيرسل معه أيضا الرد على رسالة ملك أسبانيا، ثم أمر وزيره أن يعد الرد على رسائل فيليب الثالث • ثم كلف أحد رجال بلاطه (١) بالذهاب الى أسبانيا كسفير مع دون جارسيا وسلمه هدايا تقدر قيمتها بنحو تسعة الاف تومان • ولم يسافر هذا السفير مع دون جارسيا بل ظل في اصفهان حتى وصل دون جارسيا الى جزيرة هرمز (١٣ ذى القعدة ١٠٢٨ هـ - ١٩ أكتوبر ١٦١٩ م) ، ثم بعث اليه برسالة يسأله عن حركة الرياح الموسمية حتى يلحق به في الجزيرة في الوقت المناسب ويسافرا معا الى الهند ، ولكن يتضح من كتاب رحلة دون جارسيا والمراجع الاخرى أن هذا السفير لم يسافر ابدا الى أسبانيا •

(١) كتب دون جارسيا أن اسم هذا السفير كان « كايا سلطان » ويمكن أن نرجح أن اسمه ربما كان كيا سلطان •

مقدمات الاستيلاء على جزيرة هرمز

قطع علاقات الصداقة مع أسبانيا :

كما سبق أن ذكرنا فقد كان الطريق الوحيد لتصدير البضائع الإيرانية الى الدول الأوروبية هو الطريق عبر الدولة العثمانية أو أملاكها ، وذلك حتى عهد الشاه عباس الكبير ، ومع أن طريق الخليج البحرى قد فتح للتجارة ظاهريا منذ استقرار البرتغاليين في جزيرة هرمز .

الا أنه لم تعد منه فائدة على التجارة الإيرانية لان المسئولين البرتغاليين احتكروا شراء البضائع الإيرانية وتجاريتها .

وكان الشاه عباس طيلة المدة التى حارب فيها الدولة العثمانية يسلك طريق الصداقة والسلم مع الحكومة الأسبانية وموظفيها البرتغاليين لعله يستطيع أن يوحد معها في حربه ضد العثمانيين، ويستفيد من القوات البحرية الأسبانية التى كانت تولى مناسف في ذلك الوقت للاطاحة بأعدائه . وكان يظهر موافقته على بيع الحرير وبقية الحاصلات الإيرانية لهم . ولكن البرتغاليين احتكروا تجارة الخليج لانفسهم ولم يسمحوا لاحد غيرهم بنقل البضائع الى الهند وأوربا وأسأوا الى التجار الإيرانيين ورعايا ايران في موانئ الخليج ، لهذا فان الشاه عباس كان يبطن لهم الحقد وكان ينتهز الفرصة ليكف أيديهم عن السواحل الإيرانية ويفتح طريق الخليج أمام تجارة ايران وبقية الدول .

لهذا فقد قام الشاه عباس بالاستيلاء على جزيرة البحرين التى كانت تخضع لامير هرمز . وفي الواقع كانت في حوزة البرتغاليين وذلك سنة ١٠١٠ هـ ثم ظل يحرر سواحل جنوب ايران من سيطرة ونفوذ البرتغاليين . وفي عام ١٠٢٢ هـ استولى على ميناء جمبرون الذى كان البرتغاليون قد استولوا عليه وبنوا فيه قلعة للمحافظة على جزيرة هرمز .

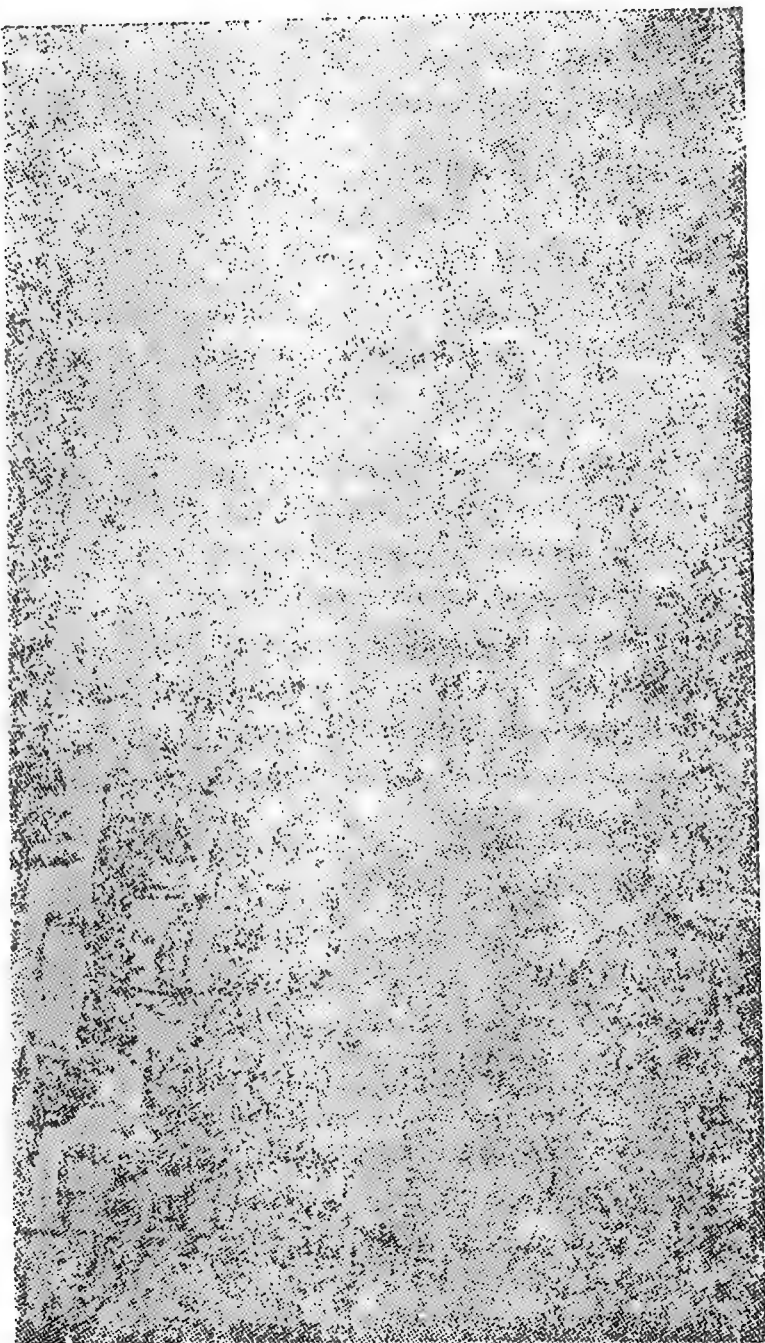
بعد ذلك عندما أسس التجار الانجليز شركة الهند الشرقية في الهند وأرسلوا بعض المندوبين الى أصفهان للتجارة مع ايران وشراء الحرير فان الشاه عباس أبدى كثيرا من العطف والمساعدة لمندوبى هذه الشركة نكايه في البرتغاليين ، بل أنه - كما سنذكر في باب العلاقات الإيرانية الانجليزية - عقد اتفاقا مع مندوب الشركة على أن يبيع كل انتاج ايران من الحرير في

الجنوب لشركة الهند الشرقية الانجليزية فقط ، والا يرسل شيئا الى أوروبا
عن طريق العثمانيين .

كان عنف البرتغاليين وظلمهم في سواحل وجزر الخليج قد ولدا حقدًا
شديدًا ضدهم على طول الساحل الجنوبي لايران ، حتى أن الإيرانيين كانوا
لايمدون السفن التجارية البرتغالية بالمؤن في الموانئ الإيرانية خاصة أهالي
بعض الموانئ مثل نخيلو وريك الذين قاسوا الكثير من ظلمهم ، وكانوا يكونون
لهم عداوة خاصة واضحة . لهذا فان للشاه عباس رغم محبته لكل الأوربيين،
كان يعد البرتغاليين أعداء ايران لهذا السبب . وهذا الامر يمكن ادراكه
بوضوح مما كتبه الرحالة بيترو دلافاليه الذى يقول :

« . . . كان الشاه عباس بمنح رعاياه المسيحيين قروضا لى يعمرؤا
أماكهم أو لامور أخرى ، وكان يشترط عليهم الدخول فى الاسلام اذا لم يؤدؤا
قروضهم فى مواعيدها ولكن عندها أرسلت جماعة الارمن بعض النقسود
البرتغالية للشاه عباس سدادا لقروضهم أدرك للشاه أنهم أخذوا هذه
الاموال من البرتغاليين فامتنع عن تسلمها وقال اذا كان هؤلاء الارامنة يتركون
مذهبهم من أجل المال ويدخلون فى مذهب الأوربيين الذين يخنفون معهم فيه
فلماذا لايدخلون الاسلام ؟ ليس من الصواب أن يصبح رعايا رعاياى مرتزقة
للدول الاجنبية خاصة البرتغال التى تجاوز مستعمراتها ايران التى نلظراليها
بعين الشك والريبه ، لانهم فى هذه الحال سوف يتعاونون مع أعداء ايران
ووجودهم على هذا النحو فى ايران يعد خطرا وضرا » .

وقد كان البرتغاليون مضطربين من وجود الانجليز فى المحيط الهندى
والبحار الشرقية ، ولهذا كانوا يمنعون مرور سفن الدول المختلفة فى مياه
الخليج لى تبقى تجارة ايران والخليج فى أيديهم . ولهذا كان على أية سفينة
تريد الدخول للخليج أن تحصل على تصريح من قائد إحدى القلاع البرتغالية
فى هذه المنطقة ، وكانت شروط هذه التصاريح صعبة ولا يمكن تحملها .
وكان البرتغاليون يسيئون جدا لموظفى شركة الهند الشرقية الانجليزية فى
مناطق نفوذهم حتى أنهم كانوا لايتورعون عن قتلهم مثلما حدث سنة
١٠٢٧ هـ ، عندما كان ادوارد كونوك(١) مندوب شركة الهند الشرقية
الانجليزية متوجها من اصفهان الى هرمز لاستلام البضائع من السفن



میدان نقش جهان اصفهان

با منظره عمارت عالی قاپو و مسجد شیخ لطف الله و سر در بازار قیصریه
از سفرنامه و کرتلیوس دویردین « هلندی

الانجليزية فسموه مع بعض مرانقية ولهذا غضب موظفو شركة الهند الشرقية من اعتداءاتهم وكانوا ينتهزون الفرصة حتى يكفوا أيديهم عن مياه الهند والخليج .

كان التنافس التجارى بين الانجليز والبرتغاليين يزداد يوما بعد يوم في ايران - كما سبق أن ذكرنا - وكان للشاه عباس يتقرب الى منحويى شركة الهند الشرقية لانه كان يعد البرتغاليين أعداء له . ولكنه ظل يحتفظ بعلاقات الصداقة مع فيليب الثالث ويمتنع عن اظهار عداوته له طيلة المدة التى كان يرى فيها أن البرتغاليين أقوى قوة فيبحارالشرق، كما كان يطمع في معونته في الحرب بين ايران والعثمانيين .

في الثلاث سنوات ١٠٢١ ، ١٠٢٤ هـ (١٦١٢ - ١٦١٥ م) هزمت بعض السفن الانجليزية عددا من السفن البرتغالية على مقربة من ميناء سورت وقد أدى هذا الحادث الى تقليل أهمية وهيبة أسبانيا والبرتغال في الشرق وأظهر ضعفها ، وبعد ٣ سنوات عقد الشاه عباس صلحا مع العثمانيين فلم يعد بحاجة الى مساعدات أسبانيا ، كما اتضح له ضعف قواتها البحرية في الشرق ، ولهذا أقدم على قطع صداقته بملك أسبانيا واخراج البرتغاليين من سواحل وجزر ايران ، ولهذا لم يرد على رسائل فيليب الثالث ردودا مناسبة وأعاد سفيره يائسا .

بعد عودة دون جارسيا توترت العلاقات بين الشاه عباس وبين الحكومة الاسبانية أوائل شوال ١٠٢٨ هـ وصلت ثلاث رسائل الى جان تاديه القس الكرملى المقيم في أصفهان اثنتان منهما من أسبانيا وواحدة من دون جارسيا . وكانت الرسائل ن الاسبانيان قد وصلت الى الحاكم البرتغالى لهرمز وهو دون لويس دى صوصا فارسلها بدوره مع أحد الجنود الى اصفهان ظنا منه أن دون جارسيا كان مازال هناك . فلما وصلت هاتان الرسائل ن الى السفير أثناء الطريق بين اصفهان وشيراز ارفقهما مع خطاب منه الى القس جان تاديه رجاه فيه أن يعرضها على الشاه . وقد عرض القس هاتين الرسائلتين وكانت احدهما من فيليب الثالث والثانية من روبرت شيرلى سفير ايران الى سبانيا ، وكان هذا يوم الثالث من شوال في ميدان

« نقش جهان » في اصفهان ، وطلب من الشاه أن يأذن له بترجمتهما ، وكان ملك أسبانيا قد ذكر في رسالته أنه مستعد للدخول في حرب مع السلطان العثماني في البحر الاحمر واغلاق طريق التجارة في وجه الاتراك وأنه أعد خمس سفن أسبانية ضخمة لهذا الغرض وأنه ارسل « رديميتو دي لاكروز* » القس الكرملى الذى كان قد ذهب مع روبرت شيرلى الى أسبانيا مع هذه السفن الى ايران حتى يعقد مع الشاه عباس الاتفاقيات اللازمة في هذا الشأن .

أما فيما يتعلق بالحرير فقد ذكر أنه سيسمح للتجار الايرانيين من مسلمين ومسيحيين الذين يجلبون حريرهم الى جزيرة هرمز ولا يتمكنون من بيعه هناك أن يحملون الى جوا مركز التجارة البرتغالية في الهند ، بل انهم أن أرادوا فيمكنهم نقله الى ليشبون عاصمة البرتغال وبدون دفع الرسوم الجمركية أو أية رسوم أخرى خلافا لما كانت عليه العادة من قبل ولكنهم سيمنعون اذا أرادوا نقله الى بولة أخرى وسيدفعون في هرمز وجوا وليشبون نصف الضرائب عن اقامتهم لمدة أربع سنوات ، أما اذا زادت اقامتهم عن هذه المدة فستحصل منهم الضرائب كاملة . واذا لم يبيعوا حريرهم في جوا ونقلوه الى البرتغال فانهم سيعفون من دفع الرسوم والضرائب ، ولكن عليهم أن يشتروا بثلاثة أرباع الحرير الذى يبيعونه في أسبانيا بضائع أسبانية ويشتروا بالربع الآخر بضائع من جوا أو هرمز ، كما سيسمح لهم في حالة عدم رغبتهم في شراء بضائع من الاراضى الاسبانية باستبدال ثمن حريرهم من العملة الاسبانية الى العملة الايرانية أو أية عملة أخرى في ميناء جوا الهندى أو في جزيرة هرمز وعليهم أن يدفعوا نفس الرسوم الجمركية التى يدفعها رعايا أسبانيا والبرتغال على البضائع التى يشترونها في أسبانيا من موانئ ليشبون وجوا وجزيرة هرمز . كما يمكنهم اختيار مندوبين لهم في لشبون من الايرانيين أو الارمن البرتغاليين لكي يكونوا حكما لهم في الخلافات التجارية والمعاملات التى تحدث مع الرعايا الاسبان ولكنه غير مسموح لهم بتعيين مندوبين من جنسيات أخرى . وستختار الحكومة الاسبانية ثلاثة من المسئولين الرسميين ليفصلوا في خلافاتهم مع التجار البرتغاليين والاسبان أو سائر الناس بالعدل والانصاف ولكن اذا لجأ التجار الايرانيون الى الدعوة للدين الاسلامى في الاراضى الاسبانية أو مستعمراتها أو أمانوا المقدرات المسيحية فانهم سيلقون جزاءهم » .

Pere Redeweto de La Cruz

وفي مقابل ذلك طلب ملك أسبانيا من الشاه عباس أن يعيد ميناء
جهدرون مرة أخرى إلى مملكة البرتغالية في هرمز وأن يهدم القلاع
التي أنشأها هناك ، ويعيد جزر البيريز إلى أمير هرمز .

أما في الرسالة الناجمة التي أرسلها السفير دون جارسيا إلى القس
جان تادييه فقد ذكر أنه إذا لم يرضخ الشاه عباس بإعادة ميناء
جهدرون والبحرين لا يجب عليه أن يصر على هذا الطلب ، ولكن عاياه (جان تادييه)
أن يبذل مساهمته لكي يخلق السلام مراد في إيران في وجه الدول الأوروبية خاصة
روسيا انجلترا القراصنة وأن يعيد حرية التجارة للبرتغاليين كما كان
في الماضي .

وكان روبرت شيرلي قد كتب في رسالته للشاه عباس يقول أن فيليب
الثالث ملك أسبانيا مستعد بمغفنة الحربية لإغلاق طريق البحر الأحمر في
وجه السفن الهندية وسيمد يد السرب ضد الثعالب في أقرب وقت بمساعدة
البابا وبعية ملوك أوروبا . كما أكد على ضرورة امتناع الشاه عن عقد أية
اتفاقيات مع منسوبي شركة الهند الشرقية والرعايا الانجليز وذلك حفاظا على
الصداقة الاسبانية الإيرانية ، كما كان قد وعده عند سفره إلى أوروبا وأحين
وصول تأكيدات من الشاه في هذا الشأن لأن السلطان العثماني وملك انجلترا
قد اتحدا معا ولن يتحاربا أبدا .

وقد كتب روبرت شيرلي « . . . لما كانت صداقة أسبانيا تفوق الحد
فيجب أن يتظاهر الشاه بارضاء ملك أسبانيا ، وأنا أرى هذا لصالح الشاه
ويجب عليه أن يخرج المجرعة الانجليزية من عاصمته ، وإذا كنت من أصل
انجليزي الا أنني أقول أن صالح شاه إيران ونائذته تأتي من ملك أسبانيا ،
ذلك لأنه مذهب كل عام لقتال الانجليز وهذا القتال مفيد جدا للشاه
ولصالحه في حين توطدت الصداقة بين الانجليز والسلطان العثماني ، ولم
تنشب الحرب بينهم أبدا ولن يسدوا طريق البحر الأحمر (١) » .

نصّب الشاه عباس حين اطلاع على مضمون رسالة فيليب الثالث ،
وكما سبق أن قال لسفيره قال للقس جان تادييه أنه لن يرد شيئا واحدا من

(١) من مجموعة مراسلات الشاه عباس في المكتبة الوطنية بباريس .

الأرض التي استعادها وأنه إذا أراد فانه سيأخذ جزيرة هرمز أيضا في هجوم واحد .

أما فيما يتعلق بتجارة الحرير فقد ضحك الشاه للشروط والضوابط التي ذكرها ملك أسبانيا في رسالته وقال أن موضوع الحرير موضوع تجارى وسوف نبيعه لمن يدفع ثمننا أكثر .

وقد ازداد غضب الشاه عباس لما جاء في رسالتي فيليب الثالث ودون جارسيا من أن الشاه عباس إذا لم يتفق مع البرتغاليين في هرمز - فان علاقات الصداقة ستضعف ، ولن تصبح حكومة أسبانيا مسئولة إذا ما أقدم البرتغاليون على عمل يتعارض مع الصداقة بين البلدين وكما كانت عادة الشاه فقد أخذ يسير بين الحاضرين ثم يجلس في مكانه عدة مرات ويكرر القسم بالله والدين الاسلامي أن يظهر بالسيف جزيرة هرمز من وجود البرتغاليين . وبلغ من شدة غضبه أن مزق رسالتي ملك أسبانيا وسفيره دون جارسيا . وحين أخبره القس جان تاديه أن لديه عليه مملوءة برسائل ملك أسبانيا لم يعرضها عليه ، قال له ساخرا : « لا أهمية لها ولا تتعب نفسك ومزقها كلها لأنه لا يوجد في هذه العلبة غير الكذب (١) » .

ولكى يظهر الشاه عباس عزمه على الاستيلاء على جزيرة هرمز ، فقد استدعى أحد رجاله الذين ولدوا في تلك الجزيرة ولديه اطلاع تام على شئونها لكي يحضر في نفس هذا المجلس وطلب منه بيانات عن تعداد سكان جزيرة هرمز ومذهب أمير الجزيرة ورعاياه وعدد الشيعة والسنة والرعايا البرتغاليين .

من ذلك الوقت أظهر الشاه عباس حقه الدفين تجاه البرتغاليين في هرمز ، حتى أنه في يوم من الايام - وأمام مندوب شركة الهند الشرقية وفي حضور عدة قسس برتغاليين ورؤيس القسس الكرمليين - أشار الى أحد

(١) ذكر ببقرو دلاغاليه في كتاب رحلته أن شروط ملك أسبانيا فيما يتعلق بالحرير تبعت على الضحك حقا لأن شاه ايران كان يريد فتح طريق التجارة الايرانية أمام كل دول أوربا وأنه كان يريد بيع الحرير الايراني في ايران نفسها حتى يحصل على أموال تلك الدول فيزيد من ثروته بلاده أما من الناحية السياسية فكان قد تصالح مع السلطان العثماني ولم يعد هناك ما يؤرقه من ناحية حدزده الغربية واتحاده مع ملك أسبانيا لم يعد له أهمية .

المدافع في ركن من أركان ميدان نقش جهان في أصفهان وقال « من المعروف ان الجيش الايراني استولى على هذا المدفع من البرتغاليين في ميناء جمبرون ، ولكن هذا ليس صحيحا اذ أن جنودى حصلوا عليه من احدى السفن البرتغالية التى تادها القدر الى قرب الساحل ، ثم أخذ يقص كيف تمكن الشجعان من الجنود الايرانيين من الاستيلاء على السفينة اذ علقوا سيوفهم في رقابهم ونزلوا في البحر وسبحوا حتى وصلوا للسفينة وأخذوها . وفي نهاية حديثه قال باحتقار « اننى أعرف هؤلاء البرتغاليين جيدا وأعرف كيف أتعامل معهم » . وبهذا الحديث أفهم القسس البرتغاليين الذين كانوا يكتبون لحكام هرمز أنه يذرى الحرب مع البرتغاليين . وعندما تحدث مندوب الشركة الانجليزية عن المدافع المدمرة للقلاع التى كانت قد ابتكرت حديثا آنذاك في أوروبا . قال الشاه « اننى عادة لا أصحب معى مدفعية في حروبى لان غالبية جيشى من الفرسان واذا أرادوا اصطحاب مثل هذه المدافع الثقيلة فانها ستعوق سرعة حركتهم في حين أن السبب الرئيسى لانتصارى على العثمانيين هو سرعة حركة الجيش القزلباشى ، وفي رأىى أنه من الافضل للاستيلاء على قلاع الاعداء صب هذه المدافع قرب مواقع الحرب . وكان الشاه عباس برمى من وراء هذا الى اخافة البرتغاليين لانهم كانوا يعتقدون أن الاستيلاء على قلعة هرمز لا يمكن الا باستعمال مدفعية ثقيلة . ولما لم يكن لدى الشاه عباس أية سفن حربية كما أن السفن الانجليزية لاتستطيع الاقتراب من الساحل بسبب عدم كفاءة الميناء ، فان نقل المدافع من ايران الى جزيرة هرمز يصبح أمرا صعبا ولكن الشاه عباس أخبرهم أنه يمكن نقل معدات صب المدافع الى الجزيرة وصنعها هناك (١) .

(١) رحلة بيترو دلافاليه ، ج ٥ ص ١٢ - ١٤ .

مقدمات الحرب الابرائية ضد البرتغاليين في جزيرة هرمز

لقد أرعبت تهديدات الشاه عباس وعدائه الواضح للبرتغاليين في جزيرة هرمز ، ولما كان قد أشيع أن الشاه سيذهب آنذاك الى شيراز للاعداد لهذه الحرب ، فقد أخذوا يعدون وسائل الدفاع وأخذوا في اشاعة أخبار كاذبة لتخويف الشاه عباس ، من ذلك أنهم في غرة محرم ١٠٢٩ هـ أشاعوا في اصفهان أن الكونت رودونديو (١) نائب الملك في الهند قد أبحر من جوا على رأس قوة بحرية ضخمة متوجها الى هرمز لكي يحارب السفن الانجليزية في مياه ايران ، وإذا اضطرفانه سيستولى على سواحل ايران أيضا . ولكن هذا الخبر لم يكن له أساس من الصحة ولكن البرتغاليين في هرمز أشاعوه لتخويف شاه ايران والسفن الانجليزية التي كانت في ميناء جاسك الايراني . وبدلا من أن يستفيدوا من هذه الاشاعة فانهم أفضيوا لأن هذا الخبر المكذوب لم يصل الى السفن الانجليزية التي غادرت ميناء جاسك متوجهة الى الهند قبل وصول هذه الاشاعة لها . وبدلا من أن تخيف الشاه عباس زاحته كراهية وحقدا ، فأمر امام قلتي خان أمير امراء فارس أن يرسل على الفور خمسة عشر ألف جندي الى ساحل الخليج وأن يستولى على كل السفن والقوارب البرتغالية وينتظر أوامره وقد احدث تجمع الجنود الايرانيين على الساحل خوفا واضطرابا في جزيرة هرمز ، ولكن الايرانيين لم يهجموا على الجزيرة بل هجموا على مكان قرب رأس الخيمة على ساحل عمان كان تحت نفوذ أمير هرمز ويعد من مراكز التجارة للبرتغالية ، وذلك بمساعدة جماعة من العرب وأخرجوا البرتغاليين من هناك ، وفي نفس الوقت قامت قوة من الجيش الايراني بمحاصرة القلعة البرتغالية في جزيرة قشم مما أدى الى تهديد هرمز بالعطش لأن مياه الشرب في جزيرة هرمز تنقل اليها من جزيرة قشم .

وفي هذا الوقت أيضا وصل الى اصفهان خبر بأن البرتغاليين في هرمز أقاموا سورا حول المدينة للمحافظة عليها وأنهم يسدون الحوازي التي تقع في أطراف المدينة حتى يمكنهم الدفاع عنها اذا هاجبهم جيش ايران ، وكان هذا الخبر يدل على مدى خوف البرتغاليين واضطرابهم مما أدى الى اصرار الشاه عباس على احتلال تلك الجزيرة .

قبل أن يغادر دون جارسيا سفير أسبانيا جزيرة هرمز متوجها الى الهند كتب رسالة ثانية للشاه عباس يشكو من سلوك الانجليز ويعتدب لعناية الشاه بهم ، وقد وصلت هذه الرسالة في ربيع الاول ١٠٢٩ هـ الى الشاه عن طريق القس جان تاديه . وقد رد الشاه على هذا صراحة قائلا للقس « أن الانجليز مؤدبون أحسنت تربيتهم ، لم يسلكوا أبدا ضد رغبتى وقد قدموا هذه البلاد من قبل ملكهم وهم ضيوف فكيف يمكن أن أطردهم من بلادى أن ايران مفتوحة لكل شخص ويسافر اليها اناس من كل دولة ، ومع أننى في حرب مع الاتراك الا أننى لا أغلق طريق ايران في وجه التجار العثمانيين . والانجليز الذين يأتون الى ايران يمدون في الاراضى والبحار التى تحت سيطرة رجال ملك أسبانيا . ولو كان رجلا فليمنع مجيئهم . لقد ظل ملك أسبانيا مدة طويلة يعذنى أنه سيدخل الحرب ضد السلطان العثمانى ولكنه لم يف بهذا الوعد أبدا ولن يفى به ، وعلى هذا فإى منة له على . واذا اتصالت اليوم مع الحكومة العثمانية فالتقصير هنا يرجع الى ملوك أوربا لانه اذا هب ملوككم فحرب الاتراك فاننى أعصمكم أن أنقض معاهدة الصلح وأقود الجيش مرة أخرى الى الاراضى العثمانية . أما فيما يتعلق بالجزء الثانى من رسالة دون جارسيا التى ذكر فيها أنه ينتظر بكل قلق وصول سفير الشاه عباس لى يسافرا معا الى أسبانيا ، فقال الشاه أن سفيره قد غادر اصفهان من مدة وسيصل الى هرمز عما قريب ، ثم أخذ يد القس جان تاديه في يده بشدة وقال له : « عدنى أن تكتب ماقلته لك الى بابا روما وملوك الفرنج (١) » .

في يوم ١٣ رجب ١٠٢٩ هـ (١٦ يونيو ١٦٢٠ م) وصلت الى ميناء هرمز أربع سفن من السفن الاسبانية الخمسة التى كان فيليب الثالث قد ذكرها في رسالته للشاه عباس لتتعلق طريق التجارة للعثمانية في البحر الاحمر بينما غرقت الخامسة في الطريق ، وكما أسرنا من قبل كان فيليب الثالث قد أبقي روبرت شيرلى سفير الشاه عباس في أسبانيا بينما أعاد القس ريديميتودلاكروز الذى كان قد رافقه الى أسبانيا مع السفن التى وصلت الى هرمز وذلك كي يعقد مع الشاه عباس اتفاقا بشأن الحرب ضد الدولة العثمانية واحتكار تجارة الحرير الايرانى لرعايا البرتغال . وكان لدى قائد

(١) مجموعة مراسلات الشاه عباس في المكتبة الوطنية بنابولى ،
ورحلة بيترو دلا فالليه ، ج ٤ ص ٤١٩ - ٤٢٠ .

الاسطول واسمه روى فرييرا دى اندرادا تعليمات بأن يوصل القس الى ايران ثم ينتظر نتيجة اتصالاته . فاذا وافق الشاه عباس على عقد اتفاقية سياسية وتجارية تتفق والمصالح الاسبانية ذهب القائد الاسباني لتنفيذ مهمته في البحر الاحمر ، واذا امتنع الشاه عباس فعليه أن يستعيد مبناء جمبرون وجزر البحرين وقشم بالقوة بمساعدة القوات البحرية البرتغالية في الهند وهرمز ويقضى على أهل ميناء نذيلو الذين يكون الحقد للبرتغاليين والذين اضطروهم لترك الجزيرة العربية والالتجاء الى الاراضى الايرانية . كما كان قد أصدر اليه الاوامر أن يبني قلعة في جزيرة قشم يضع فيها مجموعة من الجنود البرتغاليين بحيث لا يتمكن الايرانيون من الاستيلاء على الجزيرة بعد هذا بسهولة ويحرموا جزيرة من مياه الشرب .

استطاع روى فرييرا دى اندرادا أن يستولى على ثلاث سفن انجليزية مسلحة تسليحا كاملا ومحملة بالبضائع في خليج عدن . ولما كانت إحدى سفنه قد غرقت في الطريق فقد وصل الى ميناء هرمز مع سبع سفن مسلحة ولكن القس ردمتودلاكروز كان قد توفي على سواحل غينيا قبل وصوله الى ايران ، وكان المسئولون في شركة الهند الشرقية الانجليزية قد اذاعوا خبر موته في اصفهان قبل وصول السفن الاسبانية الى ميناء هرمز ولا يعرف كيف علموا بخبر وفاته .

بعد وصول السنن الاسبانية الى هرمز كتب حاكم الجزيرة وبعض موظفيها البرتغاليين رسائل الى القس جان تاديه رئيس القسس الكرمليين في اصفهان وأرسلوها الى اصفهان مع مبعوث خاص حاملا للرسائل التي كان من المفروض أن يسلمها القس المتوفى الى الشاه عباس ودون جارسيا سفير أسبانيا ورجوه أن يبدي رأيه في الاجراء الذي يجب عليهم أن يسلكوه أما حريا وأما سلما لأن لديه اطلاعا كافيا عن الاوضاع في ايران . ولما كان البرتغاليون آنذاك قد حرضوا بعض الاعراب وأثاروهم ضد ايران كما أخذوا في القتل والنهب في بعض موانئ جنوب ايران ، لهذا لم يكن لديهم أمل في استقرار السلام ، كما أن روى فرييرا قائد الاسطول الاسباني الذى

كان يعرف بتهوره واقدامه كان يفضل الحرب على السلام ، ولكن حاكم جزيرة هرمز وبعض المسئولين بها كانوا يرون أن الحرب تضر التجارة ولهذا يجب الحفاظ على السلم وتجنب الحرب .

قبل وصول خبر مجيء السفن الاسبانية والرسائل المذكورة الى القس جان تاديه كان البلاط الايراني قد استطاع الوقوف على مقدار القسوات الاسبانية في هرمز وعدد الجنود الذين وصلوا مع السفن عن طريق حاكم جببرون وأرسل الوزراء الايرانيون هذه الاخبار مباشرة الى الشاه عباس الذي كان في فرح اباد .

وكتب القس جان تاديه في رده على الرسائل التي وصلته من هرمز أنه يعتقد - كما ذكر هذا مرارا - أن الشاه عباس لن يرد ماسبق أن استولى عليه من البرتغاليين ، كما أنه لا يوافق على احتكار التجارة ، بل أنه طلب منهم أن يعفوه من الاجابة على مثل هذه الموضوعات وأن ينفذوا أوامر ملك اسبانيا على النحو الذي يروونه ضروريا ، ولكن بعد فترة عاد المسئولون البرتغاليون للتابعون لاسبانيا في هرمز بالكتابة اليه ورجوه أن يذهب من اصفهان الى مازندران ويتفاوض مع الشاه عباس في شأن العلاقات بين الدولتين ، فاضطر القس الى مغادرة اصفهان متوجها الى مازندران ، للقاء للشاه ، ولكنه علم - أثناء الطريق - أن الشاه ذهب الى خراسان ، فعاد الى اصفهان .

معركة بين السفن الانجليزية والبرتغالية في جاسك :

في الثاني من صفر ١٠٣٠ هـ (٢٧ سبتمبر ١٦٢٠ م) وصلت أربع سفن انجليزية وسفينتان برتغاليتان - كانتا قد وقعتا في أسر الانجليز - الى ميناء جاسك ، ولكن روى فريبرا قائد الاسطول الاسباني البرتغالي كان قد علم بابحارها فتوجه على رأس أربع سفن مسلحة من هرمز الى جاسك والقى - اسيه هناك ، فلما وصلت السفن الانجليزية الى ميناء جاسك بدأت في القتال مع السفن الاسبانية واستمرت المعركة بضعة أيام انتهت بهزيمة السفن الاسبانية ، وقد بدأ الانجليز بانزال ماكانت تحمله إحدى السفن البرتغالية الاسيرة من بضائع ميناء جاسك ثم أضرموا فيها النيران ثم أخذوا في اطلاق المدافع على السفن البرتغالية حتى بلغ مجموع ما أطلقوه

عليها ثمانية الاف طلقة ، كما ساعدتهم الرياح التي أبعدت السفن البرتغالية عن الساحل مما سهل عليهم الاقتراب منه في اليوم الاول للمعركة ويفرغوا مامعهم من بضائع على الشاطئ ومنها خمسين صرة من المال أبعدها عن خطر العدو والقتال . ومع ما أظهره روى فرييرا من شجاعة في الحرب وتمكنه من تحرير إحدى السفن البرتغالية التي كانت في أسر الانجليز الا أنه لم يتمكن من كسب المعركة واضطر للهرب الى هرمز بعد أن تحمل خسائر فادحة . وحينما وجدت السفن الانجليزية الميدان خاليا من الاعداء حملت باطمئنان ما كانت قد اشتترته من حرير كثير على السفن ثم توجهت الى الهند .

هجوم البرتغاليين على جزيرة قشم :

حينما هزم فرييرا من الاسطول الانجليزى صمم على احتلال جزيرة قشم حتى ينفذ جزيرة هرمز من قلة الماء ، ولهذا فقد احتل في رجب ١٠٣٠ هـ - جزءا من هذه الجزيرة القريب من هرمز وأقام فيه قلعة ضعيفة غير محكمة ، وعندما علم الشاه عباس بهذا الامر أرسل أحد القسس من جماعة سان اغوسطين البرتغالية المقيمين في اصفهان اسمه القس نيكولاس بغيره كسفير الى هرمز (وذلك في ١١ شعبان ١٠٣٠ هـ) وأبلغ حاكم تلك الجزيرة أنه اذا كان بين البرتغاليين والانجليز حساب فليسووه في عرض البحر ، لان الاعتداء على حدود ايران يتنافى مع الصداقة بينها وبين الدولتين . واذا كان لديهم عتاب مع ايران فليس مستحبا أن يدخلوا في حرب دون مقدمات لانهم لو اشتكوا للشاه عباس فانه - كما يعلمون - لن يتوان عن أرضائهم ومع أنهم قد بدأوا هذه الحرب براحة بال ، لكن عليهم أن يعلموا أنه قادر على استرداد جزيرة هرمز ودفعهم لنجم على عملهم .

كان القسس البرتغاليون من جماعة سان اغوسطين المقيمين في اصفهان يرغبون - من أعماق قلوبهم - أن تقوم الحرب بين ايران وأسبانيا ، ولهذا فقد أوصوا القس نيكولاس كي يحرض المسئولين في هرمز على الحرب غافلين أن هذا الامر سيؤدى الى ضررهم . وفي نفس الوقت قضي البرتغاليين على « طالب بك » أحد رجال ايران وهو في الطريق بينها كان موفدا كسفير الى التجارية والسياسية ، كما أخذ روى مزييرا في قتل الايرانيين والاغارة على ملك للدكن بالهند ، معتقدين أن سفارته ستؤدى الى الاضرار بمصالحهم المدن والقرى الساحلية واحراقها أو نهبها كما أسر التجار الايرانيين للذين

كانوا يقومون بالتجارة في الخليج واحتفظ بهم كرهائن وكان يعتقد أنه سيرهب الشاه عباس بمثل هذه الاعمال .

اتحاد ايران وانجلترا ضد الاسبان والبرتغاليين في جزيرة هرمز

في أواخر سنة ١٠٢٩ هـ اقترح الشاه عباس على شركة الهند الشرقية الانجليزية أن تتحد معه للقضاء على القوات الاسبانية والبرتغالية في الخليج ، واستمرت مفاوضاته مع مندوبي الشركة مايقرب من عام .

ومع أن المسئولين في شركة الهند الشرقية كان قد أصابهم ضرر بالغ مع البرتغاليين في التجارة الا أنهم كانوا يرون صعوبة قبول اقتراح الشاه عباس لأن الحكومة الانجليزية في ذلك الوقت كانت قد أتمت علاقات ودية مع ملك اسبانيا من ناحية ، كما أن هجوم السفن التجارية للشركة على القلاع والاستحكامات العسكرية البرتغالية لم يكن أسرا سهلا من الناحية العسكرية . ولكنهم في النهاية لم يجدوا مفرًا من قبول اقتراح الشاه عباس، لأن أمام قلى خان أمير أمراء فارس كان قد أخطر مندوبي الشركة أنهم ان لم يساعدوا شاه ايران في حربه ضد البرتغاليين فانهم سيفقدون كل مالهم من حرير في ايران ، كما ستنتهي كل الامتيازات التي كانوا قد حصلوا عليها، أما اذا اتحدوا مع ايران فانها ستدفع لهم خسائرهم في الحرب ، كما ستهدى لهم كل ماسيحتاجونه من أسلحة ومؤونة وغيرها أثناء الحرب .

في أول محرم ١٠٣١ هـ (١٦ نوفمبر ١٦٢١ م) عقد مدير شركة الهند الشرقية اجتماعا برئاسة توماس روستيل (١) في سولي (٢) على مقربة من ميناء سورت على ساحل الهند وقرروا أن تتوجه خمس سفن وأربعة زوارق كبيرة بدون شراع الى الخليج للتصدي للسفن البرتغالية واذا التقت بسفن روى فريبرا الحربية فعليها أن تدخل الحرب ضدها .

في نفس الوقت أرسل الشاه عباس أمرا الى أمام قلى خان أمير أمراء فارس لكي يحارب البرتغاليين ، ولكي يجد الذريعة لهذه الحرب ، فقد أوامز الى قنبر بك خان لار أن يدعى ملكية جزيرة هرمز وأن يعد الجزيرة تابعة لخارج لاركما كانت قبل حملة البوكيرك عليها ورد الحاكم البرتغالي لجزيرة هرمز ردا شديدا على هذا الادعاء وكان هذا ذريعة للحرب .

(١) Thomas Rostell (٢) Soualy

توجه أمام قلى خان بجيش كبير من شيراز الى لار وقام في البداية بارسال أحد قواده الشجعان واسمه شاهقلى بك وثلاثة الاف من الجنود الايرانيين والعرب للاستيلاء على جزيرة قشم ، كما منع وصول وخروج السفن والقوارب من هرمز الى السواحل الايرانية والعكس ، ثم ذهب مع قائده أمام قلى بك من لار الى جمبرون وحين بلغه أن السفن الانجليزية وصلت من الهند الى ميناء جاسك أرسل مبعوثا الى ادوارد موفوكس (٣) مندوب انجلترا المقيم في ايران والذي كان آنذاك موجودا في ميناب وأخبره أنه سيذهب اليه لعقد اتفاقية اتحاد بينهما .

في يوم ١١ صفر ١٠٣١ هـ (٢٦ ديسمبر ١٦٢١ م) اصدر ادوارد مونوكس أمرا للسفن الانجليزية بأن تتوجه من ميناء جاسك الى ميناء كوهستك الذى يقع جنوب ميناب . وفي اليوم التالي ذهب بنفسه مع جماعة من مندوبى انجلترا الى كوهستك لكي يتحدث مع قواد السفن عن المساعدات التى ستقدمها سفن الشركة للجيش الايراني .

ولم يكن قواد سفن شركة الهند الشرقية يميلون أساسا للحرب ، ولكن مندوب الشركة المقيم في ايران أرضاهم وبعد المفاوضات التى أجريت بينهم في السفينة جوناس تمت الموافقة على مايلي :

١ - اذا انتصرت الحكومة الايرانية على البرتغاليين في هرمز بمساعدة السفن الانجليزية فان غنائم الحرب يجب أن تقسم بالتساوى بين الطرفين .

٢ - يجب أن تسلم قلعة هرمز بكل مدافعها وذخائرها الحربية الى الى الانجليز واذا شاءت الحكومة الايرانية فيمكنها اقامة قلعة أخرى على نفقتها .

٣ - يجب أن تقسم إيرادات (جمرك الجزيرة) بعد هذا بالتساوى بين الحكومة الايرانية وشركة الهند الشرقية الانجليزية . كما تعفى البضائع الانجليزية بعد ذلك من الرسوم الجركية وكل الرسوم الاخرى .

Edword monox (٣)

(٤) اسماء السفن وقوادها هم : السفينة لندن والسفينة بلا شراع Shilling تحت قيادة الكابتن Blithe والسفن Lion, Dolphin, Whale, Jousas والسفن Richard, Robert, Rose تحت قيادة الكابتن Weddel

٤ - بعد الحرب يسلم الاسرى المسيحيون لانجلترا والمسلمون لايران .
٥ - تتحمل الحكومة الايرانية نصف نفقات السفن والمؤن وأجور العاملين عليها وخسائر الحرب ، كما أن عليها أن تعد البارود والمواد الحربية اللازمة للسفن .

وقد وصل أمام قلى خان يوم ٢٤ صفر ١٠٣١ هـ (٨ يناير ١٦٢٢ م) الى ميناء ميناب ومعه قائده أمام قلى بك وبدأ على الفور في المحادثات مع مندوب الشركة لعقد المعاهدة الحربية . وقد ووفق على المادة الاولى دون تغيير . أما فيما يتعلق بالمادة الثانية فاتفق على أن يستولى الطرفان على قلعة جزيرة هرمز الى أن يتلقى أمام قلى خان تعليمات من الشاه عباس . أما المادة الثالثة فقد أتفقا على أن يعفى من الجمارك كل ما يصل باسم الشاه عباس وخان فارس . أما البضائع التى تصل للتجار فعلى الشركة أن تدفع الرسوم الجبركية لايران نظرا لان الشركة تحقق منورائها أرباحا طائلة .

كما قبل أمام قلى خان المادة الرابعة بشرط أن يتعهد الحليف الانجليزى بتسليم روى غريبى قائد السفن البرتغالية وسيمون دى ميلو (١) حاكم جزيرة هرمز اذا طلبت الحكومة الايرانية هذا ، كما اتفق الطرفان على ألا يجبرا أحدا من الاسرى أو المسجونين على تغيير دينه أو مذهبه ، وكذلك اتفقا على تحمل نفقات اعداد البارود والمواد الحربية الاخرى بالتساوى بينهما .

الاستيلاء على القلعة البرتغالية في قشم

بعد عقد المعاهدة توجه أمام قلى خان الى ميناء جمبرون وأقلعت
السفن الانجليزية في السادس من ربيع الاول (١٩ يناير) وعليها « قائده،
امام قلى بك متوجهة الى هرمز وصلت في التاسع من نفس الشهر الى الجزيرة .

كان الاسطول البرتغالي في جزيرة هرمز يتكون من خمس سفن حربية
وسفینتين صغرتين وكثير من الزوارق الشراعية الصغيرة والكبيرة . ومن بين
هذه السفن سفینتان كبيرتان كل منهما مجهزة بثلاثين مدفعا وثلاثمائة مقاتل،
كانت قد وصلت قبل هذا ببعض الوقت من مستعمرة جوا في الهند بقيادة
سيمون دى ميلو وذلك لمساعدة روى فرييرا وكان سيمون دى ميلو هذا في
ذاك الوقت يتولى حكم جزيرة هرمز بأمر من نائب الملك في الهند بعد وفاة
حاكمها فرانثيسكو دى صوصا .

وكان قادة السفن الانجليزية يعتقدون أن الحرب ستنتشب بينهم وبين
القوات البحرية في جزيرة هرمز ولكن على العكس من هذا ، فقد تجنب
البرتغاليون الحرب ، ولما انقضت عدة أيام على هذا الوضع توجهت السفن
الانجليزية الى جزيرة قشم .

كانت قلعة قشم في هذه الاثناء قد حوصرت بواسطة شاهقلى بك
وجنوده من ناحية البر ولم يكن قد بقى أمام المدافعين عن الجزيرة وهم
نحو مائتى برتغالي ومائتين وخمسين عربيا سوى الفرار عن طريق البحر،
وكان روى فرييرا - خلافا لرأيه - قد أنزل بعض المدافع من سفنه الى القلعة
وأخذ في الدفاع عنها . كما أرسل شخصا الى « أمام قلى خان ، وطلب الصلح
وأبدى استعداداه لتحمل جميع نفقات الحرب التى كانت ايران قد أنفقتها حتى
ذلك الوقت . ولكن خان شيراز لم يستطع قبول عرضه لانه لم تكن لديه
تعليمات من الشاه عباس .

وقد وصلت السفن الانجليزية تحت جنح الظلام الى جوار أسوار
القلعة على ساحل قشم ، واستطاعت أن تنزل بعض مدفيعتها الى البر
دون أن تصاب بأية اضرار من العدو ، ثم أخذت تطلق قنابلها على القلعة

البرتغالبة لمدة ثلاثة أيام • وبمجرد أن انهار جزء من سور القلعة وضاق
الحصار على البرتغاليين من البر والبحر أضطر روى فرييرا الى التسليم
وأبدى استعدادا لتترك القلعة للأغواد الايرانيين والانجليز بشرط ألا يتعرضوا
للبرتغاليين ويسمحوا لهم بالذهاب الى جزيرة هرمز حاملين أسلحتهم
وأموالهم • ويؤمنوا الجنود الايرانيين الذين انضموا للبرتغاليين أثناء الحرب •

وقد قبلت هذه الشروط ولكنها لم تنفذ تماما لان الجنود الايرانيين الذين
أسروا بعد الاستيلاء على القلعة أعدموا بتهمة الخيانة والانضمام للاعداء •
كما أخذت أموال البرتغاليين وأسلحتهم قبل نقلهم الى جزيرة هرمز •

وقد حمل الانجليز روى فرييرا وبعض قادة جيشه الى سفنهم وتحفظوا
عليهم ، وعاملوهم باحترام وحب • وكان هدفهم ان يرسلوهم الى ميناء
جوا أو أى مكان آخر بعيد عن هرمز • أما العرب الذين كانوا يتعاونون مع
البرتغاليين في جزيرة قشم وكان رئيسهم يلقب بالامير زين الدين محمد ،
فقد قام صهره حاكم مغلستان بقتلهم بناء على أوامر أمام قلى بك قائد
الجيش الايراني •

وقد قتل في حرب قشم ثلاثة من الجنود الانجليز وجرح شخصان ، وقد
كان من بين القتلى البحار والمكتشف الانجليزى الشهير ويليام بافين(١)
المعروف باكتشافاته القطبية •

بعد الاستيلاء على قلعة قشم تولت جماعة من الجيش الايراني مع
أربعة من الانجليز الحفاظ على القلعة وتوجهت السفن الانجليزية من قشم
الى ميناء جمبرون لكى تستكمل تجهيزها وتستعد للهجوم على جزيرة هرمز ،
كما أرسلو روى فرييرا ومرافقيه الى ميناء سورت مركز تجارة شركة الهند
الشرقية الانجليزية فى الهند •

William Baffin(١)

وصف جزيرة هرمز في ذلك العصر :

كتب مختلف السياح في كتبهم الكثير عن وضع جزيرة هرمز الطبيعي وبناء المدينة وقلعتها وطريقة حياة البرتغاليين وبقيّة سكان تلك الجزيرة . وأغلب ماكتبوه متشابه لا يختلف كثيرا . ونكتفي هنا بنقل خلاصة ماكتبه دون جارسيا دي سيلفا فيجورا سفير إسبانيا اذ يقول :

« جزيرة هرمز على شكل مثلث تقريبا ويسمى بالعرب جرون وأطول ضلعها ناحية الشرق والشمال الشرقي ويمتد من دير نوتردام دي لاسبرانس(١) حتى الرأس المقام عليها قلعة جزيرة هرمز . وهي أقرب نقطة للساحل الإيراني والذليلع الآخر وهو أقصر يمتد من الدير أى من الجنوب الشرقي الى الجنوب الغربي عند رأس كارو ثم يمتد من هناك ناحية الغرب والشمال الغربي ويمثل قاعدة المثلث وأقصر أضلع الجزيرة هو الممتد من رأس كارو الى الفلعة والذي يطل على مغلستان أى ساحل ايران في الجانب الشمالى الغربى للجزيرة ، ويبعد عن الساحل بنحو فرسخ ونصف (٩ كيلو مترات) ومساحة الجزيرة كلها نحو ١٤٤ كيلو مترا مربعا .

ويوجد في جزيرة هرمز جبال بيضاء وأخرى حمراء يستخرجون منها الملح بكثرة وأرض الجزيرة غير صالحة للزراعة ولكن يرى في بعض أنحائها بضع سحيرات ولا يوجد بها من الاشجار المثمرة الا بعض النخيل .

وعلى السفوح الجنوبية والشرقية للجبال بعض مجارى للانهار ولكن ماءها من الملوحة بحيث انها عندما تجف في الصيف تترك كتلا من الملح ، وبغير هذه الانهار فان الماء نادر في الجزيرة ، كما أن الآبار لاتصلح للشرب لملوحتها ، ولكن كلما ابتعد البئر عن الجبال كلما قلت ملوخته .

وقد أقيم دير سانت لوتشيا(٢) بين دير نوتردام دي لاسبرانس ومدينة هرمز ويحيط به بعض المنازل التي يلجأ اليها بعض سكان الجزيرة عندما يشتد الحر بها لان هذه المنازل وكل المنازل القريبة من الساحل مصنوعة من القصب ومغطاة بسعف النخيل .

ويوجد منخفض واسع بين المدينة وسلسلة الجبال يبتدىء من دير سانت لوتشيا وقد حفروا في هذا المنخفض آبارا للياه تتجمع فيها مياه

Notre-Dame de L' Esperance

(١)

Santa Lucia

(٢)

الامطار ، ذم يفلقون فوهاتها بعد ذلك • أما باقى هذا المنخفض
نتشغله المفابر التى عادة ماتخرج اليها النساء بعد العصر للزيارة
وتوزيع الصدقات والنزهة أيضا •

ويتمخلف الجبال فى الجزء الجنوبى الغربى والجنوبى للجزيرة قسم
يسمى توران ، باغ (حديقة توران) وهو أصغر من الجزء الآخر للجزيرة
ولكنه يمتاز عنه بأنه كانت تشغله عمارات ملوك هرمز القدماء لوجود بئرين
للمياه العذبة به • ولكن هذه العمارات كثيرة ولكن لوجود بعض المنازل
الصغيرة المصنوعة من البوص وسعف النخيل حولها ، فقد تحول هذا
الجزء من الجزيرة الى قرية صغيرة •

أما فى ناحية رأس كارو فقد أقيمت بعض المنازل كما أقام قسس فرقة
سان أغوستين بعض المنازل البسيطة وحوضا جميلا للسباحة وبعض
خزانات الماء لتخزين مياه الامطار •

وتبعد قلعة هرمز من آثار البوكيرك ، ومع أنها فى عهده لم تكن تزيد
عن برجين فقط ، الا أن الحكام البرتغاليين من بعده أكملوا بناءها وأقاموا
له تمثالا هناك •

وتبتدى مدينة هرمز بالميدان الواقع فى الفضاء المواجه للقلعة • وفى
الجزء الاول بعض المنازل العالية التى يمتلكها أثرياء البرتغاليين • ويقع
فى هذا الحى كنيسة المسيحيين ومسجد المسلمين ، ومع أن المسجد خرب
الا أنه لا يخلو من مظاهر النظمة • وفى هذا الجزء من المدينة يوجد برج اسمه
القرآن أعلى من كل عمائر المدينة •

ومنذ مدة قام بعض المسئولين البرتغاليين المتطرسين بهدم جزء من
مسجد المسلمين المجاور للقلعة غير مقدرين أن هذا العمل سيترك حقدًا
وضغينة فى قلوب الناس بل أنه سوف يثير عداوة الايرانيين المتعصبين بل أن مثل
هذه الاعمال كانت سبب عداوة الايرانيين لهم حتى أنهم استولوا على كل
ممتلكات البرتغاليين على السواحل الايرانية •

وأغلب منازل هرمز تتكون من ثلاثة أو أربعة أدوار والحوارى ضيقة حتى
أن سير شخصين متجاورين يكون بصعوبة • وهم يبنون المنازل عالية
والحوارى ضيقة حتى يكثر الظل ولا تؤذى الشمس السائرين فى هذه الطرقات •

ولكثير من هذه المنازل ملاقف للهواء ولهذا السبب تبجو المنازل أعلى من المعتاد ، وبعض منازل المدينة مبنية من الحجر والآجر ، وبعضها الآخر مبنى من البوص وسعف النخيل وتوجد بعض الدكاكين المبنية بالآجر وبعضها تحت خيام وينام أغلب الناس فوق السطوح (١) ، ويرتدى بعض السكان جلبابا من القطن وبعضهم يصيئون شبه عرايا .

ويتراوح عدد منازل هرمز بين ألفين وخمسمائة وثلاثة آلاف منزل ، ولا يحيط بالكثير منها جدران أو أفنية (٢) . ويتحدث الناس سواء منهم المسلم أو غير المسلم باللغة الفارسية ويقيم في هرمز عدد كبير من الهنود جاء أغلبهم من ولايات السند وبمباي وعدد سكان المدينة نحو أربعين ألفا يعمل أغلبهم في التجارة بين إيران والبلاد العربية كما توجد نحو مائة أسرة يهودية أغلبهم فقراء .

ولايتجاوز عدد البرتغاليين المقيمين في هرمز مائتي أسرة غير الجنود الذين تزوجوا هناك ويتاجرون في البضائع الهندية التي يبيعونها في إيران والبصرة . ولما كان حاكم هرمز البرتغالي يريد أن يحتكر كل تجارة هرمز لنفسه لهذا فإن التجار البرتغاليين لا يحصلون على أرباح كثيرة . ويتمتع الحاكم بنفوذ وصلاحيات غير محدودة ، وكان يعيش كالمملك . ويوجد كثير من العبيد والجاري في منازل هرمز ، .

احتلال جزيرة هرمز

بواسطة القوات البرية والبحرية لإيران وإنجلترا

في يوم ٢٧ ربيع الأول ١٠٣١ هـ (٩ فبراير ١٦٢٢ م) غادرت السفن الانجليزية ميناء جمبرون يرافقتها مائتا زورق إيراني وألقت مراسيها أمام جزيرة هرمز وكان القادة الإيرانيون الذين كلفهم أمام قلى خازبالاستيلاء على جزيرة هرمز هم على قلى بك ، وبولاد بك وشاة قلى بك وشارق على محمد

(١) ينام أغلب سكان طهران ومدن المناطق الحارة في إيران وكذلك العراق فوق الأسطح في الصيف فرارا من الحرارة داخل المنازل (المترجم) .
(٢) كانت أغلب المنازل في إيران والعراق عبارة عن دور أو دورين تحيط بها حديقة وفناء ولكن بدأت تضاف العمارات فيسكنها المضطرون خاصة بعد ادخال اجهزة التكييف التي تغنى عن النوم في الهواء الطلق .

سلطان وعلى بك • وكان القائد الاخير هو حاكم ميناء جمبرون كما عسكر عدد كبير من القوادح جنودهم في ميناء جمبرون •

في يوم ٢٨ ربيع الاول انزلت سفينتان انجليزيتان ثلاثة الاف جندي ايراني بقيادة أمام قلى خان على ساحل جزيرة هرمز وأخذوا على الفور في بناء استحكامات لمواقعهم ، ثم استولوا بسهولة على المدينة وأخذوا في ضرب قلعة هرمز بالمخفعية •

أخذ البرتغاليون الذين تركوا المدينة واحتموا بالقلعة في الدفاع عن أنفسهم حتى أنهم خرجوا مرة من القلعة وهجموا على القوات الايرانية فقتلوا منها نحو ثلثمائة شخص ولكن المخفعية الايرانية استطاعت في هذه الاثناء أن تهدم أحد أبراج القلعة واستمر القتال بين الجانبين •

وفي يوم ١٢ ربيع الثاني (٢٤ فبراير) هجمت السفن البريطانية على سفن روى فريبيرا المكونة من ٥ سفن كبيرة وعشرين سفينة شراعية ، ولأن السفن البرتغالية لم تتحرك ، فقد أضرموا النار في سفينة القيادة المسماة سان بدرو (١) وكانت حمولتها ١٥٩٠ طنا ، وقد اضطر البرتغاليون الى قطع حبال السفينة وتركها للرياح حتى لا تسرى منها النار الى بقية سفنهم • وقد وقعت هذه السفينة في أيدي مجموعة من الجنود الايرانيين على مقربة من جزيرة لارك واستولوا على حمولتها التي كانت من المدافع والأسلحة والمهمات الحربية •

وفي يوم ٤ جماد (١٧ مارس) تمكن الجنود الايرانيون من هدم جزء كبير من القلعة بالبارود ثم هجموا من هناك على المحاصرين ، ولكن البرتغاليين دافعوا بجرولة ودارت معركة شديدة وبعد ٩ ساعات من القتال الدموي أنهزم البرتغاليون ولجأوا الى داخل القلعة ، وفي نفس الوقت أشعل الجنود الايرانيون النار في مدينة هرمز بناء على أوامر أمام قلى خان •

بعد تقهقر البرتغاليين هجمت مجموعة من الجنود الايرانيين على أبراج القلعة وسورها لاحتلالها ولكنهم لم يتمكنوا من تحقيق هدفهم بسبب المقاومة الشديدة للبرتغاليين بل أن جماعة منهم قتلت (٢) • وحينما رأى شاه قلى

San Pedro

(١)

(٢) يقدر السير توماس هيربرت الذي جاء بعد هذه المعركة بأربع سنوات الى ايران عدد القتلى الايرانيين بالف قتيل وقد يكون مبالغا •

بك القائد الإيراني هذا الوضع اندفع مع نحو مائتين من خيرة جنوده وسط نيران المدافع والبنادق ووصلوا الى أحد الابراج واستولوا عليها ولكنه لم يستطع الاحتفاظ به أكثر من نصف ساعة لقلته من كانوا معه واضطر للتهقر .

وفي العاشر من جمادى الاول تمكنت السفن الانجليزية من اغراق سفينتين أخريين من السفن البرتغالية . واضطر البرتغاليون المحاصرون بعد بضعة أيام الى اللجوء الى الصلح بعد أن نفذت مؤونتهم وتغشت بينهم بعض الامراض . وفي الخامس عشر من جمادى الاولى أرسلوا شخصين الى معسكر ايران لطلب الصلح أبدى استعداد البرتغاليين لدفع مائتي ألف تومان نقدا . ومائة وأربعين ألف أكو برتغالي الى الحكومة الإيرانية اذا فك الجيش الإيراني الحصار عن القلعة ، وكان غرضهم الخفي من طلب الصلح هو كسب الوقت لعل المساعدات تصلهم من الهند . وقد أدرك أمام قلى خان هدفهم ولم يقبل عرضهم ومقترحاتهم وقال أنهم اذا دفعوا خمسمائة ألف تومان نقدا ومائتي ألف تومان كخراج سنوى فانه سيخرج جنوده من الجزيرة . فلما يئس البرتغاليون من الإيرانيين التجأوا الى الانجليز على أساس أنهم مسيحيون وأن الدولتين على دين واحد ، وأن ملكى البلدين تربطهما الصداقة والعلاقات الودية . وأبدوا استعدادهم لتعويض شركة الهند الشرقية الانجليزية عن كل الخسائر التي كانت قد لحقت بها قبل هذا ، ولكن الانجليز لم يقبلوا الصلح أما خوفا من الإيرانيين أو للحد القديم بين الانجليز والبرتغاليين .

وفي ١٨ جمادى الاولى استطاع الانجليز نسف جزء كبير آخر من حائط القلعة بالبارود وحدثت فتحة كبيرة تؤدى الى داخلها . ومع هذا استطاع البرتغاليون الصمود رغم ماكانوا يعانونه من قلة الماء والطعام وانتشار الامراض المختلفة بينهم ، ومنعوا دخول الإيرانيين الى القلعة .

وفي الثانى من جمادى الثانية (١٤ ابريل) ظهرت قرب هرمز سفينة عليها جماعة من العرب كانت قادمة لمساعدة البرتغاليين ، وحين أحست بالخطر أخذت فى العودة ولكن القوات الإيرانية تمكنت من أسرها وظهروا أعناق ثمانين عربيا كانوا عليها . .

بعد ثلاثة أيام أخرى تمكنت القوات الإيرانية والانجليزية من تحطيم جزء آخر من سور القلعة ، وفي اليوم القالى تمكنت مجموعة من الجنود

الاييرانيين من الاستيلاء على أحد الادراج . وفي هذه الاثناء جاء اثنان من المحاصرين في القلعة وأطلعا القواد الايرانيين على ضعف العدو وصعوبة وضع الجنود البرتغاليين بسبب قلة الماء والمؤن وكثرة القتلى والمرضى فزاد هذا من جراءة الايرانيين ودفعهم في السابح من ذلك الشهر الى الاستيلاء على السور الخارجى للقلعة ودفع عدوهم الى داخل مبنى القلعة . وفي النهاية وفي التاسع من الشهر لجأ البرتغاليون الى القادة الانجليز وأبدوا استعدادهم للتسليم بشرط الحفاظ على ارواحهم وأن تحملهم جميعا السفن البريطانية الى مسقط أو الهند ، وقبل القائد الانجليزى هذه الشروط فسلم البرتغاليون القلعة في اليوم الحادى عشر من جمادى الثانى (٢٣ ابريل) وأنزل العلم البرتغالى الى الابد بعد أن ظل يرغرف على قلعة البوكيرك نحو قرن من الزمن .

كان عدد الجنود الايرانيين في حرب جزيرة هرمز نحو ٤٠ او ٥٠ ألفا قتل منهم أو جرح أكثر من ألف شخص ، بينما لم يتجاوز عدد القتلى من الانجليز عشرين شخصا .

بعد تسليم القلعة حملت السفن الانجليزية البرتغاليين الذين كانوا في الجزيرة مع نساءهم وأطفالهم وبلغ عددهم نحو ثلاثة الاف شخص الى مسقط والموانى الساحلية لعمان ، ولكن ماتت جماعة منهم نتيجة لامراض مختلفة . كما سلم المدافعون المسلمون عن القلعة من عرب وايرانيين الى القائد الايرانى ، وتحفظ الجانبان الايرانى والانجليزى على الغنائم من أسلحة ومؤن واموال نقدية كانت تبلغ نحو مليونى أكو اسباني ، بينما أخذ الجنود الايرانيون والانجليز في نهب المدينة (١) ، وقد وقعت أكثر الغنائم في أيدي الايرانيين ، كما اضطر الجنود الانجليز لبيع نصيبهم بثمن بخس لعدم وجود من يشتريه منهم ، وبلغ ماحصلوا عليه نحو عشرين ألف جنيه استرليني .

استولى أمام قلى خان على قلعة هرمز خلافا للمعاهدة التى كان قد وقعها مع مندوبى شركة الهند الشرقية وترك لهم نصف مدينة هرمز فقط (٢) .

(١) جاء في تاريخ القسس الكرملين أن الايرانيين قتلوا نحو ستين أو سبعين برتغاليا وقيدوا من بقى في سلاسل طافوا بهم أنحاء ايران ، ج ١ ص ٢١٢ .

(٢) كتب بيترو دلا غاليه أن أمام قلى خان أعد الاتفاقية باللغة

وكان عدد المدافع في القلعة ٥٠ مدفعاً كبيراً من الدرونز على عجل وأربعة مدافع برونزية صغيرة وخمسة عشر قاذفا وبعض المجانيق ونحو مائة وخمسين عربة مدفع صغيرة وكبيرة يقال أنها قسمت بالتساوى بين الجانبين . وقد حمل الإيرانيين نصيبهم الى ميناء جبرون ولار وشيراز بل وحتى الى اصفهان وبغداد ومن بينها خمسين عربة مدفع كبير وصغير كانت موجودة في ميدان نقش جهان حتى عصر الشاه سليمان وآخر العصر الصفوي (١) .

وكان بن بين الغنائم الإيرانية ناقوسان حصلوا عليهما من كنيسة هرمز ، وكانت نساء البرتغاليين في هرمز قد تبرعن يوماً الى الكنيسة سنة ١٦٠٩ م (١٠١٧ هـ) ، وكان منقوشا عليهما عبارة « أدعوا لنا نحن النساء رحم الله أعقابكم » . وبجوارها نقشوا كلمة المسيح بخط أكبر . كما كان بين الغنائم ساعة كبيرة حملوها الى اصفهان ونصبوها على باب سوق القيصرية (٢) .

وقد أسر ملك هرمز وكان اسمه محمود شاه مع وزيره ومستوفيه ورئيس نور الدين قاضي الجزيرة فارسلهم امام قلى خان الى شيراز وعند بداية الحصار عرض ملك هرمز على البرتغاليين أن يترك لهم كل أمواله بشرط أن ينقلوه الى مسقط أو مستنمرتهم في جوا (٣) ، كما عرض الرئيس نور الدين نفس الشرط مقابل دفع نصف مليون أكورولكن البرتغاليين لم

الفارسية فقط ، وطبقا لما كان يريد وعندما استولى على القلعة اعترض مندوبو شركة الهند الشرقية بان هذا خلاف للاتفاقية فذكر الخان أنه طبقا للاتفاقية ليس لهم الا نصف المدينة ولما ترجموا الاتفاقية بواسطة مترجم اتضح لهم صحتها ، ج ٦ ص ٢٠٤ .

(١) انتهت الدولة الصفوية سنة ١١٤٨ هـ (المترجم) .
(٢) سوق القيصرية لازالت مستعملة لان في العراق وغيرها وتطلق على سوق القماش وربما كانت مشتقة من القصار أى الخياط (المترجم) .
(٣) كتب بيترو دلا فاله « أن ملك هرمز عند بداية الحرب كان يريد أن يرسل كل النساء والصناع والتجار وأمثالهم مع كل الاموال والثروات والسفن الى مسقط أو أى مكان بعيد حتى يكونوا في امان من حملة الانجليز والايرانيين ، وبذلك يقتل من عدد سكان القلعة ويقتل من استهلاك الماء والغذية كما يؤدى هذا الى يأس الاعداء الذين يقاتلون على أساس الـ في الغنائم والاموال ولكن القادة البرتغاليين لم يوافقوا على رأيه هذا . ج ٦ ص ٣٤ ، ٣٥ .

يقبلوا ، وبعد ان سلم البرتغاليون القلعة لم يحملوهم معهم وتركوهم للاعداء ، وتوفي وزير ملك هرمز قبل أن يصل الى شيراز . أما المستوفى فقد قتله أمام قلتي خان في شيراز ، وكتب المؤرخون والسياح أن هذين للشخصين كانا على اطلاع كامل على الاموال والثروات التي كانت في هرمز ، ولهذا قتلها خان فارس حتى لايعرف الشاه عباس منهما الرقم الحقيقي للنفائس التي استولى عليها أمام قلتي خان (١) .

أما ملك هرمز فقد احتفظ به أمام قلتي خان في مدينة شيراز وخصص له راتباً شهرياً .

بعد الاستيلاء على جزيرة هرمز ، أراد الشاه عباس أن يجعل ميناء جمبرون مركزاً للتجارة في الخليج ، ولهذا لم يهتم بتعمير مدينة هرمز فحل الخراب بها بعد أن كانت تعد من أجمل (مدن الشرق) واشتهرت في العالم بثروتها وتجاريتها ، حتى أن الجنود الانجليز والاييرانيين نهبوا أبواب ونوافذ العمارات بل حتى أخشاب الاسقف ولم تبني بها سوى قلعة جديدة بجوار القلعة البرتغالية بناء على أوامر أمام قلتي خان ، وعين أحد تواد القزلباشية اسمه ولدخان سلطان لحكم الجزيرة وتولى المحافظة عليها وعلى قلعتها مع مائتين من الجنود .

أقامت للحكومة الايرانية قلعة جديدة في ميناء جمبرون غير القلعة التي كانت قد شيدتها بعيداً عن الساحل وجعلت هذا الميناء مرماً للسفن الانجليزية والهولندية القادمة من الهند الى ايران وغيرت اسم الميناء الى بندر عباس .

بعد هذا أراد الشاه عباس الاستيلاء على كل السواحل على الجانب الايراني لبحر عمان الى ماوراء رأس جاسك ولكن أمير جاسك قاوم ولم يقبل الا أن يصبح تابعاً لشاه ايران ويدفع له الخراج وقد قبل شاه ايران هذا العرض ، وظل أمير جاسك يرسل الخراج كل عام الى خزانة الشاه عباس حتى آخر عمره (٢) .

(١) هناك مؤلفات كثيرة عن حصار هرمز واحتلالها للعديد من السياح مثل مونوكس وروى فريديرا وتافرنيه وبينترو دلا فاله وغيرهم ولكن اكملها من تأليف فارباسوزا البرتغالي .

(٢) نلاحظ أن هذه المناطق لم تكن خاضعة للحكومة المركزية منذ زمن بعيد بل كانت تتمتع باستقلال ذاتي .

بعد فتح هرمز تفتشت الامراض المختلفة بين الملاحين الانجليز ، وتوفي
عند منهم ولهذا رأت السفن الانجليزية ضرورة مغادرة سواحل هرمز
والعودة الى الهند ، متوجهت الى ميناء سورت .

يتضح من كتب التاريخ ان الانجليز لم يحصلوا على فائدة ذات قيمة
من حرب هرمز وكان اشتراكهم في الحرب الايرانية البرتغالية بسبب المنافسة
التجارية فقط ، وحفظ مصالحهم في تجارة حرير ايران . ولم يكن لها
أى سبب سياسى لانه عندما اتحد المسئولون في شركة الهند الشرقية
الانجليزية مع ايران ضد البرتغاليين في هرمز كانت الحكومتان الانجليزية
والاسبانية في حالة صداقة وسلام .

ولهذا فعندما علم ملك اسبانيا بهذه الحادثة ، احتج بشدة على
الحكومة الانجليزية وكادت الحكومة البريطانية أن تدين شركة الهند
الشرقية بسبب هذا الاجراء المفرد الخاطيء ، وتعد موظفي تلك الشركة ضمن
القراصنة ، ولكن الشركة جاهدت من أجل تبرئة مسئوليتها وموظفيها ،
وذهب مونوكس مندوب الشركة وقائد السفن الانجليزية الى انجلترا وقدم
أدلة كثيرة على براءته وعدم تورطه ، وفي النهاية تقدمت الشركة عشرة الاف
جنيه الى جيمس الاول ملك انجلترا وعشرة آلاف جنيه أخرى الى قائد
البحرية الانجليزية ، وحصلت على أمر بالعفو العام عن الأشخاص الذين
اشتركوا في تلك المعركة ، وحصلت على تصريح بأن تستولى على كل
مايحصل عليه منسوبوها من بحار المشرق .

العلاقات الإيرانية البرتغالية

بعد الاستيلاء على هرمز

ذكر ألفونسو دي البوكيرك القائد البحري البرتغالي المشهور أن المراكز الرئيسية للعلاقات التجارية في آسيا والهند هي ثلاث نقاط : أحداها مضيق مالاکا ، والثاني مضيق عدن ، والثالث هو مضيق هرمز ، وهو أهمها ، وبالأستيلاء على هذه المضائق الثلاثة عدت الحكومة البرتغالية نفسها مالكة للعالم كلها . وكان يقصد من هذا أنه بامتلاك هذه الأماكن الثلاثة تصير تجارة الهند وإيران وتل دول آسيا تحت تصرف البرتغاليين وفي احتكارهم ، ولكن البرتغاليين فقدوا هرمز بسبب سوء سلوكهم وخشونتهم وسياستهم الخاطئة في إدارة مستعمراتهم ، وفي أثرها فقدوا بقية مستعمراتهم ومراكزهم التجارية بالتدريج .

بعد سقوط جزيرة هرمز جعل البرتغاليون ميناء مسقط على ساحل عمان مركزا لتجارتهم ، وشيدوا هناك عدة قلاع ، ولكن مسقط كانت دائما عرضة لهجمات العرب العمانيين ، ولهذا كان البرتغاليون دائما في عذاب وخطر ، ثم استولوا بعد فترة على ميناء البصرة ، وأقاموا هناك مركزا تجاريا ودارا للعلم وظلوا هناك الى حوالي عام ١٠٥٠ هـ (١٦٤٠ م) ينافسون انجلترا .

وقد حاول البرتغاليون عدة مرات الهجوم على جزيرة هرمز واعادتها ، من ذلك مرة سنة ١٠٣٣ هـ (١٦٢٤ م) ، ومرة أخرى عامي ١٠٣٩ و ١٠٤٠ هـ (١٦٤٠ م) حين أرسلوا سفنهم الى سواحل إيران خاصة الى ميناء جاسك وجزيرة هرمز ، وحاصروها عدة مرات ، ولكن مساعيهم فشلت ولم يتحقق هدفهم .

بعد أن استولى الشاه عباس على جزيرة هرمز ، أرد أن يستولي أيضا على ميناء مسقط ويكف أيدي البرتغاليين عنه ، ولهذا أرسل جيشا الى هناك ، واستولى على سحرار وخور فكان على الساحل العماني ، ولكن رؤى فريديرا القائد البرتغالي الذي كان قد هرب من أسر الانجليز وصل مع بضعة

سفن لمساعدة القوات البحرية البرتغالية ، بل وقام البرتغاليون - كما سبق أن ذكرنا - ببعض الهجمات على دوانى جاسك وجمبرون وبعض المناطق الساحلية الأخرى . ولخوف الإيرانيين من أن يقطع الأعداد صلتهم بالوطن الأم ، فقد انسحبوا من المناطق التى كانوا قد استولوا عليها فى ساحل عمان .

فى عام ١٠٣٤ هـ (١٦٢٥ م) - أى بعد ثلاث سنوات من سقوط هرمز ، وعندما يؤس البرتغاليون من استردادها - لجأوا الى مصادقة الشاه عباس وصرفوا النظر رسميا عما كان فى أيديهم من سواحل الخليج الفارسى ، وبدلا من ذلك أخذوا موافقة من الشاه باقادة قلعة ومركز تجارى فى ميناء كنج (١) ، ومزاولة صيد اللؤلؤ فى البحرين . وطبقا للاتفاقية بين الجانبين تقرر اعفاء البضائع البرتغالية فى هذا الميناء من الرسوم والجمارك ، ابتداء من ذلك التاريخ . كما يحصلون على نصف ايراد ميناء كنج . وكان الشاه عباس يهدف من وراء ترصية البرتغاليين وعقد هذه الاتفاقية معهم الى هدف سياسى وهو أن يظل صديقا للدولتين الاسبانية والبرتغالية حتى يمكنه عند اللزم الاستعانة بسفنهم ضد التجار الانجليز والهولنديين الذين كان نفوذهم قد ازداد فى الخليج .

وقد ظلت مواد هذه الاتفاقية نافذة طيلة بقاء السيطرة البرتغالية على مسقط ، ولكن الحكومة الايرانية رفضت العمل بمقتضاها منذ ١٠٦٠ هـ (١٦٥٠ م) ، أثناء حكم الشاه عباس الثانى حينما خرجت مسقط من تحت سيطرتهم (٢) ، وخاصة فيما يتعلق بالرسوم الجمركية من ميناء كنج والتى لم تدفع للبرتغاليين منها الا مبلغا ضئيلا لا يتجاوز عشرة آلاف تومان .

(١) كنج بضم الكاف : كان ميناء فى الشمال الشرقى لميناء لنجه وهو اليوم قرية ساحليه صغيرة لا يتجاوز عدد سكانها ألفى شخص ، وكانت بقايا جدران القلعة البرتغالية مازالت موجودة الى نحو خمسين سنة مضت .
(٢) فى أواخر ١٠٥٩ هـ استطاع العرب الذين هاجموا مسقط عدة مرات محاصرة تلك المدينة وعجز البرتغاليون عن الدفاع عنها ودخلها للعرب واستولوا على قلعة المدينة ومركز التجارة البرتغالى فيها ، وفى ٢٠ محرم ١٠٦٠ هـ ٢٣ يناير ١٦٥٠ م ، سلم الحاكم البرتغالى لمسقط ، وكان نائب الملك فى الهند قد أرسل عدة سفن لمساعدة البرتغاليين فى مسقط ، ولكن السفن وصلت متأخرة ، وكان البرتغاليين قد غادروا ساحل عمان وفقدوا قلاعهم فى شبه الجزيرة العربية أيضا . (الخليج الفارسى - سيرارنولد ويلسون) .

وفي النهاية أرسل نائب الملك في الهند سفيرا الى الشاه عباس الثماني وانتقلت الدولتان الى أن تدفع ايران كل عام مبلغ خمسة عشر ألف أكو (حوالي ٣٠ ألف تومان) الى البرتغاليين تحت عنوان دخل جمرك ميناء كنج في مقابل تناقضي البرتغاليين نهائيا عن كل حقوقهم على سواحل الخليج ولما لم ترد أية إشارة الى صيد اللؤلؤ حول جزر البحرين ، فقد ادعى البرتغاليون أن صيد اللؤلؤ في تلك النواحي من حقهم وليس لاحد حق صيد اللؤلؤ حول البحرين دون اذن خاص منهم (١) .

في ذلك الوقت كان نفوذ الشركات التجارية الانجليزية والهولندية في بحر المشرق يزداد وينمو وأخذت فترة البرتغاليين على مدى القرن الحادي عشر تضمحل من السند وملوك مالاکا وسرنديب (سيلان) والسواحل الهندية ورأس الرجاء في جنوب أفريقيا . وقد استولى الهولنديون على جزء من مستعمراتهم وفقد الجزء الثاني بسبب عداوة العرب والوطنيين والهنود لهم . وفي النهاية فقدوا ميناء كنج - المكان الوحيد الذي كان قد تبقى لسفنهم في الخليج (٢) .

(١) في عام ١٠٤١ هـ (١٦٣١ م) أدرك ملك أسبانيا مدى الخسارة التي لحقت من جراء ضياع البحرين من أيديهم ، ولهذا أمر نائبه في الهند بالعمل قدر استطاعته لاستعادة هذه الجزيرة حتى لو أمكنه ارضاء حاكم الجزيرة الايراني بتسليم الجزيرة عن طريق الرشوة .

(٢) كتب الرحلة شاردان الذي كان في ايران سنة ١٠٨٦ هـ (١٦٧٥م) في أحداث تلك السنة : « وصل مبعوث خاص من ميناء كنج ، وذكر أن بعض السفن البرتغالية وصلت للميناء وصادرت ثلاث سفن هندية ، وعليها ثلثه . حاج ايراني ، وكثير من البضائع وكان هدفهم ارغام الحكومة الايرانية علي دفع نصف ايرادات جبرك ذلك الميناء عن عامين بناء علي اتفاقية سنة ١٠٣٤ هـ . وقد أرسل الشاه ميرزا شفيح الخازندار الي ذلك الميناء وأصدر ليه تعليمات بأن يدفع لهم ١٠ ألف أكو عن العام السابق و ١٥ عن ذلك العام ، فاذا لم يقبلوا قام بتخريب الميناء ونقل أهله الي الموانئ الاخرى ، وقبل وصول ميرزا شفيح كان حاكم الميناء الايراني قد تصالح من البرتغاليين ودفع لهم مبلغا من المال فاطلقوا سراح السفن والحجاج . ولما نزلوا جميعا وأفرغت البضائع من السفن قال لهم الحاكم أنه لن يدفع لهم أية أموال أخرى دون اذن من الشاه رغم ما أعلنوه من تهديد ووعيد فلما وصل ميرزا شفيح قال لهم أن من الأفضل لهم أن يرسلوا منحوبا عنهم الى الشاه في اصفهان لحل هذه الخلافات .

ومن أهم أسباب زوال قوة البرتغاليين ونفوذهم في المشرق سوء سلوكهم وقسوة طباعهم مع شعوب الشرق • وثانياً الخلاف بين المسئولين البرتغاليين وبنفادهم بعضهم لبعض • ولما كانت الشؤون التجارية الاسبانية والبرتغالية محتكرة للدولة ، فانها لم تستطع الصمود أو منافسة التجارة الحرة للشركات الانجليزية والهولندية •

وقد استطاع الاسبان والبرتغاليون الحفاظ على نفوذهم واستعمارهم بعض الوقت مستعدين الى قوتهم العسكرية ، ولكن لنقص المسئولين الذين يمكنهم ادارة هذه المستعمرات بالحكمة والسياسة فقد ضعف نفوذهم ثم انتهى •

«راجع هذا الفصل

- ١ - كتاب رحلة ماركو بولو marcoPolo للتاجر البندقى .
- ٢ - كتاب رحلة بيدرو دلفاليه الايطالى ، ٨ أجزاء طبعة روين Rouen ١١٥٨ هـ / ١٧٤٥ م ، وهو الذى زار ايران سنة ١٠٢٥ هـ .
- ٣ - مقدمة شارل شيفر Charles Schefer لكتاب ووضع ايران في عام (١٦٦٠ م) Estat de la Perse en 1660 تأليف رفاييل دى مانس Raphael du mans دلبع باريس ١٨٩٠ م .
- ٤ - دون جوان ايران Don Juan of Persia ترجمة المستشرق الانجليزى لوسترانج مع مقدمة سيردينس روس ، سنة ١٩٢٦ م .
- ٥ - الخليج الفارسى ، تأليف سيرارنولد ويلسون ، طبعة اكسفورد ١٩٢٨ م . ترجمة للفارسية محمد سعيدى .
- ٦ - رحلة الاخوان ثيرلى The Three Brothers طبع لندن ١٨٢٥ م . وترجمتها للفارسية .
- ٧ - الشاه عباس تأليف لوسين لويس بلان Lucien-Louis Bellan باريس ١٩٣٢ م .
- ٨ - رحلة شاردان Charden الفرنسى ، ١٠ مجلدات طبع باريس ١٨١٩ م .
- ٩ - رحلة جان بايتيست تافارينه Jean-Baptiste Tavernier في جزئين ، طبع باريس ١٦٩٢ م (١١٠٣ هـ) .
- ١٠ - رحلة دون جارسيا دى سيلفا فيجورا في ايران والهند والتي استغرقت من ١٦١٤ - ١٦٢٤ م .
- ١١ - عالم آراى عباسى - اسكندر بك تركمان طبع طهران سنة ١٣١٤ هـ .
- ١٢ - منتظم ناصرى - تأليف محمد حسن خان صنيع الدولة .
- ١٣ - رحلة سيرتوماس هربرت Sir Thormas Herber لندن ١٦٧٧ م .

- ١٤ - حالة الدولة الفارسية Elat du Rayaunede Perse تأليف
Sanson القس المبشر المسيحي الذي جاء ايران سنة ١٦٨٣ م .
- ١٥ - مراسلات الشاه عباس محفوظة في المكتبة الوطنية في نابولي
جمعها القس جان تاديه .
- ١٦ - رحلة انطونيو دي جوفيا طبع روين سنة ١٩٤٦ م .
- ١٧ - تاريخ القسس الكرملين في ايران ، لندن ١٩٣٩ ، في مجلدين ،
١٨ - رحلة ماندلسلو J.A. mandelslo الترجمة الفرنسية طبع
باريس ، ١٦٧٩ م .

الفصل الثاني

العلاقات الايرانية الانجليزية

العلاقات الإيرانية الانجليزية في العصر الصفوي

بداية العلاقات الإيرانية الانجليزية

بينما سيطرت الحكومتان البرتغالية والاسبانية على أعالي البحار وقوت مستعمراتها في افريقيا واسيا سعى التجار الانجليز لفتح طريق الى اسيا عن طريق بحار شمال أوروبا ففي ٩٦٠ هـ (١٥٥٣م) سافر أحد الانجليز اسمه ريتشارد شانسلر للسياحة قاصدا أراضي لابوني (١) في اسكندنافيا فالقت الرياح بسفينته في ميناء أرخانجاسك وقد أسس شركة في موسكو باسم شركة مسكو باذن من ايفان المرعب قيصر روسيا . وبعد وفاته سنة ٩٦٤ هـ أصبح انطوني جينكينسن (٢) - أحدمعاونيه ومرافقيه - رئيسا عاما لسفن الشركة وقد كلف مع اثنين من الاعضاء الانجليز بفتح طريق للتجارة بين روسيا ودول وسط اسيا عن طريق بحر الخزر ويبدو أنه كلف بهمة سياسية في بخارى من قبل القيصر الروسي .

بعد عودة جينكينسن من هذه الرحلة صممت شركة مسكو على ارساله الى ايران لعله يستطيع اقامة علاقات اقتصادية مع ولايات شمال ايران الواقعة على ساحل بحر الخزر والتي كانت مركز تجهيز الحرير لينافس في هذا التجار البرتغاليين الذين يحتكرون تجارة الحرير الإيراني والذي يحملونه الى أوروبا عن طريق الخليج وجنوب افريقيا . وقد استطاع جينكينسن أن يحصل من ايفان المرعب قيصر روسيا (٩٤٠ - ٩٩٢ هـ / ١٥٣٣ - ١٥٨٤ م) ومن اليزابيث ملكة انجلترا (٩٤٠ - ١٠١٢ هـ / ١٥٣٣ - ١٦٠٣ م) على صفة السفارة وجاء الى ايران سنة ٩٦٩ هـ .

وتحمل جينكينسن معه خطابا من ملكة انجلترا الى الشاه طهماسب الاول مضمون جزء منه ما يلي :

« من اليزابيث ملكة انجلترا المؤيدة بالتأييد الالهي الى الامير العالي القوي الصوفي الكبير ملك ملوك ايران وشعب مادوبارث وجرجان وكرمان

Archa ngelsk
Jenkinson

(٢)

Laponie

(١)
(٣)

ومرو والقبائل على شاطئ دجله وكل الشعوب التي تقطن ما بين بحر الخزر والخليج الفارسي أبعث وأمر السلام وأمانى السعادة والاقبال .

من رحمة الله التي لاتحد أن أصبحت الامتان الايرانية والانجليزية صديقتين عن طريق المراسلة رغم المسافة التي تفصل بينهما من بحار وأرض وفتحتا أبواب التراسل والمكاتبة في سبيل حفظ المصالح الانسانية ومنافع الطرفين ، ولهذا فان تابعنا العزيز الوفي أنطونى جينكينسن الذى يحمل هذه الرسالة باذننا ومراحمتنا وبعون الله ينوى السفر من بلادنا الى ايران وباقر المناطق التابعة لنفوذكم . ولما كان هدفه اقامة علاقات تجارية مع رعاياكم وبقية التجار الذين يعملون في بلدكم بالتجارة . لهذا أردت أن أطلب من جلالكم أن تفضلوا باصدار تصاريح المرور اللازمة له ولمرافقيه والتسهيلات الاخرى حتى لا يواجهوا أية مشاكل في تنقلاتهم أو اقامتهم في ايران »

كتب في انجلترا بمدينة لندن الكبيرة فى الخامس والعشرين من أبريل سنة ١٥٢٣ والسنة الثالثة للكنة .

وصل جينكينسن الى ميناء دربند في القفقاز الذى كان آنذاك ضمن الاراضى الايرانية ومن هناك توجه الى قزوین عاصمة الشاه طهماسب الذى استقبله وأطلع على مضمون خطاب الملكة اليزابيث وعرف الغرض من مهمته . ولما لم يكن جينكينسن يعرف العادات والتقاليد الايرانية فانه لم يستطع أن يحقق هدفه كما كان يريد وعاد الى مسكو دون عقد أى اتفاق بين ايران وروسيا أو انجلترا لتشجيع التجارة بينها .

كتب أحد الساسة الانجليز في هذا الشأن يقول « حينما التقى جينكينسن بالشاه طهماسب الاول في قزوین قدم اليه رسالة ملكة انجلترا ، ~~بأن الملكة تستلم أنتم الكفرة لاحاجة لنا بصادقتكم~~ (١) ثم أذن له بالعودة ويقول جينكينسن في كتاب رحلته « بعد أن عدت من ملاقة الشاه قام أحد خدمي القصر ومعهم ~~معلم ومعلم~~ بالتراب وسار خلفى حتى باب مقر الملك وكان ينشر المنادى ~~بأنى~~ مواضيم أقدامى ليتطهرها » .

(١) كان الاوربيون قد بدأوا الاتصال بأبيه الشاه اسماعيل لمهاجمة العثمانيين من الجانبين وقد وافقهم على هذا ولكن توفى قبل تنفيذ الاتفاق ، وكان طهماسب متعصبا ضد المسيحيين .

تضى جينينسن شتاء ٩٧٠ هـ فى موسكو ثم عاد الى ايران ومعه شخصان آخران هما توماس الكوك (١) ورينشارد شنى (٢) أرسلتهما شركة موسكو . ولم يوفق هذه المرة أيضا لان عبد الله خان والى شروان الذى عامله فى رحلته الاولى بمحبة وصداقة امتنع عن حمايته ومساعدته هو ومرافقيه هذه المرة لان أحد المسلمين كان قد قتل على يد أحد الرعايا الروس ونتيجة لهذا قتل توماس الكوك فى أثناء الطريق .

وبعد ست سنوات أى فى ذى الحجة سنة ٩٧٤ هـ جاءت هيئة أخرى من شركة موسكو برياسة آرثر ادوارد (٣) ورينشارد ويلز (٤) ولكن جماعة من أعضاء هذه الهيئة ماتوا قبل أن يصلوا الى قزوین فاستقبل الشاه طهمااسب من تبقى منهم بمحبة وأبدى ميله لارتداء الأقمشة اللندنية وأصدر أمرا أعفى بموجبه موظفى شركة موسكو من الرسوم الجمركية ورسوم الحراسة فى الطرق ومنح التجار حق التجول فى ايران بحرية تامة ومزاولة التجارة .

وجاء فى أحد الوثائق السياسية الانجليزية عن أول لقاء بين آرثر ادواردز والشاه طهمااسب الاول :

فى أول مرة عندما دخل مع مترجمه للملاقة الشاه الصفوى وقف بعيدا عن العرش الذى جلس عليه الملك وأحاط به جمع من عظماء وجنود ايران . وطلب منه الشاه أن يقترب من العرش ثم سأل من أى دولة جاء ؟ فاجاب من انجلترا . فاستفسر الشاه من العظماء الذين كانوا يقفون بجواره عن أيهم يعرف شيئا عن هذه الدولة ، وحين رأى ادواردز أن أحدا منهم لايعرف شيئا عن بلده ذكر اسمها باللغة الايطالية وهو « انجلترا » وأنداك ذكر أحد الحاضرين اسم مدينة لندن التى تشتهر عن غيرها من مدن انجلترا فى الدول المسيحية ، فقال ادواردز للشاه أن لندن هى عاصمة انجلترا كما كانت تبريز قبل ذلك عاصمة لايران . فأخذ الشاه يسأل عن كثير من الأشياء فى انجلترا وأبدى دهشته من وجود جزيرة بهذا الثراء وتلك القوة فى بلاد الفرنج . وبينما كان ادواردز يتحدث عن قوة انجلترا وثروتها ورواج تجارتها وقوانينها وأدابها وعاداتها كان الشاه طهمااسب يكرر قول « بارك الله »

Richard Chenie (٢)
Richard Wills (٤)

Thomas Alcock (١)
Arthur Edwards (٣)

متعجبا • ثم سأل الشاه السفير عن السبب وراء مجيئه الى ايران • وعندما رد عليه بأنه جاء لعقد صفقات تجارية • استفسر منه عن أنواع البضائع التي يطلبونها • فقال السفير للشاه : « أن في بلدكم كثيرا من التجار البندقيين يذهبون كل عام من ايران الى لندن والبندقية (فينيسيا) والمدن العثمانية وطلب وطرا بلس والشام ويعودون الى ايران مع أحمال من البضائع » فسأله الشاه ماهذه البضائع ؟ فأجابه ادواردز : « انها من الجوخ اللطيف الرقيق والاقمشة الصوفية وما شابه ذلك • فسأله الشاه وأنت عن أى طريق تريد أن تحضر هذه البضائع الى ايران ؟ فرد عليه : « عن طريق موسكو (روسيا) لأنه أقل خطورة وأقصر من الطريق الذى يسلكه تجار البندقية من انجلترا ثم الدولة العثمانية فايران •

وقد طلب ادواردز من الشاه في هذا اللقاء أن يعطى للتجار الانجليز اذنا بالتجارة في ايران حتى يمكنهم التنقل في كل انحاء البلاد بحرية تامة وفي أمن على أرواحهم وأموالهم وقال أن التجار الانجليز سوف يقدمون للايرانيين بضائع أحسن وأرخص •

وقد استمر الحديث بين الشاه وادواردز نحو ساعتين حصل في نهايتها سفير انجلترا على ما كان يريد من امتيازات تجارية من الشاه طهماسب ، وكتبت كل هذه الشروط على ورق أحمر مذهب وختمها كاتب الشاه الخاص بختمه وتوقيعه وقال هذا الكاتب الخاص الذى كان يدعى قسوج خليفه للسفير أن كتابة وختم مثل هذه الوثيقة من قبل الشاه تعد تفضلا ومنة عظيمة منه • أما بقية الشروط التجارية فقد اتفق علي أن تكتب في وثيقة أخرى تبسلم الي لورنس شابمان أحد أعضاء البعثة •

وكانت مواد الوثيقة الثانية التى تتعلق بالتجار الانجليز وسلمت الي لورنس شابمان علي النحو التالي :

١ - للتجار الانجليز الحرية في السفر حسب رغبتهم سواء الي جيلان أو أى مكان آخر من أملاك شاه ايران •

٢ - اذا حدث وتعرضت إحدى سفنهم للغرق في بحر الخزر فان رعايا ايران سوف يهبون لمساعدة الغرقى وينقذون أموالهم وأرواحهم اذا طلبوا المساعدة •

٣ - اذا توفي أحد التجار في مدينة إيرانية فان حكام إيران مكلفون بالمحافظة على أمواله • وعليهم تسليمها للتاجر الآخر الذي يطالب بها •

٤ - للتجار الانجليز حرية اختيار الجمالين الذين يعملون معهم ، وليس لأى من القزلباشية حق مضايقتهم ، ويصبح الجمالون مسئولين عن أموال التجارة والجمال والخيول التي تسلم لهم •

٥ - ليس للجمالين حق مطالبتهم الا بما هو متعارف عليه من أجر •

٦ - اذا شاء أحد التجار اثناء سفره الإقامة في أحد الاماكن فيمكنه الاحتفاظ ببضائعه ويسرح العاملين معه •

٧ - يمكن للتجار تهيئة المنازل والاطعمة اللازمة ومرافقيهم في أية مدينة أو قرية •

٨ - يحق للتجار الانجليز شراء أو بناء المنازل اللازمة لعملهم ، ولا يحق لأى شخص منعهم أو الاضرار بهم •

وبهذه الامتيازات التي منحها الشاه طهماسب الاول كان يرجى أن تزدهر التجارة عن طريق روسيا الى إيران وتؤدي الى كساد سوق البرتغاليين مع الهند الشرقية وإيران • لان التجار الانجليز كان يمكنهم المجيء الى إيران مرة واحدة على الاقل كل سنة عن طريق روسيا • أما ذهباب البرتغاليين عن طريق البحر من هرمز الى الهند وجنوب افريقيا الى أوروبا ثم العودة للهند وإيران فلم يكن متاحا قبل عامين •

العلاقات الايرانية الانجليزية

في عصر الشاه عباس الأول

بعد وفاة الشاه طهماسب قطعت العلاقات بين ايران والدول الأوروبية نتيجة للانقلابات والخلافات على خليفته ، وكذلك بسبب المشكلات الداخلية والخارجية المختلفة التي حدثت حتى تولية الشاه عباس ، بل وحتى السنوات الأولى من حكمه . وإذا كان قد جاء الى ايران سفراء أو مبعوثون فانهم لم يحصلوا على نتيجة من وراء مهامهم في ايران ، كما حدث في عصر الشاه محمد خدابنده والد الشاه عباس ، اذ جاء آرثر ادواردز مع بعثة من شركة موسكو وقدم اليه رسالة من الملكة اليزابيث (٩٨٧ هـ ١٥٧٩ م) ولكنه لم يحصل على نتيجة تذكر من بعثته هذه .

بعد ان ثبت الشاه عباس أساس حكمه وانتصر على اعدائه في الداخل والخارج وذاعت شهرته في كل دول أوروبا ازدهرت العلاقات بين ايران وأوروبا مرة أخرى وجاء كثير من السياح والسفراء من كل دولة لعقد معاهدات سياسية أو اقامة علاقات تجارية مع ايران .

وصول الاخوين شيرلي الى ايران

في السنوات الاخيرة من القرن السادس عشر الميلادي أي في السنوات ١٠٠٧ - ١٠٠٨ هـ (١٥٩٨ - ١٥٩٩ م) وصلت الى ايران جماعة من خمسة وعشرين انجليزيا برئاسة شخص اسمه السير أنطوني شيرلي وكان برفقته أخوه الأصغر روبرت شيرلي .

وقد ولد السير أنطوني شيرلي في ويستون بانجلترا سنة ١٥٦٨ م (٩٧٥ هـ) ، وهو ينحدر من أسرة معروفة ومشهورة . وبعد أن أنهى دراسته في جامعة أكسفورد انخرط في الجيش واشترك في الحرب التي كانت قد نشبت بين اسبانيا وهولندا في أواخر القرن السادس عشر واشتهر بشجاعته ، ثم التحق بخدمة كونت اسكس أحد عظماء انجلترا وقاد له حملة عسكرية على الجزر التابعة لاسبانيا في أمريكا ، وبعد سنتين كلفه الكونت بالذهاب

الى ايطاليا لمساعدة سزار دى استته (١) دوق فيرارا الذى كان على خلاف مع البابا كليمنت الثامن بسبب الدوقية في فيرارا ولكن البابا كان قد استولى على فيرارا قبل وصول أنطونى شيرلى فأصبحت مهمته بلا فائدة ، فطلب منه كونت اسكس الذهاب الى ايران ليحرض الشاه عباس على محاربة الدولة العثمانية والاتحاد مع الدول المسيحية الاوربية والحصول منه على امتيازات خاصة للتجار الانجليز .

وقد كتب أحد مرافقى شيرلى واسمه جورج مانوارينج (٢) عن الهدف من وراء مهمة شيرلى فقال :

« عندما كنا في مدينة البندقية (فينيسيا) تعرفنا على تاجر ايراني كان قد أرسله الشاه عباس الى هناك لشراء الجوخ الانجليزى والاقمشة الصوفية والكتانية وما الى ذلك . وقد أشاد هذا التاجر بهيبة ملكة وجلاله مما جعل السير أنطونى يتعلق بايران ، ولكنه لم يفكر في السفر ، ولكن سائحا اسمه أنجلو كان قد وصل حديثا من ايران جاء لزيارة السير أنطونى وتحدث عن عظمة شاه ايران وشجاعته وهيئته ومحبة للاوربيين مما جعل السير أنطونى يصمم على السفر الى ايران .

تحرك السير أنطونى يوم ١٧ شوال ١٠٠٦ هـ (٢٤ مايو ١٥٩٨ م) مع مرافقية من ميناء فينيسيا صوب الاراضى العثمانية وكان من بين مرافقية أخوه روبرت شيرلى وباول (٣) الذى حصل فيما بعد على لقب فارس من جيمس الاول ملك انجلترا وشخصان آخران أحدهما جان هوارد وجان بارت (٤) وأحد رجال المدفعية الذى كان يمتاز بمهارة في صب المدافع وصنعها .

وقد غادر أنطونى شيرلى ومرافقوه السفينة في ميناء الاسكندرونه أحد الموانى العثمانية ، وذهبوا الى حلب بعد أن تحملوا كثيرا من المشاق والمتاعب وبعد البقاء فيها بعض الوقت توجه لى بغداد عن طريق صحراء الشام ، ومن هناك الى ايران ولما كان الشاه عباس في قزوین في ذلك الوقت فقد توجه الى هناك . وكتب جورج مانوارينج يصف وصولهم الى قزوین وترتيبات استقبال الشاه للبعثة الانجليزية فقال :

George Manworing	(٢)	Sesard' este	(١)
Bawel			(٣)
Jahn Howard & Jahn Parot			(٤)

« على مقربة من قزوين أرسل السير أنطوني اثنين من مرافقيه هما
انجلو وجان هوارد وقبل وصوله بأربعة أيام الى هناك حتى يعدا له منزلا
ويعودا لاستقباله وارشاده الى المدينة وأوصاهما بتكتم وصوله قدر الامكان
لأنه لم يكن يحمل ما يناسب من الهدايا والتشريفات، اذ كان كل شيء قد تقدمهم
بسبب طول الرحلة والسفر ، ولكنها لم يتمكن من ذلك لأن حاكم قزوين
وناظر الشاه أرسلا اليهما شخصا يسألا منهما عن اسم وصفات السير
أنطوني شيرلي وسبب مجيئه ، فاضطر هذان المرافقان الى اقصاء السر
ولكنهما أخفيا يوم وصول الوفد مما أغضب الحاكم والناظر بل وأهل المدينة
لأنهم جميعا كانوا يرغبون في استقبالنا على الطريقة المتبعة في ابران انذاك »

دخلنا قزوين أثناء الليل ، وفي اليوم التالي جاء ناظر الشاه مع
جمع من عظماء المدينة الى منزلنا وأبدى كثيرا من الحب والعطف نحو السير
أنطوني، ثم وضع أمامه عشرين جنيتها ذهبيا وقال له « أرجو أن تتقبل هذه
الهدية المتواضعة من ملكي وولي نعمتي الذي يحارب التاتار الآن لأنك قادم من
سفر طويل وأنت غريب في بلدنا ومن الممكن ألا تستطيع القيام بحاجتك على
الوجه الاكل ، ولما كنت أعجز عن القيام بواجب الضيافة كما يجب فانني
أرجو المعذرة ٠٠٠ » ثم أضاف أنه سيفتح مثل هذا المبلغ كل يوم لنفقات
السير أنطوني اليومية وقال : « أننى أقدم هذا المبلغ من مالى ولاشك أن
الشاه عندهما يعود من سفره سوف يقدم ثلاثة أضعاف هذا المبلغ » ولكن
السير أنطوني شيرلي امتنع عن قبول هذا المبلغ وأبعده بقدمه وقال « أيها الاخ
الايراني الكريم ، اعلم أننى لم آت الى ملككم للسؤال ، ولكن شجاعته
وشهرته هي التي أحضرتنى الى هنا وأريد أن احظى برؤيته وتقبيل
ييده واقبم رويحي فبداء له في جروبه ٠٠٠ »

اثر كلام سير أنطوني في الناظر تأثيرا شديدا حتى أنه ارتد بضع
خطوات للخلف وأخذ يحنى رأسه بضع مرات للتعظيم وقال : « أرجو أن
تصفح عنى فالآن أدركت أنك أمير عظيم ٠٠٠ » وبعد المجاملات المعتسدة
استأذن من السير أنطوني وخرج مع رفاقه *

بعد هذا جاء حاكم قزوين أيضا لزيارة السير أنطوني وقال أنه لن
يتوانى عن تقديم أية خدمة وعاد بعد المجاملات المعتادة أيضا . وفي هذه
الليلة أرسلنا الى سير أنطوني من الهدايا ما أدى الى التعجب . ثم كانا يتنافسان

في الاحتفاء بنا ، وبعد خمسة أو ستة أيام وكنا قد أصبحنا ذوى ملابس فاخرة وخيول ممتازة استضاف الناظر السير أنطوني ورفاقه في القصر الملكي وقبل السير أنطوني دعوته ، وحين توجهنا الى هناك جاء الناظر مع أربعين شخصا من اعيان المدينة لاستقبالنا في منتصف الطريق على خيولهم واستقبلونا استقبالا ملكيا . وحين وصلنا الى باب الديوان الملكي المزين بالجواهر الثمينة قال الناظر للسير أنطوني : « جرت العادة على أن يقبل عتبة هذا الباب كل شخص يدخل منه وهذه العادة خاصة بالنسبة للجانب الذين يأتون الى ايران . فاجابه السير أنطوني : أننى أحترم هذه العادة احتراما للشاه وحنى رأسه هو وأخوه روبرت، شيرلى احتراما ولكن الجميع قبلوا عتبة باب الديوان . »

كان القصر من الداخل في غاية الجمال والجلال ، وقد علق على الجدران أقمشة محلاة بالذهب وفرشت الأرض ببسط جميلة ، ولن أصف اللون الطعام واكتفى بالقول أن أغلبها كانت من الأرز وقد صنعوا كلا منها بلون ، كانت إحدى فرق الموسيقى الملكية تعزف أثناء هذه الضيافة ، كما كان لنا في منزلنا فرقة خاصة للعزف كما كانت هناك عشر راقصات جميلات بملابسهن الغالية يرقصن على الطريقة الايرانية طوال الضيافة . ولما ان لنا أن ننصرف ودعنا جمع من اعيان المدينة . . . »

بعد بضعة أيام وصل رسول من بلاد التركستان يحمل أمرا من الشاه عباس كتبه بخط يده وقد قرأه أحد كبار رجال قزوين على أهل المدينة وقد حضرنا جميعا للاستماع اليه . وكان مضمونه : « يجب أن يستقبل ضيوفنا الفرنج استقبالا كاملا وأن يعد لهم ما يحتاجون اليه من خيل أو خدم وغيرها . وكل من يخالف هذا الامر فانه سيعرض روحه للخطر . وإذا أساء أحد الى أقل رفاقهم فان رأسه سوف تقطع لامحالة . وبمجرد أن قرئ أمر الشاه قسام الحاضرون جميعا بتقبيله . »

بعد هذا كتب وصفا لمراسم وصول الشاه عباس لقزوين واستعدادات استقباله للسير أنطوني شيرلى خلاصته ما يلى :

« قبل وصول الشاه عباس الى قزوين ببضعة أيام أرسل رسولا للناظر امره كي يعطينا خيولا ممتازة لكي نخرج مع الحاكم لنستقبله على بعد أربعة فراسخ من المدينة وكانت ملابسنا على النحو التالى :

كان السير أنطونى يرتدى ملابس غالية موشاة بالذهب ويلقى وسطه سيفاً قيمة عهدته نحو ألف جنيهه وكان مزينا بالماس واللؤلؤ ، وكان يضع على رأسه عمامة قيمتها نحو عشرين جنيها ، ويلبس حذاء مزينا بالياقوت واللؤلؤ ، وبعده كان أخوه روبرت شيرلى يلبس ملابس موشاة وعلى رأسه عمامة فاخرة أما مترجم سير أنطونى وهو « انجلو » فكان يلبس ملابس حريرية بيضاء وكان أربعة منا يلبسون جببا حريرية وأربعة يلبسون جببا من القطيفة الحمراء مع قمصان حريرية وأربعة آخرون جببا صوفية وقمصانا من التافتاه والأربعة الباقون يلبسون جببا صفراء مع قمصان من الحرير الأيرانى .

على هذا النحو أسرعنا لمقابلة شاه ايران وكان السير أنطونى وأخوه يسيران جنباً الى جنب ، وكان الناظر يسير على يمينهم والحاكم على يسارهم وكان الباقون يركبون خلفهم اثنين اثنين ، وكنت أنا أسير أمام السير أنطونى وأحمل فى يدي عصا من الفضة لأن السير أنطونى كان قد جعلنى رئيس فرائشه لأن الرجال العظام فى ايران كانوا يسرون ومعهم رؤساء فرائشهم .

وما كدنا نبتعد عن المدينة نحو نصف فرسخ حتى ظهر لنا موكب الشاه وكان فى المقدمة نحو عشرة آلاف جندي مسلح ومن خلفهم جماعة من حملة الأبواق الموسيقية ينفخون فى أبواقهم فيبعثون أصواتاً غريبة ، وبعدهم يأتى الطبالون وكانت طبولهم من الصفر (١) ومحمولة على الجمال . ثم ستة من حملة الاعلام واثنى عشر غلاما فى يد كل منهم حربة وبعد مسافة طويلة ظهر الشاه الذى كان يسير بمفرده وفى يده حربة وفى كتفه قوس وفى وسطه سيف وخنجر ، وكان قصير القامة ولكنه قوى وقمحي اللون . وبعد الشاه كان يركب قواد الجيش وبعدهم أصحاب المناصب العسكرية واثنى عشر فارساً .

وعندما اقترب منا الشاه نزل السير أنطونى وشقيقه عن فرسيهما وتقدما لتقبيل قدمه فالتقى الشاه نظرة مشوبة بالغرور اليهما وتطلع الينا ودون

(١) الصفر هو النحاس وخاصة الاصفر منه وصانعه هو الصفار ، ومازالت هذه الطبول موجودة للآن وتشاهد فى بعض القرى عند الاحتفال بقدم شهر رمضان فى مصر (المترجم) .

أن يتكلم مع السير أنطوني أمر قواده أن يجعلوا له مكانا في المعسكر الملكي .
ثم حث فرسه وابتعد عنا ثم سار السير أنطوني وأخوه مع القائد والناظر .
وبعد ساعة عاد الشاه راكضا كانت تركض خلفه ست عشرة سيدة على
خيل ممتازة وعندما وصل الى السير أنطوني أطلقت النسوة أصواتا خاصة
جعلتنا في حيرة (يبدو أنها زغاريد) ثم توقف الجميع وتقدم الشاه ثم قبل
السير أنطوني وشقيقه وأخذ يد السير أنطوني ثم أقسم أن يجعل السير
أنطوني كأخيه دائما وأنه منذ الآن سيخاطبه بلقب الاخ ، وتوجه الشاه
صوب المدينة وقد جعل السير أنطوني عن يمينه .

تزامم جمع غفير من الاهالي خارج قزوين ومر الشاه من بينهم ،
وكانوا أثناء مروره ينجنون ويقبلون الأرض ، وقبل دخولنا المدينة كان
الشاه قد أعلن فيها أن أى جندي يدخلها ستقطع رقبته فيما عدا من كان أصله
من أهلها ، وكان يهدف من وراء هذا ألا يتسبب الجند في مضايقة الناس
أو ايائهم ، تم سمح للجنود جميعا بالعودة لوطانهم .

حين وصلنا للمدينة عبرنا كثيرا من الازقة ودخلنا إحدى العمارات
الخاصة بالشاه وقد اصطحب الشاه السير أنطوني الى إحدى القاعات
الفخمة المزينة حيث عرض السير أنطوني على الشاه أسباب سفره الى
ايران ، ومصاعب الطريق وسوء معاملة المسؤولين العثمانيين له ولرفاقه .
وكان الشاه ينصت باهتمام الى حديثه حتى انتهى منه فقال له : « ياخي
أننى أسف كثيرا للاحداث السيئة التي حدثت لكم في الطريق ولكنى
سعيد لأنكم وصلتكم بالسلامة الى بلاطى ، وأقدامكم فوق أعيننا (١) » .

ثم أقيم مجلس طرب استمر ساعتين فى سرور وسعادة وفي نهاية المجلس
طلب الشاه من السير أنطوني أن يشاهده من النافذة وهو يلعب بالصولجان،
وكان أمام القصر ميدان واسع جميل كانوا قد أعدوه لسباق الخيل فذهب
الشاه الى هناك وركب فرسه . وعندما ركب نفخت الابواق ودقت الطبول
أيضا . وقد لعب الشاه مع أحد عشر شخصا وكان هذا اللعب بالصولجان
يشبه لعبنا فى انجلترا الى حد كبير .

وقد سعد الشاه عباس الذى كان يريد دائما أن يتحد ملوك أوروبا
ضد السلطان العثماني بقدم الاخوين شيرلى واستقبلهم بحفاوة بالغة ،

(١) تعبير ايراني للاعراب عن الترحيب الشديد بالضيف أو العزيز .

وبعد أن استضافهما مدة في قزوین اصطحبهم جميعا معه عن طريق مدينة كاشان الى اصفهان التي أختيرت في ذلك العام عاصمة لایران ، وكان يعامل الاخین بمحبة كأنهما أخويه ، وقد كتب أحد مرافقی شیرلی شرحا مفصلا عن محبة حفاوة الشاه عباس للاخین شیرلی خلاصة جزء منه هي :

« ليس في ايران كراسی ، وكنا نجلس في ايران على البسط ، ولما كنت لا استطيع الجلوس على ركبتی فقد جلست القرفصاء ، فذكر السفير العثماني الذي كان حاضرا المجلس أن الانجليز عادة يجلسون على كراسی وأن جلوسهم على الارض صعب عليهم ، فنهض الشاه عباس على الفور وانتقل الى قاعة أخرى وأمر أحد الغلاء باحضار منضدة من التي يضعون عليها زجاجات الشراب ، ثم أمر فوضعوا فوقها سجادة ثم أمرني بالجلوس عليها وبعد ذلك طلب الشراب وشرب نخب سلامتی وقال أنه يفضل نعل حذاء أي مسيحي على أكبر رجل عثماني(١) » . وفي مساء ذلك اليوم دعانا بعد تناول العشاء للتجول معه في سوق قزوین .

في وسط مدينة قزوین مكان يسمى البازار وهو ثلاثة أمثال سوق لندن، وكانت كل الدكاكين قد زينت وأضيئت بناء على تعليمات من الملك ، وكانوا قد أقاموا في وسط السوق منصة كبيرة تقوم على ستة أعمدة وفرشوها بالبسط الثمينة المقصبة ووضعوا هناك كرسيا فضيا مزينا بالفيرروز والياقوت والماس الكبير لكي يجلس عليه الشاه فأشار الملك الى أنطوني شیرلی كي يجلس على هذا الكرسي فركع أنطوني شیرلی واعتذر قائلا أن الاتكاء على أماكن العظام من سوء الادب ولكن الشاه لم يفتنع وأقسم برأس « على المرتضى(٢) » كي يطيعه وقال أن أي إيراني يبدي الكراهية للجلوس مكان الشاه تقطع رقبته مهما كان عزيزا ، ثم أخذ أنطوني شیرلی وأجلسه على الكرسي ثم أمر باحضار كرسي آخر لروبرت شیرلی . أما نحن جميعا فقد جلسنا متربعين على البسط .»

بعد هذا أحضروا موائد صغيرة للطعام بينها كانت تفرع الطبول

(١) هكذا بلغ عداء الشاه عباس للاتراك العثمانيين لأتهم سنة .
(٢) هو الرضا بن موسى الكاظم المدفون مع الخليفة هارون الرشيد في قصر حميد بن قحطبه الطمائي في ضواحي مدينة طوس للقديمة والذي تحول قبره الى مزار من أكبر مزارات الشيعة صارت مدينة مشهد اليوم (المترجم)

والدقوف ، وبعد ذلك دخلت المطربات الى المجلس وكن عشرين امرأة يلبسن ملابس غالية جميلة ، وكن يغنين وهن يرقصن على أنغام الموسيقى ، وبعد أن انتهى هذا الحفل أخذ الشاه يد السير أنطوني شيرلي وأخذاً يسيران يدا في السوق والازقة بينما الراقصات تتقدمنهما وهن يرقصن ويغنين استقبلنا الشاه عباس على هذا النحو لمدة ثمانية أيام ، وبعد ذلك أرسل الى السير أنطوني شيرلي ثلاث سرايا كبيرة مع كل لوازمها واثنى عشر جملاً وستة عشر بغلاً كلها بسروج قيمة وأربع قطع من السجاد الحريري الفاخر والمحلى بالذهب وست قطع من السجاد الصوف الخالص مع بسط جميلة أخرى وأربعة عشر حصاناً كريماً بالسروج والآلة للثينة من بينها سرجين وآلتين للحصانين الخاصين بالآخوين شيرلي مطعنين بالذهب ومزينين بالفيروز والياقوت وسرجين آخرين محليين بالذهب والباقي من القطيفة الفاخرة البيضاء مع كمية كبيرة من النقود الفضية وطلب من السير أنطوني شيرلي أن يقبل هذا المبلغ البسيط لنفقات شهر واحد ، ٠،٠٠٠ .

على هذا النحو اصطحب الشاه عباس السير أنطوني شيرلي ومرافقيه الى أصفهان ثم صحبه عند وصولهم الى أصفهان حتى المنزل الذي اختير لأقامته في تلك المدينة ، وفي اليوم التالي استبدل ملابسه وذهب الى منزل السير أنطوني وقدم اليه العزاء في أحد خدمه الإيرانيين والذي كان قد قتل خطأ بيده أثناء معاقبة جماعة من الجنود .

كان الشاه عباس قد منح أنطوني شيرلي أمير « ميرزا » وكان يخاطبه بلقب ميرزا أنطونيو وقد استطاع ميرزا أنطونيو خلال السنة أشهر التي أقامها في أصفهان - كما سبق أن ذكرنا - أن يجعل الشاه يعتقد في صدقه وإخلاصه كما استطاع أن يعلم مجموعة من الجنود الإيرانيين فنون الحرب الحديثة كما كانت آنذاك في الدول الأوروبية باستخدام الأسلحة النارية (١)

(١) كتب صامويل بيرشاس Samuel Purchas القس الانجليزى الذى سافر للشرق فيها بين ١٦١٣ ، ١٦٢٦ م (١٠٢٢ - ١٠٣٧ هـ) فى كتاب رحلته يقول : « الدولة العثمانية التى كانت باعثة رعب وفزع للعالم المسيحى أصبحت الآن فى رعب وخوف على مستقبلها من رجل انجليزى (السير أنطوني شيرلى) فقد تعلم الإيرانيون فنون الحرب من شيرلى ، وبينما لم يكن لديهم علم عن استخدام المدافع أصبح لديهم الآن خمسمائة عربة مدفعية برونزى وستون ألف بندقية ، ولهذا فإن الإيرانيين كانوا حتى الآن مبعث قلق العثمانيين وخوفهم وهم بالسيف ألغوا الرعب والفزع فى قلوبهم الآن بقذائف المدافع . . . »

(م ١٠ - إيران)

وذلك بمساعدة الله وردى خان قائد جيش ايران وكان مسيحيا جديدا
الاسلام .

وبعد هذا - وكما سبق أن ذكرنا في الفصل الخاص بعلاقة الشاه
عباس بالبرتغال واسبانيا - فقد اقترح على الشاه عباس أن يرسل سفيرا
الى بلاط ملوك أوروبا ليتحد معهم ضد الدولة العثمانية . وقد اختار الشاه
عباس أحد قواده وهو حسين على بك بيات كسفير وتطوع السير أنطوني
لمرافقته الى أوروبا وترك أخاه مع بعض المرافقين في ايران .

وقد سافر أنطوني شيرلى مع حسين على بيات الى أوروبا عن طريق
بحر الخزر وروسيا . ولم يعد الى ايران بعد هذا ، وقد فصلنا أخبار
سفارته الى المانيا وإيطاليا واسبانيا في الفصل السابق .

سيرة روبرت شيرلى

سبق أن أشرنا الى أن السير أنطونى شيرلى عندما كلف بالسفارة الى أوروبا من قبل الشاه عباس ترك أخاه روبرت شيرلى فى ايران ، وكان روبرت شيرلى آنذاك فى الثامنة عشرة من عمره شابا مؤدبا محبا للعلم عفيفا الى جانب الشجاعة وحسن السيرة والجمال والقامة الفارعة ، ولم يكن يطلق لحيته أبدا • كما كان قد أتم دراسته فى دار الفنون باكسفورد ، كما كان يدين بالمذهب الكاثوليكي على عكس مواطنيه ، وقد اختاره الشاه عباس تابعا خاصا له ومنحه لقب بك وجعل له ألفى أشرفى كراتب سنوى ، وفى بداية خدمته اختاره لقيادة مجموعة من الجيش الايرانى ، وحين دخل فى الحرب مع الحكومة العثمانية أرسله لميدان القتال •



وكان روبرت شيرلى يرتدى الملابس الايرانية دائما ويضع على رأسه عمامة القزلباشية ولأنه كان مسيحيا فقد كان يضع عليها صليبا صغيرا كما كان قد ثقب إحدى أذنيه وعلق فيها حلقة به ماسة كبيرة تتلأأ •



أحد القزلباشية صورة محفورة على النحاس سنة ١٥٨١ (٩٨٩ هـ

وقد كذب أخوه السير أنطونى عن سبب بقائه فى ايران فقال : « قبل أن أرد على عطف الشاه وتفضله على ، فان أخى الذى كان فكره يتجه للأعمال العظيمة يريد الإقامة فى ايران » ولم يكن أخى من الذين اذا وصلوا الى الشهرة والمنصب انصرفوا عن كسب العلم واختار الكسل والهوى واللعب ، بل كان منذ طفولته يجتهد فى كسب العلم والمعرفة والكمال ، ويسعى الى اظهار تفوقه فى معدنه الطيب ويقوى طبيعته البشرية فى مواجهة الاحداث والمصاعب . . . ولم يكن يخشى أبدا من أى خطر قد يواجهه ، »

ولما كان الشاه عباس يريد أن يبقى أخى فى ايران اثناء غيابه عنها ، فقد قال اننا نحن الاثنين تجمع بيننا الوحدة بحيث لا يوجد أى فرق فى آرائنا وأفكارنا ونحن متشابهان فى علاقتنا بصاحب الجلالة وميلنا لخدمته . ومع أن وعود البذل والعطاء من المخدم لخدمته مما يبعث على السرور وتجعل اطاعة الاوامر الملكية لازمة بل واجبة ، ولكننا بسبب ايماننا واعتقادنا فى آراء وعقائد الشاه فان كل ما يراه ويطلبه منا نعهده خيرا للدولة وصلاحا لانفسنا ونعد طاعته واجبة علينا . . . والآن وقد أمرتم جلالتم أن يبقى أحدنا فى ايران فاننى أطيع هذا الامر بكل الترحيب ، بل ان هذا الامر يمكن أن يعد باعثا على زيادة محبة الشاه لنا .

ويبدو أن السبب الاصلى لرغبة روبرت شيرلى فى البقاء فى ايران كان هيامه الشديد باحدى الفتيات فى الحرم الملكى . وكانت بنت أحد الامراء الشركس الذى أسلم حوالى عام ١٠٠٢ هـ وتسمى باسماعيل خان وتزوج للشاه عباس من أخته . فلما دخلت هذه السيدة الى الحرم الملكى أخذت معها ابنة أخيها وكان اسمها « سامبسونيا (١) » واهتمت بتربيتها فلمسا بلغت سامبسونيا سن الرشد أصبحت فتاة جميلة فاتنة وتفوقت على اقربائها فى ركوب الخيل والتطريز والرسم فجعلت الفن الى الجمال وأصبحت قبلة العشاق ومطعم الامراء ونظروا لان روبرت شيرلى كان نديما للشاه عباس يصاحبه فى حضره وسفره ، فقد وقع فى حب هذه الفتاة وعاش سنوات يطعم فى وصالها حتى تزوجها فى النهاية باذن الشاه عباس .

Sampsonia

بناء على ماسبق فان روبرت شيرلى بقى فى ايران مع خمسة من المرافقين الانجليز بعد سفر شقيقه السير أنطونى الى أوروبا ، ولما كان شابا ذا ارادة حسن السيرة جميل الطلعة فقد ازدادت محبة الشاه عباس له ، وكانت اول مهمة كلفه بها الشاه عباس هى تعيينه قائدا لجماعة من القزلباشية وارساله لحرب العثمانيين . وقد بذل روبرت فى هذه المهمة كل الاخلاص والشجاعة وجرح ثلاث مرات فى المعارك التى خاضها الشاه عباس مع الاتراك العثمانيين فى عامى ١٠١٣ ، ١٠١٤ هـ وننقل هنا خلاصة ماجاء فى نسخة خطية من كتاب « الاخوان شيرلى » عن تفصيل اشتراكه فى الحروب الايرانية العثمانية :

« بعد سفر أنطونى شيرلى اختير أخوه روبرت لمنصب قيادى ، ونال فى الحرب الايرانية العثمانية رتبا عالية . وقد أبدى من الشجاعة والافتداف ماجعل الايرانيين يمنحونه تاج القزلباشية تذكارا لانتصاراته . فيوم واجه الاتراك أخذ حربه فى يده وهجم على الاتراك هجوما جعلهم يدهشون من شجاعته ويلوذون بالفرار وقد اقتدى به جنوده وأخذوا فى قتل أعدائهم بسيوفهم ، وقد أبقى روبرت شيرلى وحده على حياة ثلاثين من قادة الجيش العثمانى وحملهم الى حضره الشاه ثم كتب (رسالة) الى المسئولين العثمانيين قائلا « أن أطلتكم سراح أخى السير توماس شيرلى فاننى سأطلق فى مقابله سراح أسراكم الثلاثين ولكن الاتراك لم يقبلوا طلبه وردوا عليه ردا جافا . ومع أن روبرت شيرلى كان يعلم مدى تعب جنوده وأن للحرب الاخيره قد أنهكتهم الا أنه لم يخف أو يتردد وأمر جنوده فقطعوا رؤس أسراهم الثلاثين الذين كانوا جميعا من قادة الجيش العثمانى وأمرهم فجعلوها على أسنة الرماح وطافوا بها فى الاسواق ، ثم أقسم أما أن ينفى عدوه أو يكون جثة فى ميدان القتال » .

ثم أخذ فى ترتيب الجيش ، وحينما شعر أن الخوف يستولى على جنده لكثرة عدد جيش أعدائه توجه اليهم قائلا : « أيها الجنود الشجعان الايرانيين أننى أعرف أنه لا حاجة للخطب الطويلة لاثارة حميتكم وتشجيعكم فمثل هذا

مثل من يسكب الزيت على النار أو يهزم الفرس الجامحة المتحفزة فان ثباتكم وشجاعتكم في المعارك السابقة خاصة في الحرب الاخيرة قد اثبتت لى أن مدد الاعداء حتى ولو كان أضعاف عددهم الآن فان الفصر سيكون لنا وحميتى تقتضى أن تقدمكم في هجوم اليوم وسأقاتل حتى آخر نفس وأجاهد طالما لم يحل الموت بينى وبين أداء الواجب فاجعلونى قدوة لكم في التضحية واتبعونى في جراءة واطمئنوا أن النصر لنا ، *

ثم أسدل نقاب خوذته وهزم فرسه وهجم على العدو بعنف و غضب وأسرع الجنود الايرانيون خلفه وكانوا في عجب من شجاعته اذ كان يهاجم في كل اتجاه وصوب كالاسد الجسور فيقتل كل من يراه من الاعداء ، فخر الاتراك خوفا من شجاعته وجراته وبعضهم ترك سلاحه وسلم ، وفي هذه الحملة أسر ستين من قادة الجيش العثماني أيضا ، فكتب رسالة أخرى لقائد الجيش التركي لانتقاذ أخيه لديهم في مقابلهم *

وكانت شجاعة روبرت شيرلى واخلاصه سببا في أن منحه الشاه عباس تاج القزلباشية - كما سبق أن ذكرنا - كما سمح له أن يرتدى الملابس الايرانية ، ثم أذن له فيما بعد أن يتزوج من سامبسونيا - بنت أحد كبار الشركس واسمه اسماعيل خان - وفي أحد الأوامر التى صدرت باسم وختم الشاه أشير الى روبرت على أنه « قد أدى مايكتفيه فخرا حتى آخر العمر » *

وكتب بيترو دلا فالليه السائح الايطالى - الذى جاء الى ايران سنة ١٠٢٥ هـ وبقي فيها خمس سنوات - يقول في هذا الصدد : « كان الشاه عباس أحيانا يعطى درجة القزلباشية الى الاجانب الذين كان ينظر اليهم بعين العطف والرعاية ، وكان يشرفهم باعطاء تاج القزلباشية ، ولكن هذه المكرمة كانت نادرة الوقوع ، وقد علمت من أحد الثقات الذى قضى في ايران خمسة عشر عاما أنه لم يشرف أحدا بهذا الفخر الا لواحد فقط وليس لهذا الامر مراسم أو تشريفات خاصة سوى أن يضع الشاه التاج على رأسه مع بعض كلمات المحبة والعطف » *

ولم يحظ بتاج القزلباشية من الاوربيين الا روبرت شيرلى الانجليزى الذى ارسل منذ بضع سنوات في سفارة الى ايطاليا مبعوثا من قبل الشاه

وذهب الى بلاط البابا وهو الآن يقوم بهذه المهمة لدى باقى ملوك أوربا ، وقد سمعت أن هذا الانجليزى هو الذى طلب تاج القزلباشة من الشاه وأصر على هذا كثيرا ويقولون أن روبرت شيرلى وضع على طرف عمامته الحمراء صليباً صغيراً • كى لا يعرض نفسه لسبب الاوربيين ولومهم •

بعد أن ظل روبرت شيرلى فى ايران مدة عشر سنوات صمم على العودة الى وطنه لان أخاه أنطونى لم يعد لايران ، ولكن هذا الامر كان غير ممكن دون موافقة الشاه عباس وأذنه ، كما أن حبه لسامبسونيا ابنة الشركسى المسلم كان يؤرق مضجعه ، ولهذا أوعز الى أحد أقاتربه فى انجلترا أن يبعث له برسالة يقول له فيها أن أخاه أنطونى قد عين قائدا لحدى الفرق الاسبانية من قبل الملك فيليب الثالث ، وعندما وصلت هذه الرسالة الى أصفهان طلب من القسس الكرمليين هناك أن يصدقوا على هذه الرسالة ، ثم عرضها على الشاه عباس ، وقال له طالما كان أخى قد وصل الى هذا المنصب الرفيع والى صداقة ملوك أوربا فان على الشاه عباس أن يرسل سفيرا جديدا الى أوربا حتى يثير ملوك أوربا ضد العثمانيين بمساعدة السير أنطونى شيرلى ثم تطوع لكى يقوم بهذه المهمة بنفسه •

وقد وافق الشاه عباس على اقتراحه نظرا لما كان قد قدمه من خدمات فى الحروب الايرانية العثمانية ، كما سمح له بالزواج من حبيبته سامبسونيا (١) وأخذها معه الى أوربا •

وقد تم زواج روبرت شيرلى وسامبسونيا يوم ١٥ شوال سنة ١٠١٦هـ (فبراير ١٦٠٨م) وغيرت الفتاة الشركسية الحسنة التى كانت قد عمدت على يد راهبات جماعه الكرمليين المسيحية اسمها الى تريزا تيمنا باسم القديسة تريزا إحدى مصلحات وراهبات هذه الجماعة •

وقد توجه روبرت شيرلى - كما ذكرنا فى الفصل السابق - فى يوم ٢٤ شوال ١٠١٦ هـ - أى بعد تسعة أيام من زفافه - مع بعض الايرانيين فى سفارة الى أوربا عن طريق بحر الخزر وروسيا ، وكان هذا الانجليزى أثناء اقامته فى ايران قد استطاع أن يكتسب صداقة الشاه عباس وجماعة من

Sampsonia

(١)

أعيان وزعماء ايران • الا أنه كان يوجد كثير من الاعداء بين رجال الدين والمتعصبين الايرانيين ، ولهذا السبب هاجمت جماعة من أعدائه قافلته أثناء سفره وبعد أن استولت على أسلحة مرافقيه ربطوه الى شجرة ، وكانوا على وشك اعطائه السم ولكن في هذه الاثناء سقط سيف أحد قطاع الطريق ، واستطاعت تريزا زوجة روبرت شيرلي أن تلتقط السيف بمهارة وهاجمت اللصوص بشجاعة وقتلت أحدهم وأنقذت زوجها من القيد وواصلت الخافلة السير •

أول سفارة لروبرت شيرلي في إنجلترا

بعد سفر طويل لروبرت شيرلي في روسيا وبولندا والمانيا وإيطاليا واسبانيا ، والقيام بمهمته في بلاط البابا وملوك الدول المذكورة ، صمم على الذهاب من أسبانيا الى إنجلترا وتقديم مقترحاته - فيما يتعلق بتجارة ايران وإنجلترا - الى ملكها جيمس الاول .

يتضح من الرسالة التي كتبها كانينجتون - سفير إنجلترا في أسبانيا بتاريخ ١٨ شوال ١٠١٩ هـ (٥ يناير ١٦١١ م) الى اللورد سالزبوري وزير خارجية الملك جيمس الاول ، أن روبرت شيرلي كان غير مرتاح من سلوك ملك إنجلترا تجاهه . فلن يستقبله الملك بالتشريفات والمراسم التي يستقبل بها السفراء الاجانب . ومن هنا فانه سيصبت مذنباً ومسئولاً أمام شاه ايران ، كما أن روبرت شيرلي اعتقد ان بلاط أسبانيا يعارض ذهابه الى إنجلترا ، وكان يريد أن يعرف ماذا سيفعل ملك إنجلترا للحصول له على إذن بمغادرة اسبانيا ، ولهذا فقد اطلع السفير الانجليزي على موجز للموضوعات التي كان يريد ابلاغها باسم الشاه عباس الى ملك إنجلترا . وبناء على مقترحاته فان الشاه عباس كان مستعداً لعقد اتفاقية صداقة مع إنجلترا ، ويمنح رعاياها تسهيلات تجارية في ايران ويسمح للتجار الانجليز بتأسيس مراكز تجارية في ميناءين من موانئ جنوب ايران . ويكون لإنجلترا في هذين الميناءين مندوبون سياسيون ، ويصبح المسئولون في شركة الهند الشرقية الانجليزية احراراً في المسائل التجارية في هذين الميناءين حرية تامة . كما كان الشاه عباس يريد شراء بعض السفن من إنجلترا وكان يرغب في أن تحمل أجزاء هذه السفن على السفن الانجليزية الى موانئ جنوب ايران على الخليج حيث يجري تجميعها وتكميلها ويدفع ثمنها مجزياً لها .

كما أن شاه ايران كان على استعداد لان يصدر الحريز الإيراني على السفن الانجليزية فقط وبواسطة التجار الانجليز عن طريق الخليج الفارسي وجنوب أفريقيا الى إنجلترا وباقى دول أوروبا بشروط عادلة بعد أن كان أغلبه يصدر الى أوروبا عن طريق الاراضى العثمانية ، وأن يستورد بدلاً منه بضائع انجليزية عن نفس الطريق الى موانئ الخليج حيث تحمل بعد ذلك

الى داخل ايران وبهذا يصل الحرير وباقي البضائع الايرانية والشرقية الى أوروبا بثمن أقل . ولكي يحرم التجار وعمال الدول العثمانية من المكاسب الوفيرة التي كانوا يحصلون عليها من هذا الطريق . كما أن الشاه عباس كان أيضا على استعداد لعقد معاهدة عسكرية مع ملك إنجلترا وأن يمدّه في أي وقت يشاء بما يتراوح بين عشرين وخمسة وعشرين ألف جندي . ويُبدؤُ أن هدف الشاه عباس من وراء الاقتراح الأخير هو تهيئة الجو لاتحاد إنجلترا وإيران ضد البرتغاليين والاسبان في سواحل الخليج وخاصة في جزيرة هرمز .

ويتضح من هذا أن الهدف الرئيسي من وراء ذهاب شيرلي الى إنجلترا هو عقد معاهدة تجارية مع الملك جيمس الاول بناء على أوامر الشاه عباس لكي ينشئ طريقا جديدا لتصدير الحرير ومختلف البضائع الايرانية الى أوروبا حتى لا يضطر التجار الايرانيين الى تصدير بضائعهم عن طريق الاراضي العثمانية ، وبهذا يحرم السلطان العثماني من الجمارك والرسوم التي كان يحصلها على البضائع الايرانية .

لهذا

بقى روبرت شيرلي معطلا في اسبانيا مدة طويلة بسبب المشاكل والموانع المختلفة التي واجهته - كما سبق أن أشرنا - وفي ربيع الثاني سنة ١٠٢٠ هـ (يونيو ١٦١١ م) توجه بالسفينة الى إنجلترا . وبعد رحلة استغرقت شهرين مع زوجته تريزا اتيح له أن يرى بيت آبائه في إنجلترا، وفي يوم ٢٣ رجب من نفس العام (أول أكتوبر ١٦١١ م) استقبله ملك إنجلترا في قصر « هامبتون كورت » واطلع على خطابات الاعتماد وقدم روبرت شيرلي اليه رسائل الشاه عباس ، وقد جاء في إحدى رسائل الشاه عباس المؤرخة في ١٩ رمضان ١٠١٩ هـ بعد المجاملات الملكية « أنه لما كان بعض كبار حكام أوروبا قد أرسلوا الينا بعض القسس ورجال الدين لعقد معاهدات واتامة علاقات صداقة أخوية معنا ، لهذا رأينا أن نرسل روبرت شيرلي الانجليزى الذى أمضى سنوات في خدمتنا ، كما أنه رجل لائق وعزيز ومورد اعتماد وثقه لدينا كسفير الى الملوك المسيحيين بدلا من إرسال أحد رعايانا . وبما أنه منا ومنكم أيضا فقد أرسلناه اليكم والى جميع الملوك المسيحيين » .

وأشار بعد هذا الى أن مبعوثى ملوك أوربا كانوا قد اقترحوا عليه أن الامبراطورية العثمانية يجب أن تهاجم من الجانبين حتى يقضى عليها تماما ، وأنه قد وافق على هذا الاقتراح وكتب اليهم أن يهاجموا الاراضى العثمانية بأسرع ما يمكن من جهة الشام وحلب أو أية ناحية أخرى يرونها مناسبة * حتى يقوم هو بدوره بالهجوم عليها من ناحية ديار بكر والولايات الغربية الايرانية كما كان قد فعل هذا عدة مرات في ذلك الوقت *

أما فيما يتعلق بروبرت شيرلى فقد كتب الشاه عباس الى ملك إنجلترا أن روبرت قد خدمة عدة سنوات في غاية الاخلاص والصدق وأنه موضع ثقته ورضاه ، وهو يتوقع الا يتوانى الملك عن رعايته وبذل المعونة له كما طلب أيضا أن تتبادل الدولتان السفراء المقيمين حتى تقف الدولتان على رغباتها وأحوالها عن طريقهما *

وبعد اثنى عشر يوما كلف أربعة من التجار الانجليز المتعاونين مع شركة الهند الشرقية بالنظر في مقترحات شيرلى وبحثها ، وقد كتب أحدهم في الرسالة التى بعث بها الى السير ددلى كارلتون (١) - أحد رجال البلاط الانجليزى - يعرض وجهة نظره فقال : « أن مقترحات روبرت شيرلى تبدو غير قابلة للتنفيذ نظرا لطول الطريق كما أن العلاقات التجارية الايرانية الانجليزية تافهة ، كما أن قبول مقترحاته ستؤدى الى قطع العلاقات التجارية الانجليزية مع العثمانيين *

وقد عارض التجار الانجليز الذين كانت لهم علاقات تجارية مع العثمانيين مقترحات شيرلى وحالوا بينه وبين تحقيق مساعيه ، ومع كل هذا فان جيمس الاول أبدى استعدادا لعقد معاهدات صداقة وتجارة مع ايران يلتزم بها ويلتزم بها من يخلفه ، كما أنعم على روبرت شيرلى برتبة فارس في البلاط ، ولهذا أصبح لقبه منذ ذلك الحين السير روبرت شيرلى *

بعد اقامة السير روبرت شيرلى في إنجلترا لمدة عام ونصف غادرها متوجها لايران وقد أمر جيمس الاول احدى السفن الانجليزية كان اسم مالكا هنرى ثاين (٢) وقائدها الربان نيوبورت بحمله هو وزوجته ومرافقيه

(١) Sir Dudley Carleton (٢) Henry Thynne

عن طريق أفريقيا الى الهند وقد أبدى مالك السفينة استعداده لنقل السير الايراني ومرافقيه الذين لم يكن عددهم يتجاوز ٢٥ شخصا الى الخليج والبقاء في ايران ثمانية أشهر حتى يعد شيرلى في هذه المدة البضائع التي تكفى حمولة هذه السفينة وهى نحو مائة طن من الحرير الخام والقطن والمنسوجات المختلفة والسجاد والنبيلة ويعفيها من جميع الجمارك والرسوم . وبناء على الاتفاق الذى عقد بين هنرى ثاين وروبرت شيرلى ، فان ثلثي أرباح هذه الصفقة يكون لمالك السفينة وثلثه لروبرت شيرلى ، كما أن السفير الايراني كان قد تعهد بأن يحصل من الشاه عباس على منحة للعاملين على السفينة .

وقد منح جيمس الاول مبلغ خمسمائة جنيه الى شيرلى لخفقات ببقية الطريق من الهند الى ايران ، وأعطاه رسالة للشاه عباس . وقد وصل السفير الايراني وزوجته (١) ومرافقوه الى هيناء دوفر في ذى القعدة سنة ١٠٢١ (يناير ١٦١٣ م) وركب الوفد السفينة متوجهين الى ايران ، ووصل في أواخر سنة ١٠٢٣ هـ الى ساحل ولاية السند في الهند وذهب الى مدينة تهته وقد حرض البرتغاليون الذين كانوا غير راضين عن سفارته ، جماعة من الناس هناك فضربوا منزله بالمدايع وأزالوه من مكانه ، ولكن شيرلى ورفاقه صمدوا للهجوم الذى قتل فيه اثنان من مرافقيه . ولما كان شيرلى مكلفا من الشاه عباس بالذهاب الى بلاط نور الدين محمد جهانجير الملك الجوركانى لهذا فقد غادر تهته وتوجه الى أجره ، وبعد الانتهاء من مهمته عاد الى ايران حاملا هدايا الملك جهانجير التى كان من بينها زوج من الاميال . فوصل الى اصفهان في شهر جمادى الاول سنة ١٠٢٤ هـ .

(١) كانت تريزا قد أنجبت ولدا أثناء اقامتها في انجلترا أسموه هنرى ، وقد تركاه هناك عند عودتهما الى ايران .

رسالة ملك انجلترا الى الشاه عباس

« بعد واجب الدعاء ، فانه ربها اتضح لجلالتكم أننا تعجبنا من أن ملكا عظيما مثلكم يرسل الينا رسولا هو في الاصل تابع لنا كما أنه خادم لكم . . . ولما كان البك الاعظم (شيرلى) قد جاء سفيرا من قبلكم الى عرش ملوك أوربا والينا ، فقد استبقيناها لدينا بعض الوقت . ولما كان المذكور من أبناء هذه البلاد ومن أبناء العظماء ، فقد قدمنا له كل الاحترام والاعزاز وذلك لما بيننا وبينكم من وحدة وصداقة ، بالنسبة للخدمات التي قدمها جلالتكم للبك فاننا سوف نردها أضعافا مضاعفة وهناك موضوعات لم نستطع ذكرها في هذا الرسالة سوف يعرضها عليكم شفاهنا ونحن نتوقع الا تزول محبتنا من ذاكرتكم كما نبذل الروح في سبيل صداقتكم ونحن نرجو حين يذهب أتباعنا الى بلادكم الاتحرموهم من عزتكم وحمايتكم والله يعلم أن البك (شيرلى) قد قام بسفارته لدى ملوك أوربا على النحو لايتسع المجال في هذه الرسالة لذكره ، وأنا ادعو لكم ليل نهار بالنصر والفتح دائما وأن يزول عدوكم ويفنى وينهزم الروم (الاتراك) الشوم ونرجو أن ينفذ كل أمر قد تطلبونه منا ولا نطيل عليكم ولتدم أيام المحبة» (١) ،

عندما عاد السير روبرت شيرلى الى أصفهان بعد ما يقرب من ثمانى سنوات قضاهها بعيدا عن ايران استقبله الشاه عباس بكثير من اللطف والمحبة ، وهيا له في الليلة الاولى لوصوله مكانا فى المخدع الملكى وكان شيرلى بعد هذه الرحلة يريد البقاء فى اصفهان ولا يغادر ايران ولكن الشاه بعد فترة قصيرة طلب منه العودة الى أوربا فى سفارة جديدة ، وعلى الرغم من الامتناع عن قبول هذا الامر متذعرا بعدم استعدادده وزوجته لهذا السفر الطويل مرة ثانية الا أن شاه أصر على أمره .

أشرنا فيما سبق الى أن الشاه عباس كان فى ذلك الوقت قد استولى على جزر البحرين وكيش وميناء جمبرون من البرتغاليين ، وكان يفكر فى الاستيلاء على هرمز أيضا من ناحية أخرى كان فيليب الثالث ملك أسبانيا

(١) مجموعة رسائل الشاه عباس بالمكتبة الوطنية بنابولى .

قد طلب من الشاه عباس أن يخض بصره عما كان قد استولى عليه في الخليج وسواحل إيران ، فأراد الشاه عباس أن يرسل روبرت شيرلى الى أوربا آملا في أن يقوم فيليب الثالث بمحاربة الدولة العثمانية وفي اقامة اتحاد مع البابا والملوك المسيحيين *

رضخ روبرت شيرلى في النهاية لقبول هذه السفارة ، وحينما وصل هذا الخبر للشاه عباس بلغ به الفرح والسرور أن أقسم على رأسه أن أى شىء يطلبه منه شيرلى سيلبي له في الحال ، فرجاه روبرت شيرلى أن يرسل معه أحد القسس الكرملين اسمه رديمثو دلا كروز كان يعيش مع القس جان تاديه في أصفهان ، وقد وافق الشاه عباس على طلبه وأصدر أمرا خاصا في هذا الشأن ننقله عينا هنا * وقد توجه روبرت شيرلى مرة ثانية الى أوربا آملا في أن يقوم فيليب الثالث بمحاربة الدولة العثمانية وفي اقامة فيما بعد *

أمر الشاه عباس

بخصوص إرسال القس رديمثو دلا كروز
مرافقا للسير روبرت شيرلى الى أوربا
الملك لله

صدر الامر الهمايونى

لما كان الابوان الكيران عميدا الزهاد(١) المسيحية الاب جـون والأب رديمثو قد جاءا من بلاد الفرنج لخدمتنا وأقاما في هذه الديار وفي هذا الوقت الذى أرسلنا فيه صاحب العزة البك الاعظم الدون روبرت شيرلى كسفير ورسول الى بلاد الفرنج وخدمة ملوك الفرنج العظام وقررنا أن الاب العظيم جوان (تاديه) يرسل رفيقه الاب رديمثو بدواعى الثقة مع البك المذكور الى حضرة ملوك أوربا ويبلغا رسائل من قبلنا وقد كان هناك قبل هذا في خدمتنا وقام المشار اليه بارسال الاب ديمثو مع البك المذكور حسب أمرنا وأبقينا هنا الأب جوان فيجب على الاب المذكور حينما يصل الى أى مكان وأية ولاية من مملكتنا أن يقدم له الاحكام والمسؤولون عن الأمن وجميع الناس كل الترحيب وكمال الاحترام ، وألا يمنعه من أى مكان وقد أعلموا حتى يتجنبوا التقصير * تحريرا في شهر رمضان المبارك ١٠٢٤ هـ

(١) يقصد الرهبان *

بداية العلاقات السياسية والتجارية

الايروانية مع شركة الهند الشرقية

بداية تأسيس شركة الهند الشرقية الانجليزية :

بعد أن وصل البرتغاليون الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح وأقاموا هناك مراكز تجارية لهم ، صمم التجار الانجليز على الوصول الى الهند حتى لا يحرموا من أرباح التجارة مع هذه البلاد التي تدر الذهب .

وقد حاول البحارة الانجليز في البداية الوصول الى الهند عن طريق الممر الشمالي الغربي - أى طريق شمال أمريكا الشمالية - فلما لم يصلوا عن طريقه الى هدفهم حاولوا الوصول عن طريق روسيا ، وكان من بين هذه المحاولات رحلات أنطوني جينكينسين الذى تحدثنا عنه قبل هذا ، والتي كانت تهدف لنفس الغرض .

كان أول من سافر الى الهند لايجاد علاقات تجارية شاب اسمه توماس ستيفينسن (١) من طلبة كلية اكسفورد سافر سنة ٩٨٧ هـ (١٥٧٩م) الى ميناء جوا وأصبح رئيس مدرسة اليسوعيين (٢) هناك ، وأرسل هذا الشاب رسالة الى أبيه كان انتشارها بين التجار الانجليز سببا في ايجاد رغبة شديدة لاقامة تجارية مباشرة مع الهند .

وفي سنة ٩٩٥ هـ (١٥٨٧ م) وقعت احدى السفن البرتغالية واسمها سان فيليب اسيرة في يد البحار الانجليزى الشهير فرانسيس دريك ، وقد استطاع التجار الانجليز الحصول على معلومات أكثر وأدق عن التجارة الهندية وذلك من الوثائق والمستندات التي وقعت في ايديهم من السفينة فزادت هذه المعلومات ورغبتهم في اقامة الروابط التجارية المباشرة مع الهند .

Thomas

(١)

(٢) اليسوعيين أو الجزويت Les Jesuites أو جمعية عيسى Campagne de Tesus أسسها أحد القديسين المسيحيين اسمه سان ايناس دى ليولا San Ignace de Loyola سنة ٩٤٢ هـ للتبشير للمسيحية ، ومن بين المبادئ الدينية لهذه الجماعة الطاعة التامة للبابا .

وبعد ذلك أيضا وعندما حطم الاسطول الانجليزي اسطول فيليب الثاني ملك أسبانيا ، الذي لايهزم ، سنة ١٥٨٨ م اطمأن الانجليز الى قوتهم البحرية ، وأدركوا أن مقاومة القوات البحرية الاسبانية البرتغالية أمر غير محال ، ولهذا رأى تجار لندن أن يقللوا من نفوذ البرتغاليين وقدرتهم في المحيط الهندي حتى المقدور ويحصلوا على نصيب من تجارة الهند المربحة .

وقبل المعركة البحرية بين الانجليز والاسبان بخمس سنوات - أي في سنة ٩٩١ هـ - (١٥٨٣ م) كان أربعة من السياح الانجليز هم رالف فيتش ووليام ديدز وجان نيوبري وجيمس ستوري (١) قد كلفوا بدراسة الاوضاع الاقتصادية والتجارية لدول المشرق ، وقد حملوا معهم رسائل من الملكة اليزابيث الى ملوك الهند وامبراطور الصين .

وقد سافر هؤلاء السياح من طرابلس الى بغداد والبصرة والخليج ثم جزيرة هرمز ، وهناك اعتقلهم البرتغاليون بتهمة التجسس وأرسلوهم الى ميناء جوا (٢) - مركزهم التجاري في الهند - والقوم في السجن ، ولكنهم تمكنوا من الهرب سنة ٩٩٣ هـ (١٥٨٥ م) .

وقد تمكن رالف فيتش وحده من العودة الى انجلترا بعد جولة في جزء كبير من الهند وبورما والملايو وسيام وأخذ في كتابة رحلته التي تضمنت موضوعات مثيرة عن ثراء وقدرة الشرق الدائمة ، مما جعل التجار الانجليز يصممون على الاستفادة من هذه الثروة وأخراجها من احتكار البرتغاليين .

وفي ٢٤ جمادى الثاني ١٠٠٩ هـ (٣١ ديسمبر ١٦٠٠ م) أسست شركة الهند الشرقية الانجليزية تحت اسم « شركة تجار لندن الذين يتاجرون مع الهند الشرقية » بأمر من الملكة اليزابيث وبدأت هذه الشركة مزاوله أعمالها فأرسلت بعض السفن التجارية الى الشرق . ففى المدة من ١٠٠٩ الى ١٠٢٠ هـ (١٦٠٠ - ١٦١٢ م) ذهبت اثنتا عشر سفينة تجارية الى الهند وافتتحت تجارة انجلترا مع تلك البلاد .

(١) James Story, John hewbury - William Deedes - Ralph Fitch

(٢) كتب فيتش يقول « ٠٠٠ بعد وصولنا الى جزيرة هرموز القوا القبض علينا وصادر حاكم الجزيرة وكان اسمه ماتياس دى البوكيرك كل امولنا ونقلنا يوم ١١ اكتوبر سنة ١٥٨٣ بالسفينة الى نائب الملك في مستعمرة جوا بالهند .

في سنة ١٠١٧ هـ (١٦٠٨ م) وصلت أول سفينة تابعة لشركة الهند الشرقية بقيادة ويليام هوكينز(١) الى ميناء سورت على الساحل الغربي للهند ، وكان هذا الربان يحمل رساله توصية من جيمس الاول ملك انجلترا الى نور الدين محمد جهانجير ملك الهند ، وقد وفق الى حد ما في مهمته . وبعد أربع سنوات وصلت ثلاث سفن انجليزية أخرى بقيادة توماس بست(٢) وقد وفق هذا الرجل الى عقد معاهدات تجارية مع المسئولين المحليين في ميناء سورت ، كما تمكن بعد ذلك من تأسيس مركز تجارى في ذلك الميناء

وبعد ثلاث سنوات رأت شركة الهند الشرقية أن يذهب ممثل سياسى من انجلترا الى بلاط ملك الهند الجوركاني للمحافظة على مصالح الشركة في الهند من المضايقات العلنية التي تثيرها البرتغال في وجه مصالح الشركة وقد وافق جيمس الاول على هذا الموضوع وأرسل أحد الانجليز المحنكين اسمه سير توماس رو(٣) عرف بكثرة اسفاره والملمه بأداب وتقاليده البلاد - كسفير الى بلاط الشاه سليم .

وقد تضمن الامر الصادر من الملك جيمس الاول في ٢٩ ديسمبر سنة ١٦١٤ م التعليمات الآتية بشأن هذه السفارة :

« يكلف السير توماس رو الذى يذهب بناء على أوامرنا الى بلاط المغولى الكبير أمبراطور الهند بأن يحترم حيثيتنا ومقامنا الملكى في كل مكان وزمان لاننا أولياء نعمته ، كما أننا ندين بدين المسيح وعليه أن يعمل على تقديم شأن شركة تجارة الهند وألا يحيد عن أوامرها لاننا نرسله أساسا لهذا الغرض . وإذا سأل المغولى الكبير لماذا لا يترك البرتغاليون جوا ومحاولها رعايانا ويعادونهم دائما ويُعارضونهم فعليه أن يجيب بأن البرتغاليين يريدون اغتصاب تجارة الهند واحتكارها ، ومع أن انجلترا ليست عاجزة عن تحطيم قواتهم ، الا أن صاحب الجلالة ملك انجلترا لا يريد اللجوء الى الحرب أو وسائل القوة والعنف » .

على هذا النحو قامت شركة الهند الشرقية الانجليزية على أساس محكم قوى وأدى هذا الى تقدم عظيم في النواحي السياسية والاجتماعية

William Hawkins

Sir Thomas Roe

(٣)

Thomas Best

(١)

(٢)

في القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر في إنجلترا كما يتضح من تاريخها • أما شرح الاجراءات التي قامت بها شركة الهند الشرقية وبيان مدارج رقيها في الهند فانه يخرج عن موضوع هذا الكتاب ، ولهذا فاننا نتجاوزها الى الجزء الذي يرتبط بالعلاقات السياسية والتجارية الايرانية ارتباطا مباشرا •

بعد أن ازدهرت شركة الهند الشرقية في الهند ، راجت فيها البضائع الانجليزية خاصة الجوخ فهذا ارسل المسؤولية عن الشركة مقادير وامره من البضائع الانجليزية الى الهند مما أدى الى زيادة العرض على الطلب فظلت في المخازن ، مما اضطر رئيس المركز التجاري الانجليزي وكان اسمه ترماس الدوورث (١) الى البحث عن أسواق جديدة •

في هذا الوقت وصل الى ميناء سورت شاب انجليزي اسمه ريتشارد ستيل (٢) كان قد سافر الى ايران سنة ١٠٢٣ هـ (١٦١٤ م) للبحث عن أحد المدينين له ، ومن هناك ذهب الى سورت وتحدث مع رئيس المركز التجاري عن استعداد ايران للتجارة مع شركة الهند الشرقية وحاجة هذه الدولة الى الجوخ الانجليزي خاصة لبرودة جوها ، وقد ألح على هذا الموضوع حتى أن مندوب الشركة صمم على اقامة علاقات تجارية مع ايران وارسل ستيل مع شخص انجليزي آخر اسمه جون كروثر (٣) الى عاصمة ايران حتى يحصلوا له على المعلومات اللازمة عن التجارة الايرانية واذا تمكنا من أخذ أمر من الشاه عباس يتيح لسفن الشركة حرية الملاحة في الخليج وموانئ ايران لتقوم بالتجارة دون موانع •

وفي هذا الوقت كان السير روبرت شيرلي قد عاد من أول سفارة له في أوروبا (جمادى الاولى ١٠٢٤ هـ) وكان ستيل وكروثر يحملان اليه خطابات توصية من الشركة ، ولكن شيرلي استقبلهما في بداية الامر ببرود ولم يهتم بطلباتهما ، ولكنهما تمكنا في سنة ١٠٢٥ هـ (١٦١٦م) من تحقيق أهدافهما وأصدر الشاه عباس أمرا خاصا طلب فيه من رعاياه في كل مقام ورتبة أن يعاملوا التجار والمسافرين الانجليز معاملة طيبة ومضمون هذا الامر هو :

Richard Steele (٢)
John Crawther

Thomas Aldworth (١)
(٣)

« الى كل رعايانا من كل مقام كبيرهم وصغيرهم الى رؤساء السحولة وأعيانها أمرهم جميعا عندما تدخل أية سفينة تابعة للانجليز ميناء جاسك أو أى ميناء آخر فى مملكتنا أن يعاملوا الانجليز بكل حب واحترام ويحملوهم بما معهم من بضائع الى أى مكان يرغبون الذهاب اليه ، وعليهم أن يدافعوا عنهم وعن أموالهم فى مواجهة اعتداءات أى فرنجى آخر كما يجب • هذه ارادتنا كما نأمر كل رعايانا باتباع هذا • كتب فى العاصمة الملكية بتاريخ شهر رمضان ١٠٢٤ هـ (سبتمبر / أكتوبر ١٦١٦ م) •

الى جانب هذا كلفت شركة الهند الشرقية مبعوثيها سنيل وكروثر بالسفر الى موانى الخليج ليختاروا أنسبها لرسو السفن وتفريغ وحمل البضائع • وبعد رحلة الى موانى جاسك وجمبرون وريشهر (بؤشهر) والبحرين وقع اختيارهما على ميناء جاسك الذى يقع على بعد ٩٠ ميلا شرق جزيرة هرمز وكتبوا للشركة أن ميناء جاسك يقع على مقربة من مدخل الخليج ، ولهذا فهو غير معرض لتهديد السفن البرتغالية أو هجومها مثل جزر البحرين ، كما أنه أنسب لرسو السفن •

بعد أن وصل أمر الشاه عباس لمسئولى شركة الهند الشرقية فى الهند بدأوا فى الاستفادة منه ، وكان السير توماس رو يعتقد أن أمر الشاه عباس لايمكن الاستفادة منه على الوجه المطلوب لخلوه من الاشارة الى اقامة قلاع واستحكامات فى مقابل الاستحكامات البرتغالية القوية فى هرمز ، كما أنه لم يخصص ميناء معين للتجارة الانجليزية • وكان يرغب فى أن ترسله الشركة مندوبا عنها لبلاط الشاه عباس لبحث الاوضاع التجارية والاقتصادية فى ايران •

فى نفس ذلك العام ارسل السير توماس رو رسالة الى شركة الهند الشرقية مضمون جزء منها ما يلى :

« تجارنا لايعرفون مايجب عمله فى التجارة مع ايران ، فميناء جاسك ليس مكانا مناسباً لبيع تجارتنا ، وما أرسل الى هناك لم يتم بيعه لأن الى جانب أن روبرت شيرلى ذهب الى أسبانيا كسفير من قبل الشاه عباس ليعقد اتفاقا مع ملك أسبانيا والبرتغال يتيح لتجار هاتين الدولتين اقامة

مراكز تجارية في ميناء جمبرون ، وكل النقط الساحلية على الخليج واحتكار شراء وتصدير البضائع الإيرانية ، ويرسلوا الى ايران كل عام عدة سفن محملة بالتوابل والكتان الهندي لبيعها هناك مقابل ذلك . فاذا وفق شيرلي في مهمته فان نشاط رجالنا وجهودهم ستعرض للفشل » .

وفي نفس الوقت كتب رسالة الى الشاه عباس وضمن شكره على الامر الذي أصدره للشركة لمح فيها الى أن عقد اتفاق جديد مع الحكومة الاسبانية والاذن بحرية التجارة لجميع التجار المسيحيين تتعارض مع نصوص ذلك الامر . واذا أعطت الحكومة الإيرانية حق احتكار التجارة لشعب آخر فان الانجليز سيضطرون للجوء لقواتهم الحربية ، ومن الممكن أن يعرض هذا أمن الخليج وهدوءه للخطر .

ولم يوافق التجار الانجليز في ميناء سورت الهندي على أفكار السير توماس رو وكانوا يريدون اقامة مراكز للتجارة في ايران بأسرع مايمكن ، وكان الاسراع في اقامة علاقات تجارية مع الايرانيين واجبا في نظرهم للأسباب التالية :

أولاً : أن روبرت شيرلي كان بعيدا عن ايران آنذاك ، ولهذا رأوا أن جهودهم ستكون أكثر مناسبة لانه كان من الممكن بعد عودته من أوروبا أن يعمل على معارضة نشاط شركة الهند الشرقية أو يقوم بأكثر من هذا .

ثانياً : لما كانت العلاقات التجارية بين ايران وأوروبا قد قطعت بسبب الحرب الإيرانية العثمانية ، وقلت الأقمشة الأوروبية في ايران فيجب اغتنام الفرصة .

ثالثاً : لابد من ايجاد أسواق جديدة لتصريف البضائع المكسدة في مخازن ميناء سورت .

سفارة ادوارد كنوك (١) الى ايران :

في النهاية استطاع التجار الانجليز في سورت الحصول على موافقة شركة الهند الشرقية لبدء التجارة مع ايران خلافا لرأى السير توماس رو

Edward Conaock

(١) . . .

وفي ذى الحجة ١٠٢٥ هـ (نوفمبر ١٦١٦ م) ارسلوا أول سفينة تجارية انجليزية وكان اسمها جيمس من ميناء سورت قاصدة ميناء جاسك ، والى جانب حوالة السفينة من البضائع الكثيرة وصلت عليها بعثة (٢) لمقابلة الشاه عباس لتقوية العلاقات التجارية بين الدولتين ، وكان على رأس هذه البعثة ادوارد كنوك أحد التجار المحنكين والخبراء الانجليز ، وسبق له الاشتغال مرات عديدة بالتجارة مع الدولة العثمانية ، وبعد سبعة وعشرين يوما وصلت السفينة « جيمس » الى ساحل ايران رغم المصاعب والمشاكل التي أثارها البرتغاليون في طريقها . ووصل ادوارد كنوك يوم ٢٢ ربيع الأول ١٠٢٦ هـ (مارس ١٦١٧ م) الى اصفهان واستقبله المسئولون في الحكومة الايرانية بالترحيب والاحترام ونظرا لان الشاه عباس لم يكن في اصفهان وكان يحارب في جورجيا ، لهذا توجه ادوارد كنوك الى آذربيجان وجورجيا بعد أن بقي بعض الوقت في اصفهان .

استقبل الشاه عباس مندوب شركة الهند الشرقية بالترحيب ولقب ملك انجلترا بلقب « الأخ الكبير » وشرب نخب صحته وسلامته . وقد اقترح ادوارد كنوك - نيابة عن ملك انجلترا وشركة الهند الشرقية - أن يرسل السفن الى ايران طوال العام لتحمل حرير ايران الى جانب التجارة الاخرى من موانئ الجنوب وتنقله الى أوروبا عن طريق البحر بدلا من نقله عن طريق الاراضي العثمانية .

وقد سمح الشاه عباس للسفير الانجليزي بإنشاء مراكز تجارية في كل من اصفهان وشيراز ، ووعد بأن يترك لمندوبي الشركة ميناء جاسك أو أي ميناء آخر تراه شركة الهند الشرقية مناسبا لها . كما أصدر فرمانا وافق فيه على أن ترسل الحكومة الانجليزية مندوبا سياسيا الى بلاط ايران وتعطى الحرية التامة لموظفي الشركة في مزاولة التجارة في جميع أرجاء ايران . كما اشير في هذا الامر الى أن الرعايا الانجليز لهم الحرية التامة في القيام بشئونهم الدينية طبقا لعاداتهم وآدابهم . كما يمكنهم حمل

(٢) أعضاء هذه البعثة هم :

George Rley-Thomas Barker - William Bell William Tracye -
Edward Peters - Mathew Pepwell.

السلاح معهم دائما لكي يستخدموه في حالة الدفاع عن النفس كما أن لندوب
انجلترا الحق في ارسال مندوبين وموظفين الى أنحاء ايران المختلفة للعمل
على تنشيط التجارة وتوسيع مجالها *

كان الشاه عباس يريد أن يجد أسواقا جديدة للحرير الإيراني الذي
يحسب تجارته لنفسه ، ويجد طريقا آخر لنقله عبر طريق الأراضي العثمانية
ولم يكن راضيا عن البرتغاليين للأسباب التي سبق أن ذكرناها وكان
ينتظر الفرصة المواتية لكي يكف أيديهم عن سواحل جنوب ايران التي
استعمروها وأخذوا يعاملونه في الشؤون التجارية والسياسية بـجـرأة
واستهتار كان يتحين الفرصة ليخرجهم من موانئ وجزر الخليج ، ولكن
لم تكن لديه القوات البحرية الكافية ولهذا رأى أن الصداقة مع شعوب مثل
الانجليز والهولنديين لازمة له وضرورية لما كان لهما من قوات بحرية
تتساوى مع قوات البرتغاليين في القوة *

لهذا السبب استقبل الشاه عباس مندوبي شركة الهند الشرقية
الانجليزية بترحيب بالغ وأبدى اهتمامه وتلفه على منح التسهيلات
التجارية لهذه الشركة ، ولم تفلح جهود المسؤولين الاسبان والبرتغاليين
في الاضرار بعلاقات الشاه عباس وشركة الهند الشرقية (١) *

أسس ادوارد كنوك مراكز تجارية في اصفهان وشيراز بتصريح من
الشاه عباس وذلك في سنة ١٠٢٦ هـ (١٦١٧ م) وسافر بعد ذلك الى جزيرة
هرمز لكي يستقبل السفن التجارية الانجليزية التي كانت قد وصلت من الهند
محملة بكثير من البضائع ويشرف على نقل هذه البضائع الى داخل ايران
ولكنه توفي فجاء بالقرب من هرمز مع بعض رفاقه ووصل خبر الى البلاط
الإيراني يفيد أن البرتغاليين هم الذين سموه وأصحابه *

(١) كتب بيترو دلافاليه السائح الإيطالي الذي كان آنذاك في اصفهان
يقول ، عندما توجه ادوار كنوك الى جورجيا لمقابلة الشاه عباس أسرع
الراهب مليكور ديزانتج أحد قسس جماعة سان أغوسطين ومنسوب أسبانيا
لدى الشاه الى هناك أيضا لكي يحذره من قبول المقترحات الانجليزية وينبئه
الى الصدام الذي قد يحدث في الخليج بين الدولتين ولكن الشاه عباس لم
يهتم بوجهة نظرة *

سفارة روبرت شيرلى الثانية الى اوربا

سبق أن قلنا أن الشاه عباس كلف السير روبرت شيرلى مرة ثانية بالتوجه كسفير الى بلاط ملوك اوربا سنة ١٠٢٤ هـ . وبعد أن توقف شهرين في الهند وصل في صيف ١٠٢٦ هـ الى ميناء ليشبوننه عاصمة البرتغال ومن هناك ذهب الى اسبانيا وظل هناك حتى سنة ١٠٣١ هـ . وقد فصلنا تقرير سفارة روبرت شيرلى الثانية الى بلاط اسبانيا في الفصل الخاص بالعلاقات الايرانية الاسبانية والبرتغالية ولا حاجة لتكراره .

وقد وصل شيرلى في اواخر ١٠٣١ هـ الى مدينة روما ومن هناك توجه الى انجلترا فوصل في ربيع الاول ١٠٣٢ هـ الى لندن واستقبله الملك جيمس الاول كسفير لايران . وكتب السير جون فينيت (١) رئيس الديوان الملكى الانجليزى الذى كان مكلفا باستقباله تقريراً عن هذه الزيارة خلاصته هي :

« في يوم ١٩ يونيو ١٦٢٣ م (ربيع الاول ١٠٣٢ هـ) صدرت لى الأوامر أن اذهب الى نيوماركت لاستقبال السير روبرت شيرلى سفير ملك ايران وأهـى وسائل الراحة له في منزلى بى ساكس هام ، وكان روبرت شيرلى بعد رحلة طويلة في البحر والبر قد اختار الإقامة في هذا المكان وكتبت لى أخته اليدى كروففتس (٢) من هناك رسالة تطلب منى أن أعد وسائل إقامة أخيها من طرف الملك .

بعد ثمانية أيام ذهبت بالعربة ذات الخيول الملكية وخمسة من خاصة للخدم الملكيين الى سكسهام ، ولما كان البلاط قد أبلغنى أن الملك سوف يستقبل السفير بعد ظهر نفس اليوم ، فقد اصطحبت السفير فى العربة الملكية الى القصر الملكى قبل الظهر بساعتين وأجلسته في غرفة الخلوة الملكية ثم اصطحبه ايرل أف اينجل سى (٣) الى المخدع الملكى لملاقاة الملك ، وكان روبرت شيرلى قد جاء بملابس ايرانية من قدمه حتى رأسه وكان يلبس عمامة فلما وصل أمام الملك حنى رأسه مرتين وطبقا للعادات الايرانية خلع

Lady Crofts (٢)
Earl of Angle Sea

Sir John Finnett (١)
(٣)

عمامته ووضعها أمام قدمي الملك ثم جلس على ركبتيه وتكلم فلما أذن له الشاه بالنهوض وقف وليس عمامته وقدم خطابات اعتماده التي كانت مكتوبة باللغة الفارسية ولما لم يعثر في انجلترا كلها على شخص يعرف اللغة الفارسية فقد ظل مضمون رسائله مجهولا وتحدث الملك بعض أحاديث المجاملة مع السفير ثم أذن له بالعودة *

وفي ١٤ فبراير صدرت الاوامر ثانية كي يلتقي السفير بالملك في قصر سان جيمس ولهذا توجهت بالعربة الملكية وبعض الخدم الى بيته واصطحبته الى قصر سان جيمس . وكان الملك واقفا في قاعة الاستقبال ينتظر وصول السفير ، فلما دخل روبرت شيرلي حنى رأسه بالعمامة للتعظيم ثم وضع يده اليمنى على الارض ورفعها الى جبهته فلما اقترب من الملك جلس على ركبتيه ولكن الملك أوقفه وعرض السفير موجزا لمهمته وقدم موجزا مكتوبا لما ذكر تم عاد بنفس المراسم التي جاء بها *

وقد استقبل جيمس الاول السير روبرت شيرلي بالترحيب وأبدى استعداداه لعقد معاهدة سياسية وصداقة مع ايران تقوم على الاسس التالية:

١ - تتعهد الحكومة الانجليزية بأن تضع تحت تصرف الحكومة الايرانية كل سفنها في الخليج للهجوم على رجال الحكومتين الاسبانية والبرتغالية اللتان استوليتا على جزر هرمز وقشم ويضايقون ايران وشركة الهند الشرقية الانجليزية في المسائل التجارية بشرط أن تتحمل الحكومة الايرانية نفقات هذه السفن .

٢ - تتعهد ايران بامداد الحكومة الانجليزية بخمسة وعشرين ألف جندي نظامي مسلح عندما تطلب ذلك منها .

٣ - تسمح الحكومة الانجليزية للتجار الايرانيين بحمل بضائعهم الى انجلترا على السفن الانجليزية بعد دفع الاجور العادية الانجليزية ولا يؤخذ من التجار الايرانيين الا ما يدفعه بقية التجار من مختلف الشعوب من الرسوم والجمارك الى جانب منح التجار الايرانيين حرية احضار الذهب والفضة الى انجلترا أو تصديرها منها ولا تأخذ منهم أية حقوق جمركية عنها . وعلى هذا النحو حل مرضوع تصدير البضائع الايرانية وخاصة الحرير

الى أوروبا طبقا لهذه المعاهدة التى بمقتضاها يستطيع التجار الايرانيون نقل بضائعهم على السفن الانجليزية الى انجلترا ومنها الى بقية الدول الاوربية لبيعها هناك . كما أن التعهد السياسى واتحاد القوات البحرية والبرية للدولتين كان يحمى المراكز التجارية الانجليزية وموانئ جنوب ايران من تهديد هجوم السفن الاسبانية والبرتغالية ولكن قبل أن توقع هذه المعاهدة توفى جيمس الاول فى ٢٧ مارس ١٦٢٥ م وخلفه ابنه تشارلز الاول وتأخر التوقيع على المعاهدة كما حدث فى نفس الوقت حادث آخر أضاع كل جهود روبرت شيرلى نذكره فيما يلى :

سفارة نقد على بك :



بينما كان روبرت شيرلى مشغولا بالمحادثات مع ممثلى الملك الجديد وأوشك على الوصول الى هدفه وصل الى انجلترا سفير ايرانى جديد هو نقد على بك وكان الشاه عباس قد أرسله بايعاز من مندوبى شركة الهند الشرقية الانجليزية الذين كانوا ينظرون الى بعثة مواطنهم روبرت شيرلى

بعين الشك والريبة • وكان نقد على بك قد وصل في أول فبراير ١٦٢٦ م
(الثاني من جمادى الاول ١٠٣٥ هـ) الى الساحل الانجليزى على السفينة
« ستار » •

حينما وصل نقد على بك الى لندن أنكر سفارة روبرت شيرلى بناء
على تحريض من رجال شركة الهند الشرقية بل أنه شتمه في أحد المجالس
وصفحه صفعة قوية على وجهه وأعلن أن خطابات اعتماده مزورة ومزقها مما
جعل البلاط الانجليزى ينظر بريب الى سفارة شيرلى ولا يهتم محادثاته معه •

وقد أشار السير جون فينيت رئيس ديوان جيمس الاول والذي كان
مكلفا باستقبال السفيرين روبرت شيرلى ونقد على بك الى الخلافات بينهما
في مذكراته فقال :

« في أواسط فبراير ١٦٢٦ م (جمادى الاولى ١٠٣٥ هـ) أخبر التجار
الانجليز الملك أن سفينة قد وصلت الى ميناء بورتسموث وأن عليها سفيرا
ايرانيا جاء الى انجلترا فصدرت لى الاوامر أن أرسل العربية الملكية وبعض
المضيفين لاستقبال السفير فى كينج ستون واحضاره من الميناء الى لندن
وكان تجار الهند الشرقية قد أفرطوا فى الترحيب بهذا السفير الجديد ولجأوا
الى بعض الوسائل حتى أرسلت بعربة ملكية تجرها ثمانية خيول لاستقباله
وقد وصل السفير الى لندن يوم ١٩ فبراير وتحمل المسئولون فى شركة
الهند جميع نفقاته وأعدوا منزلا لاقامته وبعد يومين من وصول السفير طلب
التشرف بمقابلة الملك •

ولكى يقف السير روبرت شيرلى على حقيقة الهدف من حضور السفير
الجديد فقد طلب من أحد أقاربه وهو إيرل كليفلاند (١) أن يرافقه فى الذهاب
الى السفير الجديد للترحيب بوصوله وكان السير روبرت يقصد أن يخبره
السفير الجديد بالغرض من حضوره ولهذا فقد كان قد استأذن الملك واسترد
من البلاط أوراق الاعتماد التى كان قد قدمها للملك فى أول يوم وذهب فى العربة
الملكية مع إيرل كليفلاند وبعض رجال البلاط ، وكنت من بينهم ، الى منزل
السفير الجديد فى نفس اليوم الذى أراد فيه مقابلة الملك •

Earl of Clevlan Cleveland

(١)

وكذبت قد اقترحت أن نرسل شخصا للسفير قبل ذهابنا اليه ونخبره
برغبتنا في زيارته فرد عليه السفير دون أية مجاهلات بقوله « نلياتوا » *

حين دخلنا غرفة السفير وجدناه متربعا على كرسي كمادة الايرانيين
وحين رأنا لم يبد أى اهتمام * والقى سير روبرت السلام عليه وجلس على
كرسى بالقرب منه وذكر ايرل كليفلاند للسفير سبب مجيء روبرت شيرلى
ونحن معه عن طريق المترجم وقد ذكرت أنا المترجم السفير مقام ايرل كليفلاند
وأهميته فلما عرف السفير هذا أنزل رجليه من على الكرسي وقال بعض
كلمات المجاملة *

بعد هذا أخرج روبرت شيرلى خطابات اعتماده وعلى عادة الايرانيين
وضعها على عينييه وجبهته ثم قبلها وسلمها للسفير حتى يقبلها بدوره
وبقرأها ولكن السفير نهض فجأة من على الكرسي وذهب ناحية روبرت
شيرلى وجذب الخطابات من يديه ومزقها ثم صفعه قوية على وجهه *

وقف ايرل كليفلاند بينهما ليحول دون تماسكهما ولكن ابن سفير ايران
الذى كان واقفا في جانب الغرفة هجم على روبرت شيرلى وصفعه صفتين
أخريين وأوقعه على الارض ولكن ايرل كليفلاند أبعد هذا الشاب أيضا ثم
لام السفير على هذا السلوك السيء وقال له لولا رعاية احترام الشاه عباس
ملك ايران العظيم لما خرج أحد منكم حيا من هذه الغرفة ، وعندئذ ظهرت
آثار الندم على وجه السفير وقال اننى أسف جدا على ماحدث ولكن سببه
أن هذا الرجل (يقصد شيرلى) زور خطاب ولى نعمتنا وادعى كذبا أنه سفيره
لان رسائل شاه ايران تختم عادة في اعلاها أما في خطاب اعتماد هذا الرجل
فقد ختم من ظهره بالاضافة الى أنه يقول أنه تزوج بنت أخت الشاه عباس
وهذا كذب محض *

ابتعد السير روبرت شيرلى الذى أحس بالاهانة والخجل الى ناحية من
الغرفة فلما سمع كلام السفير الايرانى تقدم اليه وقال اننى لم أقل أبدا أننى
متزوج من بنت أخت الشاه عباس ولكن زوجتى من أقارب زوجة الشاه
أما فيما يتعلق بختم خطاب الاعتماد فصحيح أن شاه ايران يختم جميع
أوامره في طرفها الاعلى ولكن حين يكون سفيره من الاجانب فإنه عادة يختم
ظهر الامر ويوقع عليه حتى يعرف أنه من طرف أى شخص قبل أن يفوضه *

رد السفير الايرانى على هذا الكلام بنظرة احتقار ولم يقل شيئا .
بعد هذا غادرنا منزله وأوصلنا السير روبرت شيرلى الى منزله وذهبنا الى
البلاط الملكى وقدمنا تقريرا للملك عما حدث في هذا اللقاء .

حين علم تجار شركة الهند الشرقية بحادثة لقاء شيرلى ونقد على
وصفه عدو. شيرلى مذنباً وكان دليلهم أن شيرلى لو لم يكن مذنباً لرد على
نقد على بك له ، ولما وقف ساكتاً أمام صفعاته . ولكن شيرلى كتب تقريراً
للملك وطلب مع اذن العودة لايران أن يعلقوا خطابات اعتماده في رقبتـه
ويعيدوه مع رسول خاص لايران حتى تتضح له الحقيقة .

أمر الملك بدوره مندوبى شركة الهند الشرقية الانجليزية أن يحملوه
على إحدى سفنهم الى ايران حتى يتضح صدق أقواله أو كذبها فاطاعوا أمر
الملك ولكنهم رجوه أن يستقبل سفير ايران في أسرع وقت ممكن .

في السادس من مارس من ذلك العام (١٦٢٦م / ١٠٣٥ هـ) استقبل
تشارلز الاول الذى جلس على العرش بعد أبيه جيمس الاول السفير الايرانى
وكتب السير جون فينييت عن أول لقاء بين السفير وملك انجلترا فقال :

« دخل السفير الى قاعة الضيافة التى كان الملك واقفا بها فى انتظاره
وتقدم دون أن يحنى رأسه أو يؤدى أى احترام فلما اقترب من الملك قبل أوراق
اعتماده واحدة واحدة ثم سلمها للملك ولم يحن رأسه أيضاً أثناء تقديمها
وبعد أن قام بهذا أعطى ظهره للملك وتأخر نحو عشرين قدماً ثم استدار
ناحية الملك وأشار بيده الى الاشخاص الذين كانوا يقفون بينه وبين الملك
لكى يتنحوا جانبا ثم حنى رأسه ثلاث مرات حيث كان يقف ثم غادر القاعة .
وقد اراد السفير أن يقابل الملكة أيضاً ولكنها لم تكن فى القصر الملكى ، ولهذا
جلس فى العربة وظل يتجول فى حديقة سان جيمس حتى عادت الملكة للقصر .»

كان الملك قد أمر - كما ذكرنا - أن يعود السفيران الى ايران على
السفن التى كانت ستبحر فى شهر مايو من ذلك العام الى الهند وأرسل معهما
رجلا انجليزيا هو السير دورمر قطن(١) للقيام بمهمتين الاولى أن يتأكد من
أن السير روبرت شيرلى كان سفيرا لشاه ايران أم لا ، والثانية أن يعقد
معاهدة تجارية مع شاه ايران .

لم يتح للسفيرين الرحيل في شهر مايو لان سفن شركة الهند الشرقية كانت قد أقلعت قبل وصولهما الى الميناء فاضطروا للبقاء في انجلترا وبعد عشرة اشهر توجهوا الى الهند وايران عن طريق رأس الرجاء الصالح .

أقدم نقد على بك على الانتحار خوفا من مؤاخذة الشاه عباس له فسم نفسه بالافيون على الساحل الشرقى لافريقيا . ووصل روبرت شيرد ودورمر قطن في ربيع الثانى ١٠٣٧ هـ (يناير ١٦٢٨ م) الى ميناء جمبرون بعد رحلة استغرقت أحد عشر شهرا . وكان الشاه عباس آنذاك فى أشرف (بهشهر حاليا) فى مازنداران فاضطر السير دورمر للسفر عبر ايران كلها من أقصى الجنوب الى أقصى الشمال ، وسنذكر أحوال السير دورمر وروبرت شيرلى فى الصفحات التالية .

سفارة توماس باركر وجيلز هابيس

قلنا أن ادوار كنوك منحوب شركة الهند الشرقية وبعض مرافقيه توفوا فجأة بالقرب من جزيرة هرمز سنة ١٠٢٧ هـ (١٦١٧ م) وفي قول أن البرتغاليين سموهم ولهذا عينت الشركة معاونه توماس باركر مندوبا لها في ايران فبدأ باجراء محادثات مع الحكومة الايرانية لعقد اتفاقية لشراء الحرير وأبدى الشاه عباس استعداده لعقد اتفاقية مع شركة الهند الشرقية في هذا الشأن بشرط قيام مندوبي الشركة بشراء ستمائه عدل (العدل ١٣٥ كجم) حرير من ايران كل عام ودفع ثمنه أما نقدا أو بضائع ولايحق لهم تصدير الحرير مالم يدفعوا كل ثمنه .

في نفس هذا العام أيضا جاء مبعوث آخر لشركة الهند الشرقية اسمه جيلز هابيس(١) يحمل رسالة للشاه عباس ولكنه وصل الى ايران عن طريق روسيا . وبعد أن تشاور توماس باركر(٢) مع المبعوث الجديد قبل شروط الشاه عباس بل تقرر أن تقتصر ايران بيع كل حريرها لمندوبي شركة الهند الشرقية فقط ولا تتبع حريرا للتجار الاسبان البرتغاليين ولا ترسل شيئا عن طريق الاراضى العثمانية الى أوروبا ووافق الشاه عباس على هذه الشروط ووعده بالمحافظة عليها والتمسك بها طالما كان على قيد الحياة اذا ظل الانجليز على وعدهم ولكن قبل أن يأخذ هذا الاتفاق شكله الرسمي والفعلى اعترض عليه أرامنة جلفا لان جزءا من حرير ايران كان يصدر بمعاونتهم الى أوروبا عن طريق الاراضى العثمانية وكان هذا الاتفاق الجديد الذى يوقف تصدير الحرير عن طريق الاراضى العثمانية يلحق بهم أضرارا جسيمة .

بعد هذا الاعتراض على الاتفاق الجديد أمر الشاه عباس أن يجتمع مندوبون أسبانيا والشركة الانجليزية والارمن في مقر الحكومة حيث يعرض الحرير الايرانى بالمزاد ليباع لمن يدفع أعلى ثمن ، ولم يتحدث مندوب أسبانيا في هذا الاجتماع بحجة أنه لم يتلق تعليمات من دولته لتحديد سعر الحرير . كما أن الانجليز صمتوا لانهم لم يرغبوا في التعامل في الحرير على

Gyles Habbes
Thomas Parker

(١)
(٢)

أساس المزايدات وعرض الارمن وحدهم الذين كانوا يرغبون في اخراج الآخرين من السوق ثمنا باهظا لم يسبق له مثيل وهو خمسين تومانا لكل ٣٦ من ملكي ولهذا باع لهم الشاه كل انتاج ايران من الحرير في ذلك العام (١) .

حينما رأى مندوبون شركة الهند الشرقية أن الاتجار في الحرير مع الأرمن بعد ما حدث لن يفيدهم توقفوا عن شرائه وتصديره في ذلك العام .
ولما كان الارمن قد علموا - بطرقهم الخاصة - أن الاتجار في كل البضائع الايرانية في أوروبا يدر أرباحا وفيرة فقد اشترؤا كميات من الاقمشة المختلفة والبسط والبضائع الأخرى وحملوها بالسفن الى أوروبا .

توفى توماس باركر في أواخر عام ١٠٢٨ هـ (١٦١٩ م) في اصفهان وتوجه ادوارد مونوكس - الذى ذكرناه في الفصول السابقة - الى اصفهان في ربيع الثاني ١٠٢٩ هـ (مارس ١٦٢٠ م) ليجل محله مندوبا لشركة الهند الشرقية .

في هذه الاثناء كان الشاه عباس قد تصالح مع السلطان العثماني وصمم على أن يكف يد الاسبان والبرتغاليين عن جزيرة هرمز ولهذا أظهر عداوته لهم ، ولما كان يريد أن يقوم بهذا العمل بمساعدة السفن الانجليزية - كما سبق أن ذكرنا - فقد أخذ في التقرب الى مندوبي شركة الهند الشرقية ووافق على التعامل معهم في الحرير مثلما حدث سنة ١٠٢٩ هـ حينما سمح لمندوب الشركة بالذهاب بنفسه الى جيلان واختيار مايعجبه أو يناسبه من الحرير حتى يحمله مندوبو الشاه الى اصفهان وعلى نفقته هو لكي يسلم الى المركز التجارى الانجليزى . ولما رأت الشركة الانجليزية أن الشاه يميل اليها في التعامل في الحرير أرسلت سفنها الى ايران لنقله فوصلت الى ميناء جاسك في ذلك العام خمس سفن تحمل مختلف البضائع الانجليزية والهندية وبعض الهدايا للشاه عباس . وكان لدى هذه السفن أوامر بأن تتوجه الى ميناء جمبرون بعد أن تفرغ حمولتها في ميناء جاسك لكي تقوم

(١) كان للشاه عباس يحتكر تجارة حرير ايران كما سبق أن ذكرنا فكان مندوبوه يجمعون الحرير من كل أنحاء ايران بثمان رخيص ويضعونه في مخازن الشاه الذى يتولى بيعه بالثمن الذى يحدده مسوؤا للاسبان والبرتغاليين الذين يصدرونه عن طريق الجنوب أو الارمن الذين يصدرونه عن طريق الاراضى العثمانية .

بدراسة عن ذلك الميناء من ناحية موقعه الطبيعي لرسو السفن وامكانياته للشحن والتفريغ لان الشاه عباس كان قد اذن لشركة الهند الشرقية الانجليزية باقامة مركز تجارى في جمبرون رغم معارضة البرتغاليين *

كان بعض رجال البلاط وحكام ايران الذين كانوا يحصلون على ارباح طائلة من تهريب الحرير أو الاتجار فيه من التجار الايرانيين غير راضين عن سلوك الشاه عباس الودى مع مندوبى شركة الهند الشرقية واحتكار واحتكار بيع الحرير لها *

وكتب بيترو دلافاليه الذى كان آنذاك في ايران يقول :

« كان الانجليز قد أحضروا عشرين عدلا (العدل ١٣٥ كجم) من حرير جيلان الى اصفهان وكانوا قد دفعوا بمصر ثمنه ويأملون في دفع بقية الثمن من بيع بعض بضائعهم التى كانت في اصفهان ولكن وقع بينهم وبين قرجقاي خان الذى كان يتولى حراسة طرق ايران خلاف لانهم امتنعوا عن دفع رسوم حراسة الطريق الذى كان مبلغا ثافها والحقيقة أن الايرانيين كانوا ينظرون للانجليز بعين الحقد لانهم بشرائهم للحرير حرّموا كثيرا من التجار الايرانيين والوزراء والاعيان الذين كانوا يحصلون على ارباح كبيرة من هذه التجارة *

وقد أدت الكراهية الى سوء معاملتهم بتحريض من رؤساء وكبار رجال الدولة بل وصل الامر الى حد جذب وجرح بعض المندوبين والموظفين الانجليز وقد أوكل هذا الامر الى قطاع الطريق وللصوص كما أن الشاه في مجالسه الخاصة لم يكن يشير اليهم بالخير لأنه كان يعلم أنهم قراصنة البحار والسرقة في ايران من الاعمال المذمومة *

وكان مندوبو شركة الهند الشرقية يريدون خديعة الشاه بشرائهم لحرير جيلان ثم يشترون حرير كل مناطق ايران مهربا بثمان زهيد ويصدرونه ولكننى سمعت أنهم هم الذين خدعوا اذ أن الشاه عباس بحجة أنه لا يوجد غير هذا الحرير باع لهم بعض الحرير السيء الصلب كالخشب ثم طالبهم بثمان حرير ممتاز (١) *

(١) بيترو دلافاليه ج ٥ ص ١٨٥ - ١٨٨ *

ومن بين الهدايا التي كانت سفن الهند الشرقية قد أحضرتها للشاه عباس عربة جميلة يجرها ستة جياد وكانت هذه العربة من الداخل وكذلك ملابس سائقيها وزينة خيولها كلها من المخمل (القטיפه) كما زينت من الداخل والخارج بالذهب ولم يحضروا معها خيولا من إنجلترا ولكنهم اشتروها من شيراز وربوها ودربوها هناك وكانت هذه العربة التي لم يسبق وجود مثلها في إيران هدية من شارلز الاول ملك إنجلترا ولان الاستفادة بها لم تكن ميسرة في طرق إيران آنذاك فانها لم ترق لعيني الشاه بل أنه لم يعرضها على الناس كما جرت العادة في مثل هذه الهدايا .

اتحاد إيران مع شركة الهند الشرقية الانجليزية ضد رعايا البرتغال واسبانيا

كما ذكرنا في الفصل الخاضع بعلاقات الشاه عباس بالبرتغال واسبانيا ، فان مندوبى الشاه عقدوا اتفاقا مع شركة الهند الشرقية ضد البرتغاليين في هرمز وذلك في صفر ١٠٣١ هـ (يناير ١٦٢٢ م) واستطاعت إيران بمساعدة الشركة الاستيلاء على جزر قشم وهرمز وكف يد المسؤولين البرتغاليين والاسبان عن سواحل الخليج ولكن شركة الهند لم تحصل في مقابل هذا على نتيجة تذكر ومع أن الحكومة الإيرانية طبقا للاتفاق كانت قد قبلت دفع نصف دخل جمرک هرمز الى الشركة فانها لم تف بهذا الوعد الا بضع سنين لان المبادلات التجارية كانت قد انتقلت الى ميناء جمبرون فتوقفت إيران عن الدفع مدعية أن الشركة ليس لها العدد الكافي من السفن للمحافظة على أمن الخليت مما شجع اللصوص والقراصنة . ثم قبل مندوبو الشركة سنة ١٠٨٧ هـ وفي عهد الشاه سليمان الصفوى أن يأخذوا ألف تومان سنويا في مقابل نصيبهم من دخل ميناء بندر عباس (جمبرون القديم) واستمرت هذه الحال بضع سنين .

بعد أن استولى الشاه عباس على جزيرة هرمز نفذ الاتفاق الذى كان قد عقده مع ادوارد كنوك سنة ١٠٢٦ هـ وسمح لمندوبى شركة الهند الشرقية بشراء أية كمية من الحرير تلزمهم من أى منطقة في إيران وتصديره منها دون دفع أية رسوم أو أموال وهدد ذلك الحين قويت شركة التجارة الانجليزية في الخليج وتحولت تجارة الهند الشرقية وإيران الى أيدي الانجليز والهولنديين . ولم يهتم الشاه عباس بجزيرة هرمز بعد ذلك بل أقام قلعة جديدة في ميناء جمبرون وجعل هذا الميناء مرفأ للسفن القادمة من الهند وأطلق عليه اسم بندر عباس وحصلت شركة الهند الشرقية على اذن باقامة عمارتين لفرع مركزها التجارى هناك ولم تحصل على اذن لبناء مساكن متعددة لموظفيها لأنه كان من الممكن أن تتحول مجموعة المساكن الى قلعة . كما منح الشاه بعض المنازل للشركات الانجليزية والهولندية في شيراز واصفهان لتكون مساكن أو مراكز تجارية لموظفيها وقد كتب الرحالة الفرنسى

ساردان الذى كان فى ايران فى عصر الشاه عباس الثانى والشاه سليمان الصفوى، يقول .

« يقع سوق الله بك على الجانب الايمن لميدان نقش جهان (فى اصفهان) ويقع المركز التجارى لشركة الهند الشرقية فى نهاية هذا السوق وهو عبارة عن حديقة واسعة عظيمة بوسطها ثلاثة أبنية وهذه العمارات من أملاك الشارشى باشى الذى كان الشاه عباس الكبير قد غضب عليه وصادر أمواله ولما كان مندوب شركة الهند الشرقية قد وصل الى ايران فى ذلك الحين فإن الشاه قد منحه هذه العمارات التى كانت فى وسط المركز التجارى وعلى مقربة من مقر الحكومة وكانت زينة السقف المذهبة ونقوش الابواب والجدران فى غاية البروعة والجمال، ولكن للأسف فانها آيلة للخراب لان الشركة الانجليزية ليست لها تجارة قوية مع ايران كما قل عدد موظفيها جدا عما كانوا عليه فى زمن الشاه عباس وقد تحولت هذه العمارات الى مصاييف يقضى بها الموظفون الانجليز فى بندر عباس فصل الصيف . »

سفارة السير دورمر قطن

ذكرنا في الصفحات السابقة أن السير دورمر قطن سفير تشارلز الاول ملك إنجلترا وصل مع السير روبرت شيرلي الى ميناء جيجرون عن طريق الهند في ٢٧ ربيع الثاني ١٠٣٧ هـ (٦ يناير ١٦٢٨ م) .

وكان نقد على بك سفير الشاه عباس قد انتحر في الطريق فلم يصل معهما الى ايران وقد وصف السير توماس هيربرت أحد مرافقي السير دورمر انتحار نقد على بك فقال :

« في يوم ٢٠ نوفمبر ١٦٢٧ م (٢٠ ربيع الاول ١٠٣٧ هـ) القينا مراسينا في سوولي رود (١) وقد توفي نقد على بك سفير ايران وثمانيس السير روبرت شيرلي ، وقد ذكرنا لنا أنه تناطى الآسيون أربعة أيام متتالية فسمم نفسه ويبدو أنه انتحر خوفا من عقاب الشاه عباس لسلوكه السيء في لندن مع السير روبرت شيرلي . وقد ضاعف السفير الإيراني كمية الأفيون التي عادة مايتناولها الإيرانيون يوميا ولم يستطيع الطبيب عمل شيء على الرغم من تحذيره من هذا السل . وكان ابنه مدفوعا بعاطفة حب الابوة قد أخفى عنه الأفيون فلما علم نقد على بك بهذا مجرم على ابنه شاهرا سيفه وكاد يفصل رأسه عن جسده لولا أن الابن استطاع بخفة ومهارة أن يلتجئ الى أحد الأركان ويختبئ به .

وقد ذهب السير دورمر قطن وشيرلي ومرافقوهما الى اصفهان عن طريق لار وشيراز وقد اضطر السفير الانجليزي الى الذهاب للشمال لان الشاه عباس آنذاك كان يقيم في مدينة أشرف في مازندران فوصل الى هناك في رمضان من نفس العام .

وكان السفير الانجليزي يحمل أوامر محددة من الملك تشارلز الاول بخصوص مهمته لدى الشاه عباس الاول ملك ايران ملخصها ما يلي :

Swolly Rood

(١)

« لقد قدمت الينا مقترحات من شاه ايران عن طريق سفيره السير روبرت شيرلى فيما يتعلق بتقوية العلاقات التجارية بين الدولتين والدول التابعة لهما ولكن وقعت أحداث مؤسفة بوصول السفير الايرانى الثانى مما جعلنا نتردد فى مقترحات شاه ايران وعقد الاتفاقيات اللازمة ولتوضيح هذا الامر فقد اخترناك واضعين فى الاعتبار سابق خدمتك وطريق سلوكك حتى ترافق السير روبرت شيرلى الى شاه ايران ، ونذكر له ماحدث هنا بين السفيرين وتحدثت معه طبقا لما يلى :

بعد ان تقدم أوراق اعتمادك الى شاه ايران تعبّر عن السير روبرت شيرلى كان قد جاء الينا سفيرا ثم جاء مرة أخرى فى مهمة ثانية وقد تلقاه أبى الفقيّد العزيز - خلد الله روحه - كسفير للشاه وقد بذلنا له من جانبنا نفس الرعاية والاحترام وقد تقدم الينا السير روبرت بمقترحات على أساس المصالح المتبادلة للدولتين . وبعد هذا وصل الى انجلترا سفير ثان من قبل شاه ايران اسمه نقد على بك وبعد قليل من وصوله أهان السير روبرت شيرلى أمام بعض أعيان الدولة ورجالها الذين كانوا قد ذهبوا لزيارته ومزق أوراق اعتماده وصفعه على وجهه وهذا السلوك تجاه أحد نجباء انجلترا مخالف لكل الأصول والقواعد الاخلاقية لنا ولولا رعاية احترام شاه ايران - الذى يعد سفيرا له أيضا - لما ظل تصرفه هذا دون جزاء وادع فى هذه الدولة التى ترعى العدالة والحضارة بكل دقة وشدة ، ولما كان حضور سفيرين لحاكم واحد ومعارضة واحد منهما للآخر أمرا غير عادى ، لهذا فنحن نأمركم بعرض هذا على شاه ايران ليتبين أيهما كان على حق .

كذلك فقد تقدم الينا السير روبرت شيرلى بمقترحات سيقدم لكم سكرتيرنا الخاص نسخة منها فاعرضها على شاه ايران فاذا وافق عليها وأراد أن نخذها فليكن أن تقف على وجهة نظر شاه ايران ورغباته وتعرضها علينا .

ويمكنك أن تتحدث باسمنا وتتعهد بأن نقبل من صميم قلوبنا كل اقتراح منطقي يناسب العلاقات بين الدولتين ويؤدي الى تقوية الروابط بينهما وتحكيم مصالحهما مما قد يقترحه الشاه

وفي النهاية فان رغبتنا القلبية هي ألا تقبل أى لقب أو مقام من شاه ايران والا تتدخل فى شئون التجار الانجليز الذين يتعاملون مع ايران . وأن

تسلك طبقا لهذا الامر دون ايجاد أية مشقة أو مضايقة أو نفقات لتجارنا
ومخالفة هذا الامر سيؤدى الى اراقة دمك .

(وايت هول صدر في - ١٥ ابريل ١٦٢٦)

وقد استقبل الشاه عباس السير دورمر قطن والسير روبرت شيرلى
ومرافقيهما في القصر الملكي في أشرف يوم ١٩ رمضان ١٠٣٧ هـ وفي قول
آخر يوم عيد الفطر . وقد كتب السير نؤماس هيربرت أحد مرافقى السفير
الانجليزى في مذكراته عن هذه الرحلة وماجرى في هذا اللقاء والمحادثات فقال :

« في يوم الاحد ٢٥ مايو ١٦٢٨ المقارن لآخر شهر رمضان استقبلنا
الشاه حتى يتجنب الضيافة والاستقبالات التى يجب أن تقام في مثل هذه
الاحوال (١) وكان سفيرنا يصطحب معه السير روبرت شيرلى ، كما كنت
ومعنى نحو سبعة أو ثمانية من الانجليز برفقته ولم يرسل البلاط الايرانى أى
قائد أو تشريفاتى لزيارة السفير سوى أحد اتباع محمد على بيك (٢)
(ناظر القصر وخازن الشاه) الذى جاء للسفير وقام ببعض المجاملات البسيطة
وعندما وصلنا الى قصر الحكومة ونزلنا عن جيادنا جاء أحد رجال البلاط
واستقبلنا بالعبارة العادية التركية « مرحبا » (٣) وقادنا الى حجرة صغيرة
تقع في وسط فناء واسع ، وكان هناك بعض الجند ولم يكن بالغرفة من
الاثاث سوى خمس قطع من السجاد الايرانى وكان في وسطها حوض من الرمر
الابيض مملؤ بالماء وقد وقفنا هناك نحو ساعتين قدم لنا خلالهما الشراب
الذى لم يكن جيدا وان كانتت الامداد والصوانى والاباريق كلها من الذهب
الخالص .

بعد هذا اصطحبنا بعض المسئولين عبر حديقة تشرح القلب وتسرى
العين الى مبنى آخر مزين بنقوش بارزة مذهبة يطل من ناحية على بحر
الخر ومن الناحية الاخرى على جبل البرز حيث المناظر الخلابة ودخلنا الى

-
- (١) السير تماس هابوت والدكتور جوتش القسيس هما الوحيدان من
مرافقى السير دورمر قطن اللذان انتقدا ودما لقاء الشاه عباس للبعثة ولايوجد
لاقوالهما شبيهة في مذكرات أى واحد من المرافقين الآخرين .
(٢) يقصد محمد على بك جرجىاق الاصفانى .
(٣) بالتركية خوش كلدى .

قاعة مربعة كبيرة مزينة بنقوش ذهبية والأرض مفروشة ببساط من الصوف
ونجود الذهب وفي وسط القاعة حوض من المرمر مملوء بالماء الصافي حوله
أنداح وأواني رفانجين وغيرها وكلها من الذهب الخالص وكان بعضها مملوءا
بماء الورد أو السراب أو الورد الملونة *

وبعد أن ساعدنا كل هذه الثروة أخذونا إلى غرفة أخرى أكثر ارتفاعا
يعكس سقفها صورة للنجوم والكواكب وكانت النجوم من الذهب تتلألأ
على أرضية من اللازورد الخامق وكانت الاواني الذهبية في هذه القاعة
تصل قيمتها إلى سنو عشرين مليون جنيه انجليزي كما قدرناها وكان يرى
في هذه القاعة حوض آخر للماء (فسقية) حافظه من الذهب وعلى جوانبه
أكواب وكؤوس وغيرها من الاواني من الذهب الخالص المرصع بالجواهر ولم
يكن بينها اناء لم يكن مغطى بالماس والياقوت والؤلؤ والزمرد والفيروز
والجواهر الاخرى وكانت القاعة قد حولت الى ما يشبه قاعة القصر الرئيسية
وكانت حافة الحوائط مزينة بأشمار وأقوال باللون مختلف أو مكتوبة
بالذهب أو الجبس وكانت زينة هذه الحجرة قد قام بها رجل الماني عاش
في البلاط الايراني مدة من الزمن سحر خلالها الايرانيين بفنه وذوقه ومهارته *

وكان يجلس حول هذه القاعة جماعة من الإمراء والرؤساء وكبار
البكوات على ركبهم وهم كالتماثيل يتطلعون إلى ناحية معينة ولا أحد يتكلم
منهم أو حتى يعطس أو يكبح لان مثل هذه الامور لاتجوز في مجلس الملك بل
وتعد من الذنوب الكبيرة *

كان الشاه عباس يجلس في صدر هذا المجلس متربعا فوق وسادتين أو
ثلاث من الاطلس الابيض وكان الايرانيون يحجبون هذا الملك كثيرا كما
يحترمه الاجانب ويخشاه الاعداء ، وهذا الملك الذي جعلنا نشاهد كل هذا
الفني وتلك الثروة كان يرتدى ملابس قطنية حمراء بسيطة كأنه أراد أن
يوعز لنا أن عظمته وجلاله ترجع الى صفات الصفة وسياسته لا الى
"سبه للحريية ولآله ... وكان يضع على رأسه عمامة من قماش أبيض
يربط وسط سرواله بحزام جلدي وكان غمد سيفه من الجلد الأحمر
من الذهب وحده مقوس كاللهمال وكان بقية رجال القصر
بسيطة مثل الشاه *

قال السفير للشاه بواسطة المترجم الذى يسميه الايرانيون الكلمجى
« انه قطع هذا الطريق الطويل لكى يهنئ الشاه بانتصاراته فى الحرب ضد
السو المشترك لايران وانجلترا ويتحدث معه عن تجارة الحرير وكسل
المصنوعات الايرانية ويحصل على معلومات عن سفارة السير روبرت شيرلى
والتهم التى وجهها اليه نقد على بك سفير الشاه ويبلغه رسالة ودية من
ملك الانجليز . . . » .

نهض للشاه من مكانه وألقى خطبة فصيحة باللغة التركية وقال « أن
الأتراك العثمانيين أناس منحطون ولايقارنون بالايرانيين فى الذكاء أو القيام
بالواجب ، ولقد أطلعت الأتراك وسائر الأمم التى تعاديهم على شجاعة
الايرانيين فى خمس عشرة موقعة خضتها ضدهم وأمل أن يتحد المسيحيون
فى القريب العاجل لان الامبراطورية العثمانية . ستفقد هذه العظمة وتلك
القوة حينما يزول هذا للخلاف وذلك القباعد ، ولو لم يكن المسيحيون فى
خلاف عداء كانت هذه الامبراطورية الدنيئة قد أصبحت شيئا لا يذكر .

أما فيما يتعلق بتجارة الحرير فقال أنه مستعد لكى يسلم للانجليز
فى جزيرة هرمز فى يناير من كل عام عشرة آلاف عدل من الحرير اذا أراد
ملك انجلترا ويحصل فى مقابلها على جونج انجليزى ليبيعه للعرب والتتار
والارمن والروس والجورجيين بشرط أن يتعهد التجار الانجليز بعدم التعامل
مع الأتراك لان السلطان العثمانى يحصل على أرباح وفيرة من رسوم
التجارة الخارجية ، والتجارة مع الأتراك مثلها مثل شوكة يصنعونها
بأيديهم لكى توجه الى أعينهم أو كأنهم يشحنون سيوف عدوهم لكى تقطع
بها رقابهم .

أما فيما يتعلق بروبرت شيرلى فقال أنه هو سفيره الحقيقى وأنه
سوف يسترضيه عن الاهانة التى لحقت به من نقد على بك الذى انتحر
حين وجد نفسه مخطئا مذنبا لانه يعلم ماذا كان ينتظره من عقاب ثم أقسم
لو أنه جاء حيا لقطعه قطعاً بسدد أيام السنة ولاحرقه مع فضلات الكلاب .

وعن علاقات الصداقة بين ايران وانجلترا قال انه يقبل مثل هذه
الصداقة بكل رغبة وشوق ويأمل أن تبقى وتدوم .

ثم تلتطف مع السفير ورحب به ثم عاد وجلس في مكانه وفي هذه الاثناء وضع جميع رجال البلاط رؤسهم عند أقدامهم (١) ثم أشار الشاه للسفير بالجلوس ثم تناول يده وأجلسه بجواره على الارض ولما لم يستطع السفير الجلوس متربعا على الارض كالإيرانيين فقد ضحك الشاه ورفع السفير مبعته احتراماً للملك وتحية فأمر الشاه أن يصبوا له خمرا ثم شرب معه نخب ملك إنجلترا وبعد ذلك خلع عمامته عن رأسه لكي يعرب السفير عن القيام بكامل الترحيب وبعد ساعة من المحادثات مع الشاه خرج السفير من المجلس .

ولكن مع كل هذا الترحيب فلا أعلم سبب تغير سلوك الشاه فجأة تجاهنا إذ لم يحظ السفير بمقابلة الشاه ولم يطلبه لمقابلته حتى عودتنا الى قزوین ولم ير الشاه بعد هذا الى أن توفي ، كما لم يأت أى من رجال البلاط لزيارة السفير ، وقد عرف فيما بعد أن مندوبى شركة الهند الشرقية غالباً قد استمالوا محمد على بك بالهدايا والرشاوى وجعلوه عدوا لنا ، وكان هذا الرجل وضعي الاصل ولكنه ظل يترقى حتى أصبح الشخص الوحيد الذى يعتمد عليه الشاه ويرعاه ، وكان يجعل الشاه يقابل كل من يريد هو ويرحب به ويقتل كل شخص يشاء . ولهذا كانت ترسل اليه الهدايا من كل جانب لجلب رضاه حتى أن دخله السنوى بلغ مايقرب من ١٤٠ ألف جنيه استرليني وهذا لايدعو للعجب ، إذ أن ناظر الخاصة الملكية كان دخله يبطخ أكثر من مائة ألف جنيه استرليني أيضا .

بعد هذا سافر السفير دورمر قطن من أشرف الى قزوین بناء على أمر الشاه ولم يره بعد هذا ، كما أن رجال البلاط والمقربين من الشاه نأوا عنه بل أن المراسم والآداب التى تجرى عادة للسفراء الاجانب لم تجر له . وفي قزوین وصله أمر من الشاه أن يبحث مع محمد على بك الناظر والخازندار مايتصل بهيمته أو يتعلق بها . ولكن محمد على بك لم يرد على أى من طلباته زدا صريحا ففيما يتعلق بالسفير روبرت شيرلى قال أن الشاه لم تعدله به رابطة أو علاقة وأن مهمته فى أوربا لم يكن لها أثناسن صحيح وبعد أن

(١) أى أنهم سجدوا للشاه الذى لاندري كيف سمح لنفسه بهذا وهو الذى كان يدعى أنه من الأعقاب الإهام موسى الكاظم وكانت بيده السلطة الدينية الى جانب السلطة الحنوية (المترجم) .

قرأ أوراق اعتماد روبرت شيرلى شكك فيها وأخذها من السفير الانجليزى ليعرضها على الشاه ولم يكذ الشاه يراها حتى عدها مزورة وألقاها فى النار وهو فى شدة الغضب وأمر أن يخرج روبرت شيرلى من ايران *

وكتب السير توماس هيربرت فى كتاب رحلته ان محمد على بك كان يكره روبرت شيرلى منذ مدة ولهذا سعى ضده لدى الشاه وجعل الشاه يغضب عليه بل انه تنسب فى ان يهمل السفير الانجليزى ولايستقبله بعد ذلك *

حين علم روبرت شيرلى بسلوك الشاه نحوه ورسالته اليه تضايق جدا حتى مرض مرضا شديدا. وتوفى فى مدينة قزوین فى ١٣ يوليو ١٦٢٨ (ذى القعدة ١٠٣٧ هـ) وقد احتفظت زوجته « تريزيا » بجثمانه كأمانة حتى تنقله الى أوربا وتدفنه هناك ويقال أنهم دفنوه عند عتبة منزله (١) .

وقد توفى السير دورمر قطن بعد تسعة أيام من وفاة شيرلى فى نفس المدينة ودفن جثته حسب التقاليد المسيحية فى مقابر الارمن هناك *

(١) ان المصائب والمتاعب التى تحملتها تريزيا زوجة روبرت شيرلى الحسنة فى حياتها بسبب رحلاته وأسفاره الطويلة والكثيرة لم تنتهى بموت زوجها بل ان جمالها وثروتها الضخمة التى خلفها لها زوجها جرا عليها الكثير من المصائب الأخرى . فقد أثار رجال الدين المسلمون سابقة اسلام تريزيا ثم ارتدادها عن الاسلام عند زواجها من روبرت شيرلى ، وأوغروا صدر الشاه عباس عليها ثم أشاعوا أن الشاه يريد احراقها حية ، بل أن بعض المؤرخين ذكروا أن هذا الامر كان سبب وفاة روبرت شيرلى اذ حين بلغه النبا اعترته حمى شديدة توفى على أثرها *

وقد طلب الشاه عباس مقابلة تريزيا والمدعين برديتها وسألها عن سبب عداوة هذه الجماعة لها ولكنها لم تقل شيئا حتى لا تغضب الشاه عباس عليهم فكانت شجاعته وصلابتها دافعا للشاه عباس على طمانتها ومواساتها وقال لها : « انه من الأسهل على فلك ايران أن يقتل مائة رجل على أن يقتل امرأة واحدة »

مع كل هذا فان بعض رجال البلاط المسئولين استولوا على كل مجوهراتها وأثاثها القيم بحجة أنها مرتدة، مما أدى الى مرضها مرضا شديدا فى قزوین التى غادرتها الى اصفهان والتجأت للقسس الكرمليين حتى تحسنت صحتها وفكرت فى ترك ايران مع جثة زوجها التى كانت قد نقلتها معها من قزوین الى اصفهان والاقامة فى إحدى الدول المسيحية ، وقد طالب القسوس الكرمليون من أمام قلى خان والى فارس الذى كانت تربطهم به صداقة

وعلاقات طيبة بأن يمنح تريزيا جواز سفر . وقد وافق الوالى ولكن أحد رجاله طمع في الزواج من تريزيا ولهذا أخذ في تدبير المؤامرات وإثارة المشاكل لها وكان منها أن طلب من شيخ الإسلام في أصفهان أن يتحفظ على تريزيا ويحصرها للمسجد لتقرر بإسلامها وقد اضطرب القسس الكرمليون من هذا الخبر ولجأوا الى أمام قلى خان حتى تقرر في النهاية أن يعقد اجتماع في منزل مدير أعمال الوالى الذى كان أيضا من أصدقاء القسس الكرمليين . وقد أنكرت تريزيا في هذا الاجتماع سابقة إسلامها وأصرت على بقائها على مسيحيتها . ومع وجود اتجاه للتحفظ على تريزيا في هذا المنزل إلا أنه سمح لها في النهاية بالذهاب مع القسس الى ديرهم .

لم ييأس ذلك الرجل من الزواج من تريزيا ولجأ الى استخدام القوة فقاد جماعة من رجاله وذهب الى دير الآباء الكرمليين ولكن تريزيا كانت قد علمت بمقدمهم فهربت الى دير الأرمن واختبأت هناك ، فلما أنكر الآباء الكرمليون علمهم بمكان تريزيا قامت هذه الجماعة باهانة بعضهم وايدائهم ولكنهم لم يصلوا الى نتيجة ، وقد حدث هذا دون علم أمام قلى خان والى فارس وبالتالى الشاه عباس الذى لم يكن موجودا في أصفهان . وقد تمكنت هذه الجماعة من الإيقاع باحدى خادمت تريزيا وإجبارها على افشاء مكان اختباء تريزيا حيث عثروا عليها وحملوها مقيدة الى منزل قائد الشرطة في أصفهان وهناك طلبوا منها أن تظن إسلامها والا القوها في النار أو من على أحد أبراج المدينة . ولكن تريزيا تمكست بموقفها ثم صاحت فيهم غاضبة : هل هذا السلوك المذموم جزاء خدمات زوجى العظيمة لثبته إيران ، أن ماتفلونه بعيد عن الرجولة والشهامة

وقد شعرت هذه الجماعة بالخجل واضطروا الى نقلها الى منزل الوالى الذى طردهم وسمح لتريزيا بالعودة الى مسكنها . وفي النهاية سمح الوالى في أوائل سبتمبر سنة ١٦٢٩ (١٠٣٩ هـ) لهذه الزوجة البائسة بالخروج من إيران فسافرت في ١٨ سبتمبر بحاملة جثمان زوجها متوجهة الى أوروبا عن طريق حلب واستانبول وكان الشاه عباس قد توفى قبل هذا بثمانية أشهر أثناء وجوده بمصيف أشرف على بحر قزوين .

بقيت تريزيا ٣ سنوات في العاصمة العثمانية استانبول ، وفي أواخر ديسمبر سنة ١٦٣٤م (رجب ١٠٤٤ هـ) غادرتها متوجهة الى روما وقد استقبلها البابا أوربن الثامن بكثير من الاحترام ومنحها مركزا مرموقا في جماعة النساء الكرمليين وأسكنها على مقربة من كنيسة ماريلا دلا اسيكالا على نهر التيبر وقاموا بدفن جثمان زوجها في الكنيسة وحين توفيت تريزيا سنة ١٦٦٨ م (١٠٧٩ هـ) بعد عمر طويل دفنت الى جوار زوجها .

ومن المعروف أنه عندما كان السير روبرت شيرلى وزوجته تريزيا في روما سنة ١٦٢٣م (١٠٣٢ هـ) قام فان ديك الرسام الهولندى المشهور الذى كان في إيطاليا آنذاك برسم صورتين لهما تعدان من روائع أعماله

العلاقات الايرانية الانجليزية

بعد وفاة الشاه عباس

العلاقات في عصر الشاه صفى :

لم تكن التجارة بين الانجليز والاييرانيين مزدهرة في أواخر عصر الشاه عباس بسبب منافسة الهولنديين . وفي سنة ١٠٣٤ هـ (١٦٢٥ م) انخفضت تجارة الشركة الانجليزية في ايران الى الحد الذى دفع توماس كريدج (١) رئيس المركز التجارى في اصفهان الى اغلاق فرع الشركة في تلك المدينة .



وبعد وفاة الشاه عباس حصلت شركة الشرقية الانجليزية في عام ١٠٣٨ هـ على قرار جديد من خليفته الشاه صفى فيما يتعلق بتجارة الحرير ولم يكن يتضمن كل الحقوق والامتيازات السابقة للشركة . وبناء على هذا القرار الجديد أصبح من حق التجار الانجليز أن يكون لهم مندوب مقيم في اصفهان كما أصبح لهم الحق في الاتجار في مختلف أنحاء ايران ، وحمل السلاح للدفاع عن انفسهم وإقامة مراكز تجارية وفروع لهم في مختلف أنحاء ايران ، والفصل في قضاياهم عن طريق مندوبهم .

(١) Thomas Kerridge . (٢) Conte William Denbigh .

ونتيجة لهذا القرار أرسل تشارلز الاول ملك انجلترا ابن عمه الكونت ويليام دينبيج (٢) وهو من عظماء انجلترا الى بلاط الشاه صفى وذلك في شعبان ١٠٤٩ هـ (مارس ١٦٣٨ م) ، وكان هذا السفير يحمل رسالة يعرب فيها ملك انجلترا عن سعادته لاستمرار الصداقة بين الدولتين ، كما قدم الشكر لرعاية الشاه صفى للتجار والرعايا الانجليز في ايران . وقد استقبل الشاه صفى السفير الانجليزى بكثير من الترحاب وكتب ردا على رسالة تشارلز ننقله فيما يلى :

نظاما للسطنة والشوكة والايالة والحشمة والعظمة والعز والامتنان

تشارلز ملك الانجليز

(بعد مقدمة المجاملات) وصل كتابكم المرسل الينا فى أحسن وقت وأدى ماتضمنه من مظاهر الصداقة واتحاد القلوب الى زيادة عناصر المودة وارتفاع درجات الصداقة والوداد . أما التوصية على صاحب العزة زبدة الاعيان الكابتن وليم فان الشفقة الملكية تشملهم دائما . وقد قررنا أن ينجز أى عمل أوحاه تكون له عندنا بمجرد أن يعرضه على وكلاء الديوان العالى والا يقع تقصير تجاه التابعين لسلطانكم وعظمتكم خصوصا الكابتن وليم ورفاقه ورجالهم الذين يترددون على هذه الديار . ومن دواعى الصداقة والالفة أن يتبع نفس هذا السلوك الحميد وتتجدد رياض الالفة والمعرفة بإرسال الرسل والرسائل وإذا كان لكم أى عمل أو مهمة فى ناحيتنا فاضهرؤه وأعلنوه من قبل الاتحاد والقوافق بلا تأخير أو مؤاربة حتى نقوم بانجازه بدوافع الاتفاق والصداقة الملكية .

ثانيا فانى أنهى اليكم أن الحضرة الملكية الخاصة تستوجب أن يكون بها جمع من أرباب الصناعة والاساتذة المهرة فى كل فن ، وفى هذا الوقت فان بعض الاساتذة الحاذقين أحدهم فى صناعة المينا وواحد فى الساعات وآخر قاطع ماس وواحد صائغ ماهر وآخر صانع بنائق وواحد نقاش حاذق وآخر مدفعى تحتاجهم الحضرة ويوجدون الآن لديكم ومن سبل المحبة والوحدة أن تأمروا منحوبكم أن يرسلوا هؤلاء الاشعاص ومعههم تلاميذهم وأدواتهم مع شقات من عنبكم حتى يقوموا فى حضرتنا الشريفة بصناعاتهم

وخدماتهم وحتى لا يتوقفوا عند شروعهم في عملهم على العمال والادوات والمهمات . وهذا مما يؤدي الى زيادة دوافع الصداقة ولما كان الغرض هو تشييد مباني المحبة والوداد وتمهيد قواعد الالفة والاتحاد فلا أظن عليكم .

جعل الله أيام دولتكم وتوفيقكم مقرونة مع رضا الباري عز اسمه وجعل غائبة أمركم الى خير مال بتوفيقه اللامتناهي بالخير والسعادة (١) .

يتضح من الرسالة البسيطة أن الشاه صفى طلب من ملك انجلترا أن يرسل اليه في ايران بعض الصناع المهرة في الميناء والساعات والبنادق وغيرها ويجب أن نشير هنا الى أن الصناع الاجانب زاحوا في ايران زيادة كبيرة منذ عصر شاه عباس ، وكما ذكر أحد السياح الفرنسيين (٢) في مذكراته أنهم كانوا أيضا يتقاضون أجور باهظة من الحكومة الايرانية حتى أن مرتبات بعضهم كانت ألفين وخمسمائة جنيه فرنسي غير السكن والمأكل وذكر تافرنية في كتابه شخصا اسمه رودلف كان الساعاتي الخاص للشاه صفى لكن في النهاية أهر الشاه بقتله بسبب قتله لشاب ايراني .

ومع أن العلاقات الايرانية الانجليزية كانت ودية في عصر الشاه صفى كما سنذكر في الفصل الخاص بعلاقات ايران وهولندا . ولكن الجزء الاكبر من تجارة ايران سواء الصادرات أو الواردات تحول الى أيدي التجار الهولنديين في عصر هذا الملك . وأعفى الهولنديون من أداء الرسوم الجمركية . ولما كان هذا الامر مبعث قلق لندوبى شركة الهند الشرقية الانجليزية فقد طلبت الشركة من تشارلز الاول أن يرسل رسالة الى شاه ايران يوصي فيها برعاية مصالح الشركة . وقد كتب تشارلز الاول في الرسالة التي بعث بها الى الشاه صفى في شوال ١٠٤٤ هـ (٢٧ مارس ١٦٣٥ م) يشكو من أن التجار الانجليز لا يتسلمون الحريز في المواعيد المحددة أو بالكميات اللازمة بالرغم من الاتفاقيات ووعود شاه ايران ولهذا

(١) من كتاب علاقات ايران وأوروبا للدكتور خانبا بابيانى ويلاحظ ركافة الاسلوب .

(٢) مذكرات القس سانسون المبشر المسيحي الذي ذهب الى ايران سنة ١٦٨٣ م (١٠٩٤ هـ) .

تلحقهم خسائر جسيمة * وهم يطلبون من شاه ايران أن يرعى مصالحهم وتنفيذ الاوامر التي سبق أن أصدرها فيما يتعلق بتجارة مندوبى شركة الهند الشرقية ويسلموهم مايلزمهم من حرير طبقا للاتفاقيات والمعاهدات السابقة وبالقيمة التي سبق تحديدها من قبل *

وقد ذكر الشاه صفى فى رده على هذه الرسالة أن التجار الانجليز يحتاجون فى ايران بحرية تامة ولا يعوق أحد عملهم ويأمل أن تحسن معاملتهم التجار الايرانيين فى انجلترا ولايعوق أحد تجارتهم أو بيعهم وشراءهم لما يحتاجون من بضائع *

ومع هذا أخذت دائرة تجارة الهولنديين تتسع فى ايران يوما بعد يوم وتشتعل نار منافستهم مع الانجليز وتلتهب وسنة ١٠٤٩ هـ (١٦٣٩ م) حصل التجار الانجليز من حاكم بغداد على اذن بتخليّة بضائعهم فى ميناء البصرة وذلك حتى يوسعوا مجال تجارتهم فى الخليج وينافسوا الهولنديين فى العراق * ولكن هذا الامر أيضا لم يؤدى الى نتيجة مؤثرة وثبت لهم أنهم ان أرادوا النجاح فى مساعيهم فعليهم اقامة مركز تجارى ثابت فى البصرة وهذا ما حدث فعلا فى سنة ١٠٥٣ هـ (١٦٤٣ م) *

علاقات إيران والانجليز في عصر الشاه عباس الثاني والشاه سليمان

في ذلك الوقت جمع الانجليز بعض السفن الحربية في الخليج منتهزين
الخلاف الذي كان قد حدث بين الحكومة الايرانية والهولنديين وهاجموا على
قلعة قشسم وسواحل الخليج الايرانية وحصلوا على امتيازات جديدة من
الشاه عباس الثاني . وعلى العكس فقد اختل الوضع التجاري لشركة
الهند الشرقية الانجليزية في بندر عباس وعندما اضطربت الامو بين
الهولنديين والحكومة الايرانية وخوفا من اندلاع الحرب قام مندوبو شركة
الهند الشرقية بنقل اموال مركزهم التجاري من بندر عباس الى البصرة .

ولكن هذه الرسالة لم تؤد الى أية نتيجة . وكما كتب شاردان في
ايران أرسلوا بعض السفن الى البصرة وهدموا المركز التجاري الانجليزي
هناك ، كما استولوا على مسقط من أيدي البرتغاليين . ولما كانت الحرب قد
اندلعت بين الانجليز والهولنديين في أوروبا سنة ١٠٦٢ هـ (١٦٥٤ م) بسبب
تصويب قانون الملاحة في البرلمان الانجليزي ، فقد انقلبت المنافسة التجارية
بينهما في الهند وايران الى نزاع وحرب وهو ما سنفصله في فصل آخر .

في هذه الاثناء اغتمت الحكومة الايرانية الخلافات الانجليزية
الهولندية فألغت بعض امتيازاتهم . منها أنها امتنعت عن دفع جزء من دخل
جبارك بندر عباس كانت تدفعه للانجليز سنويا . ولهذا اشتمت شركة
الهند الشرقية الى ملك انجلترا الذي كان آنذاك تشارلز الثاني . فكتب
رسالة الى الشاه سليمان الصفوي في هذا الشأن مضمون جزء منها هو :

« كتبت اليها شركة الهند الشرقية في غاية الخضوع أنها منذ خمسين
سنة وتقديرا للخدمات الهامة التي قدمتها لصاحب الجلالة الشاه عباس
الكبير خاصة مساعدته في الاستيلاء على قلعة قشسم وجزيرة هرمز وبناء على



الشاه عباس الثاني

عن صورة لاحد الرسامين المعاصرين له

المادة الثالثة من الاتفاقية الخاصة مفق تقرر أن يدفع للشركة نصف الرسوم الجمركية على البضائع التي ترد أو تصدر من هرمز الى جانب امتيازات أخرى وتشكو الشركة الآن من أن بعض مسئولى جلالتم قد حرموهم من بعض حقوقهم منذ بضع سنوات كما أنهم قللوا الرسوم الجمركية التي تدفع للشركة الى حد أنها لم تعد تصل الى ألف تومان ، *

ثم طلب من الشاه سليمان أن يأمر مسئوليه لحفع نصيب الشركة من الرسوم الجمركية وتادية مالم يدفعوه من قبل وأن يحترموا الاتفاقية في المستقبل أيضا *

ولكن هذه الرسالة لم تؤد الى أية نتيجة * وكما كتب شاردان في مذكراته فان الشيخ علي خان زنجنه الوزير الاعظم الذى كان قد تأثر من مجىء السفير الانجليزى الى اصفهان ومن محتويات رسالة تشارنر الثانى قال يوما لندوب شركة الهند الشرقية الذى يبدو وأنه كان في ذلك الوقت هو « اتين فليير » يبدو أنك الذى تحرض الانجليز كل يوم على المطالبة بمطالب لامعنى لها وترسل لنا كل يوم شخصا يضع على كتفه ذراعين من قماش أحمر كسفير جديد * أن الحكومة الايرانية قد دفعت للان أجر الخدمات التى قدمها الانجليز ألف مرة ، ولسنا أول من خالف الاتفاقيات بل أنتم ولهذا فلنا الحق فى أن نعد هذا الاتفاق ملغيا *

كانت قوة الهولنديين ونفوذهم فى الخليج أكثر كثيرا من الانجليز حتى نهاية القرن الثانى عشر الهجرى ، ولكن حدثت فى أوروبا أحداث أدت الى ضعف قوتهم فى أواخر هذا القرن *

فى سنة ١٠٨٣ هـ (١٦٧٢ م) أعلن لويس الرابع عشر ملك فرنسا للحرب على هولندا بسبب تدخلها فى النزاع بين أسبانيا وفرنسا وبعد ٤ سنوات الحق « هوكن (١) » قائد البحرية الفرنسية المشهور هزيمة منكرة بالقوات البحرية الهولندية فى البحر الابيض المتوسط التى كان يقودها رويتر (٢) القائد البحرى الهولندى المعروف * وبعد هذا تصالحت للحكومة الانجليزية مع هولندا بعد أن كانت تؤيد فرنسا وذلك تحت ضغط الشعب الانجليزى الذى كان يعارض فرنسا * بل وقامت بتأييد هولندا مثل بقية

الدول الاوربية . ومن سنة ١١٠١ هـ (١٦٨٨ م) حينما ارتقى ويليام دى أورانج (١) رئيس حكومة هولند عرش انجلترا اشتركت انجلترا فى اتحاد أكسبورج (٢) ضد فرنسا مثل هولندا أو من ذلك الوقت أصبحت السياسة الهولندية تحت تأثير سياسة انجلترا . وانتهى الخلاف بين هاتين الدولتين .

فى تلك الاوقات تدعور مقام الهولنديين ومركزهم فى اسيا بسبب الظلم والتعسف الذى ارتكبه فى الهند وبحر المشرق وعادت التجارة الانجليزية الى الازدهار فى القرن الثانى عشر . وفى سنة ١١٠١ هـ (١٦٨٨ م) تركت الحكومة الانجليزية جزيرة بمباى التى كان البرتغاليون قد غادروها الى شركة الهند الشرقية فى مقابل ايجار زهيد كما سمحت للشركة بتكوين جيش لتنفيذ أهدافها وتولى مسئولية ادارة بمباى بنفسها ولهذا انتقل مركز شركة الهند الشرقية من سورت الى بمباى .

بعد هذا أخذت الشركة رويدا رويدا فى الحصول على ممتلكات لها والاستيلاء على الاراضى وأخذت فى انتهاج سياسة استعمارية فى الهند . وأدى نجاح الشركة الى كراهية شديدة لها ومنافسة من التجار فى انجلترا حتى أن بعضهم كون شركة فى سنة ١١١٠ هـ باسم الشركة العامة لتجارة الهند الشرقية واستطاعوا الحصول على قانون من البرلمان الانجليزى والغاء امتياز احتكار تجارة المشرق الذى كان قد منح من قبل لشركة الهند الشرقية وأخذت المنافسة تزداد بين هاتين الشركتين والشركات الاخرى التى أخذت تظهر بعد ذلك ، واتضح بعد وقت قصير أن هذه المنافسة كانت ضد اصول التجارة والسياسة الانجليزية . لهذا اتحدت كل الشركات القديمة وكونت شركة كبيرة باسم « شركة التجار الانجليز لتجارة الهند الشرقية » . ومنذ ذلك الوقت أصبحت شركة الهند الشرقية مؤسسة وطنية عامة . وقام ملك انجلترا بتعيين مديرى الشركة فى مناصب رسمية كسفراء لدى ملوك الهند أو كقناصل أو ماثابه هذا وعن هذا الطريق زاد نفوذهم وسلطانهم .

العلاقات الإيرانية الانجليزية في نهاية العصر الصفوي

بعد وفاة الشاه سليمان خلفه الشاه السلطان حسين وكان يميل الى الانجليز أكثر من ميله للهولنديين حتى أنه ذهب ذات يوم مع مجموعة من نساء حرمه في اصمهان الى المركز التجارى الانجليزى وخلع على المستر بروس (١) مدير المركز بخلعة من الملابس وسيف مرصع وأمر بدفع نصيب الشركة عن عام من رسوم جمرك بندر عباس . وقد استقبله الانجليز استقبالا حافلا ووضعوا جميع مخازن الشركة تحت تصرفه حتى يعطى منها مايشاء لمرافقيه .



في سنة ١١١٧ هـ أصبح الخليج مسرحا لنشاط القراصنة ، ولما لم يستطع الانجليز القضاء عليهم قتل هيبتهم ونفوذهم في الخليج .

وفي سنة ١١٣١ هـ هجم عرب مسقط على البحرين واستولوا عليها ثم استولوا على بعض الجزر الساحلية الإيرانية ومنها جزيرة قشم بتحريض من الدولة العثمانية التي كانت تريد أن تستفيد من اضطراب

الأوضاع الداخلية في إيران ، وهجوم الأفغان عليها . وقد أراد لطف علي خان القائد الإيراني الشجاع وأخو فتح علي خان اعتماد الدولة الوزير الأعظم للشاه سلطان حسين التصدي لهم ولكن محمود الأفغاني كان قد هاجم كرمان قادمًا من قندهار فاضطر لترك العرب وأسرع لصد الأفغان وبقيت هذه الجزر تحت سيطرة العرب .

وفي سنة ١١٣٤ هـ هجم جماعة من البلوتش على كرمان وفارس وارسلوا فرقة قوامها أربعة آلاف من الفرسان للاستيلاء على بندر عباس غنصت لهم الثروات الإنجليزية والهولندية وحافظت على مراكزها التجارية هناك من السلب والنهب .

والى هنا ينتهى تاريخ العلاقات الإيرانية الإنجليزية في العصر الصفوى وتتلخص علاقاتهم بعد ذلك حتى أوئل العصر القاجارى كما يلى :

أغلقت المراكز التجارية الإنجليزية وغيرها في اصفهان فترة استيلاء الأماغنة على إيران وكان بندر عباس وجزر الجنوب غالبًا عرضة لهجوم الأفغان وشيوخ العرب . وكان نادر شاه أفسار في بداية حكمه لا يحب الإنجليز وكان ينظر إليهم بعين الشك والريبة لأنه حين أراد مساعدة أمام عمان سيف بن سلطان ثانى والقضاء على ثورة أتباعه بإرسال أربعة آلاف من المشاة وألف وخمسمائة من الفرسان الى عمان امتنع الإنجليز عن تقديم سفنهم له لنقل هؤلاء الجند بينما قدم له الهولنديون سفينة واحدة ، ولكنه بعد أن جلس على العرش غير سلوكه تجاههم وأصبح صديقًا لهم ولكنه امتنع عن إعطاء امتيازات جديدة لشركة الهند الشرقية أثناء حكمه واكتفى بتحديد الامتيازات السابقة ودفع ألف تومان سنويًا من دخل الرسوم الجمركية لبندر عباس .

بعد مقتل نادر شاه اضطربت أوضاع إيران مرة أخرى ، واستمر هذا الوضع حتى ظهور كريم خان زند وفي سنة ١١٦٥ هـ أغلق المركز التجارى الإنجليزي في اصفهان ولم يفتح بعد ذلك . وفي سنة ١١٧٣ هـ / ١٧٦٠ م حينما كانت نار الحرب مشتعلة بين إنجلترا وفرنسا في أوروبا وصلت الى بندر عباس أربع سفن فرنسية وقصفت المركز التجارى الإنجليزي بالمدافع وأضرمت فيه النيران ونهبوا ما كان به ، ولهذا اضطرت شركة الهند الشرقية

الى نقل مركزها التجارى مؤقنا من بندر عباس الى البصرة وذلك حتى عام ١١٧٧ هـ / ١٧٦٤ م وفى ذلك الوقت وافق كريم خان زند على أن تقوم الشركة بإقامة مركز لها فى ميناء بوشهر تزاوّل تجارتها منه . ولكن حوالى سنة ١١٨٣ هـ - ١٧٧٠ م اضطربت الاوضاع بين كريم خان والانجليز فأغلقوا مركزهم التجارى فى بوشهر وصار ميناء البصرة هو مركز تجارة شركة الهند الشرقية . وبعد أربع سنوات انتقل المركز الى بوشهر بسبب انتشار وباء الطاعون فى بغداد والبصرة واستقلت مجموعة من موظفى الشركة السفينتين الى ميناء بمباى ولكن كريم خان - الذى كان غاضبا عليهم - أرسل بعض السفن فى طريقهم استطاعت أن تأسر إحدى السفينتين وحملت اثنتين من مسئولى الشركة الى شيراز حيث سجنهما لمدة عام .

بموت كريم خان انتهى عصر سيطرة واستيلاء ايران على الخليج وأخذت قدرة انجلترا تزداد فى البحر ولما كان هذا يخرج عن موضوع الكتاب فأننا لن نتعرض له .

مصادر هذا الفصل

أهم المصادر التي تناولت تاريخ العلاقات الإيرانية الإنجليزية والتي وردت في هذا الفصل هي :

١ - كتاب دون جوان الإيراني ترجمة المستشرق الإنجليزي لسترانج لندن ١٩٢٦ .

- ٢ - شرح رحلة الأخوين شيرلي لندن سنة ١٨٢٥ وترجمتها للفرسية .
- ٣ - النساء عباس الأول تأليف لوسيان لوى بلان باريس ١٩٣٢ .
- ٤ - رحلة كرنليوس دي بروين الفارس والرسام الهولندي في جزئين .
- ٥ - رحلة شارदान الفرنسي في عشر مجلدات طبع روين سنة ١٧٢٣ .
- ٦ - إيران والمسألة الإيرانية تأليف لورد كيرزن لندن ١٨٩٢ في جزئين .
- ٧ - رحلة بيتردلا فاليه الإيطالي ٨ أجزاء طبع روين ١٧٣٥ .
- ٨ - الخليج الفارسي تأليف سيرارنولدويلسون اكسفورد سنة ١٩٢٨ .
- ٩ - رحلة بابتيست تافرنيه الفرنسي جزئين باريس سنة ١٦٩٢ وترجمته الفارسية .

١٠ - أول رحلة الى روسيا وإيران لانتوني جينكس تأليف دلمار مؤرجان وكوت لندن ١٨٨٥ .

- ١١ - تقويم الشاه سليمان تأليف شارदान - الترجمة الفارسية .
- ١٢ - رحلة دون جارسيا سيلفا فيجورا باريس ١٦٦٩ .
- ١٣ - رحلة سير توماس هيدبرت لندن ١٦٧٧ .
- ١٤ - عالم آراء عباسي تأليف اسكندر بك منشي تركمان .

١٥ - تاريخ سير جون مالكون السفير الإنجليزي لدى بلاط فتح علي شاه قاجار .

١٦ - رحلة مانديلسلو الترجمة الفرنسية بواسطة آدم دي ديكنور باريس ١٦٧٩ .

١٧ - رحلة أولياريوس سفير فريدريك دون هلتشفاين والذي جاء الى إيران سنة ١٠٤٦ هـ (١٦٣٧ م) .

- ١٨ - مذكرات بارى عن رحلة أنطونى شيرلى لندن سنة ١٦٠١ م .
- ١٩ - تاريخ الرحلات البحرية والبرية تأليف بورشاس جلاسجو
١٩٠٥ م مجلدات .
- ٢٠ - حالة ايران فى سنة ١٦٦٠ م تأليف « الاب » رامائيل دومانس
طبعة شيفر سنة ١٨٩٠ ومقدمته .
- ٢١ - قصة السير انطونى شيرلى تأليف السير دينيس روس Sir D. Ross
لندن ١٩٣٣ م .
- ٢٢ - أحسن التواريخ تأليف حسن بك ردملو .
- ٢٣ - تاريخ ايران تأليف سايكس Sir P.M. Sykes لندن ١٩١٧م .
- ٢٤ - دائرة المعارف للفرنسية .
- ٢٥ - منتظم ناصرى ج٢ تأليف محمد حسن خان صنيع الدولة .
- ٢٦ - « مناظر ايران وما يلفت النظر فيها » تأليف اندريه دوليه -
دلاند باريس سنة ١٩٧٣ م .
- ٢٧ - اقدم العلاقات بين ايران وروسيا تأليف سيد محمد على جمال
زاده ملحق مجله كاوة المجموعة الثانية .

الفصل الثالث

علاقات ايران وهولندا

علاقات ايران وهولندا

بداية تجارة الهولنديين مع دول المشرق :

قبل أن نتحدث عن تاريخ العلاقات الايرانية الهولندية يحسن أن نذكر نبذة عن تاريخ تجارة الهولنديين مع دول المشرق والهند .

كان الهولنديون يتاجرون مع الهند ودول المشرق عن طريق ليشبوننه عاصمة البرتغال وذلك من منتصف القرن السادس عشر الميلادي لان هولندا في ذلك الوقت كانت من بين مستعمرات الامبراطورية الاسبانية . ولما كان فيليب الثاني يريد أن يحتكر تجارة المشرق لاسبانيا والبرتغال لهذا كان يحتجز السفن الهولندية في الغالب ويمنعها من الاتجار مع المستعمرات البرتغالية في المشرق ولكن الهولنديين الذين يحبون التجارة كثيرا ويريدون مشاركة البرتغاليين في أرباح التجارة مع المشرق لم يتراجعوا واستطاعوا الاتجار مع الدول الاسيوية عن غير طريق أسبانيا .

وفي سنة ٩٩١ هـ (١٥٨٣ م) قام أحد أهالي مدينة هارلم الهولندية اسمه جان هويجن فان لينشوتين(١) بالسفر برفقة أسقف جوا الى الهند وظل بها حتى سنة ١٠٠١ هـ (١٥٩٢م) وحصل على معلومات هامة عن المنتجات التجارية وطرق السفن الى الهند ووسائل المنافسة مع التجار البرتغاليين وغير ذلك ، وحينما عاد الى هولندا نشر معلوماته هذه كما كتب كتابا لارشاد البحارة الهولنديين الذين يذهبون للمشرق بين فيه الطريق البحري بين أوروبا والمشرق مع الجزر والموانئ التي تقع على الطريق وهبوب الرياح الموسمية والتيارات البحرية في المحيطين الاطلسي والهندي وغير هذا من المعلومات المفيدة كما أضاف للكتاب ببعض الخرائط والجداول .

وبعد عودة لينشوتين بقليل قام تجار أمستردام بارسل كورنليس هوتمان(٢) - الذي كان قد سافر قبل ذلك عدة مرات على السفن البرتغالية الى الهند - الى ليشبوننه ليجمع لهم معلومات كافية وكاملة عن تجارة الهند

Jan Huyghem Van Linschoten
Cornelis Houtman

(١)
(٢)

الشرقية وعاد هوتمان سنة ١٠٠٣ هـ (١٥٩٤ م) من البرتغال الى هولندا وأبدى استعداداه لقيادة مجموعة من السفن الهولندية يحمل عليها مجموعة من التجار الهولنديين الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح وقد وافقه تجار أمستردام على هذا وأرسلوا أربع سفن تحت قيادته الى « الناحية الاخرى من رأس الرجاء الصالح » سنة ١٠٠٧ (١٥٩٨ - ١٥٩٩ م) وعاد هوتمان في العام التالي الى هولندا وكان ثلثا مرافقيه قد هلكوا اثناء الرحلة واحترقت إحدى سفنه ولم يبق عمل كبير في التجارة سوى عقده لاتفاقية مع ملك بونتام Bontam في جزيرة جاوة حصل بمقتضاها على حرية السفن الهولندية في التجارة مع مجموعة جزر الهند الشرقية .

بعد هذا أرسل التجار الهولنديون سفنا متتابعة الى الهند وجزر جنوب شرق آسيا من بينها خمس عشرة سفينة عبرت رأس الرجاء الصالح فيما بين ١٠٠٧ ، ١٠١٠ هـ .

في تلك الاثناء تكونت عدة شركات تجارية هولندية واتحدت هذه الشركات سنة ١٥٩٧ م (١٠٠٥ هـ) في شركة كبيرة واحدة باسم « شركة التجارة مع الدول النائية » وفي سنة ١٦٠٢ (١٠١٠ هـ) وحدت الحكومة الهولندية الشركات المختلفة التي كانت تتاجر مع الهند الشرقية - وكانت تتنافس فيما بينها غالبا - في شركة كبيرة باسم « شركة للهند الشرقية الهولندية » واعطتها مطلق الحرية في التجارة لمدة ٢٠ عاما .

وقد أخذ الهولنديون منذ عام ١٥٩٩ م (١٠٠٨ هـ) في منافسة للتجاره الانجليز في المطارة والتوابل وتسببوا لهم في خسائر فادحة وكان هذا الامر - كما ذكرنا في الفصول السابقة - سببيا في تأسيس شركة للهند الشرقية الانجليزية .

في سنة ٢٠١١ هـ حطم الهولنديون مجموعة من السفن البرتغالية بالقرب من بونتام وشقوا طريقهم الى جزر ملوك أو جزر التوابل وفي العام التالي هددوا ميناء جواء مركز تجارة البرتغاليين في الهند وفي سنة ١٠٢٨ هـ (١٦١٩ م) استولوا على جزيرة جاوة أيضا وجعلوا مدينة باتافيا Batavia (جاكرتا حاليا) عاصمة ومركزا تجاريا لهم . ومنذ سنة ١٠٤٧ هـ (١٦٣٧ م) أخذوا في اخراج البرتغاليين من جزيرة سرنديب

(سيلان) وبعد ثلاث سنوات أى فى سنة ١٦٤١ م استولوا منهم على شبه جزيرة ملاكا Malaca . وفى سنة (١٠٦٣هـ) (١٦٥٣) سقطت راس الرجاء الصالح التى كانت أهم محطة فى الطريق بين أوربا والهند فى أيديهم . كما سقطت فى نفس هذا العام تقريبا كل المستعمرات البرتغالية فى المشرق فى قبضة الهولنديين .

بداية تجارة الهولنديين مع ايران :

بعد أن استولت ايران على جزيرة هرمز من أيدي البرتغاليين وجعلت بنسدر عباس مركزا لتجارة الخليج وجد الهولنديون طريقهم الى بندر تاز وأسسوا هناك مركزا لتجارتهم فى سنة ١٠٣٢ هـ (١٦٢٣ م) وكانت ذريعتهم للدخول للخليج والاشتراك فى تجارة ايران أنهم أثناء القتال بين السفن الانجليزية والبرتغالية عاونوا الانجليز .

ولما كان الشاه عباس آنذاك مشغولا فى حرب العثمانيين للاستيلاء على جزء من بلاد بين النهرين والعراق (بغداد) وكان يقاتل حافظ أحمد باشا القائد التركى حول هذه المدينة فانه لم يعترض على الهولنديين .

بعد هذا بقليل قامت شركة الهند الشرقية الهولندية بإرسال شخص اسمه هوبرت فيسنيك (١) كسفير الى بلاط أصفهان وطلبت من الشاه عباس الذى كان قد عائد منتصرا من حرب بغداد أن يشترك التجارة الهولنديون فى تجارة الحرير . وقد استقبل الشاه عباس هذا السفير بالترحاب وعقد بين الطرفين اتفاق فى ٢١ نوفمبر ١٦٢٣ م ، (٢٦ محرم ١٠٣٣ هـ) فيما يلى بعض أهم مواده :

١ - يسمح الشاه الايرانى لكل رعايا هولندا بالسفر فى كل أنحاء ايران بحرية تامة ولهم حرية شراء أو بيع أى بضاعة .

٢ - يعنى التجار الهولنديون من دفع أية رسوم نقدا فيما عدا رسوم الطرق ولكن ليس لهم الحق فى استيراد أو تصدير بضاعة تزيد عن الحد .

٣ - أموال الهولنديين سواء البضائع أو النقد تخضع لحريتهم فى

الدخول والخروج الا البضائع الممنوعة ويستطيعون السفر مع بضائعهم في
ايران .

٤ - يسمح للهولنديين باستخدام الاوراق والاوزان المستعملة في
بلادهم في معاملاتهم التجارية .

٥ - اذا توفي أحد الرعايا الهولنديين في أى مكان بايران فان الحكومة
الایرانية تتعهد بتسليم أمواله الى أحد مواطنيه في ذلك المكان أو الى مندوب
شركة الهند الشرقية الهولندية .

٦ - على المسؤولين الايرانيين مساعدة التجار الهولنديين في تهيئة
المسكن والمأكل ووسائل الحمل والنقل وما شابه ذلك ، وتوصيلهم من مدينة
الى أخرى اذا اقتضت الضرورة .

٧ - يعد مركز تجارة شركة الهند الشرقية الهولندية آمناً من الهجوم
أو التعرض له ولا يحق لای مسئول قضائي الدخول فيه دون اذن وللهولنديين
الحق في الدفاع ومقاومة أى هجوم .

٨ - يسمح للهولنديين باقامة كنيسة لهم في ايران .
٩ - اذا دخل أحد الرعايا الهولنديين في الاسلام فان مندوب الشركة
يستطيع أن يلقى القبض عليه في أول فرصة ويستولى على أمواله .

١٠ - يستطيع التجار الهولنديون تصدير أى سلعة من ايران سوى
الخيول والبضائع التي تمنع الدولة تصديرها .

بعد عقد هذا الاتفاق أرسلت الحكومة الهولندية خطاب شكر الى الشاه
عباس ، وقام الشاه عباس - الذي كان ينظر بعين الحب والرضا الى
الهولنديين - بارسال أحد رجال بلاطه واسمه موسى بك كسفير الى هولندا
للعمل على اقامة علاقات الود والصداقة معها ضد حكومتى أسبانيا والبرتغال
وحملة برسالة ننقلها فيما يلي :-

رب العالمين عزز شأنه

نظام السلطنة والشوكة والنصفة والابهة والاقبال ملك النديس .

الى المجلس العالي والمحفل المتعالى حضرة رفيع المرتبة عالى المنزلة عز السلطنة والشوكة . عظيم الجلالة والانتساب حمى المملكة موطن العدل الرفيع الجاه والمحبة ، من له المودة شعارا ، حسن الاطوار ، سليل السلاطين العظام ، خلاصة الملوك رفيعى الجاه ، أعظم الولاة شوكة فى الديانة المسيحية أعدل الملوك المتمكنين فى بلاد الفرنجة الملك ذو الجاه عظيم الاداة صاحب الامر فى الممالك فسيحة المسالك

بعد هذا فانه نتيجة لدواعى المحبة وما يقتضيه ما بيننا وبين حضرات السلاطين العظام المسيحيين والملوك رفعى الجاه الفرنجية من روابط الصداقة والوداد وضوابط المصافحة والاتحاد المرعية وبعد أن فتحت أبواب المجىء والذهاب والرسول والرسائل فقد كنا ننتظر أن تراعى هذه الظاهرة من ناحيتكم وتظهر آثار الوحدة والاتحاد ولكن لم يحدث هذا خلال هذه المدة حسب التقدير الإلهى لم يجرى أحد من قبلكم الى ديارنا وفى هذه الاثناء وصل حامل الرسالة المتضمنة أسلوب المحبة واطلعنا على حقيقة حالكم مما أدى الى سرورنا وانبساطنا وغبطتنا ، وقد اطلع مبعوثكم على أطوار بلادنا واطعنا على الصداقة وأن نترعى هذا المسلك المرضي على عكس ماضى وأن نفتح أبواب الالفة والمعرفة وأن نقوى قواعد الصداقة والمحبة عن طريق الرسائل المستمرة المشتغلة على المودة والالفة وألا نسمح بالتنافر والتغير وأن نسمح لمرافقينا ورجال مملكتنا بالقدوم الى هذه المملكة فى غاية الاطمئنان والامان . ومزاولة الشراء والبيع حسبما يريدون وأن يتصرفوا وفقا لما يشاءون فلن نستطيع أحد فى دولتنا من منعهم ويمكنهم شراء أو بيع متاع أو بضاعة فى هذه البلاد أو شرائها والعودة الى بلادهم موفقين .

ونأمل أن تأمروا لى تزداد قواعد المحبة والصداقة ، ولما كان الغرض هو اظهار المحبة والصداقة فاننا لم نطلب ، جعل الله عواقب الامور مقرونة حسب رضاه بالخير وجعل التوفيق والسداد - بتقديره الإلهى - ممهدا لكم وسديدا .

وقد وصل موسى بك الى مدينة لاهاي في جمادى الاولى ١٠٣٥ هـ
(فبراير ١٦٢٦ م) وقدم رسالة الشاه عباس وهداياه الى ملك هولندا
وقدم السفير الايراني مقترحاته الى الحكومة الهولندية بناء على توجيهات
الشاه عباس واهمها :

١ - تستدعى الحكومة الهولندية كل سفرائها ومندوبيها من الاراضى
العثمانية وتفتح أبواب تجارتها مع ايران لان التجار الهولنديين لا يتمتعون
في الاراضى العثمانية بالامتيازات والحرية التى يتمتعون بها في الاراضى
الايرانية .

٢ - يعطى شاه ايران الحرية الكاملة للتجار الهولنديين في شراء أو
بيع أية بضائع في ايران ويوصى مأمورية أن يحسنوا معاملة الهولنديين
والأ يحصلوا منهم على أية رسوم أو أموال .

٣ - يتعهد السفير الايراني بأن ايران حين تسترد جزر هرمز وقشم
وميناء جمبرون من ملك أسبانيا فانها سوف تغلق الطريق التجارى البحرى
في الخليج في وجه السفن الاسبانية والبرتغالية لصالح الهولنديين أصدقاء
ايران وحتى يستطيع التجار الهولنديون مزاولة التجارة في الخليج بحرية
تامة .

٤ - لما كانت بعض قلاع مسقط ولارك ماتزال في أيدي البرتغاليين
فإن شاه ايران على استعداد لارسال قواته البرية والبحرية للاستيلاء
على هذه القلاع بمساعدة القوات البحرية الهولندية بشرط أن تقبل الحكومة
الهولندية نفس الشروط والقواعد التى قبلتها شركة الهند الشرقية الانجليزية
في مساعدتها للحكومة الايرانية لاسترداد جزيرة هرمز .

ولكن الحكومة الهولندية كانت قد حصلت قبل هذا من الشاه عباس
على ماتريد من امتيازات طبقا للاتفاقية التى أشرنا اليها وكانت ترى أن
حربها مع الحكومة الاسبانية في الخليج « الفارسى » لن تستفيد منها ، ولهذا
لم تعط للسفير الايراني ردا صريحا أو ايجابيا وعاد الى آسيا في جمادى
الثانى سنة ١٠٣٦ هـ (١٦٢٧ م) برفقة جان فيبيرز كوين (١) حاكم مدينة
باتافيا حاملا رسالة مجاملة للشاه عباس .

وقد وصل موسى بك في رمضان ١٠٣٨ هـ الى أصفهان برفقة سفير اسمه جان شميث (١). أرسله معه حاكم باتافيا وذلك بعد أربعة أشهر من وفاة الشاه عباس وقدم الرسائل والهدايا التي أرسلها معه حاكم هولندا الى خليفته الشاه صفى *

بعد وفاة الشاه عباس انتهز الهولنديون الفرصة وأخذوا في مقاومة مندوبي شركة الهند الانجليزية عن طريق استمالة المسؤولين في الحكومة الايرانية ورفع أسعار البضائع الايرانية وكان هدفهم هو اخراج الانجليز بآية وسيلة من المراكز التجارية والموانئ في الخليج * ولكن الشاه صفى خليفة الشاه عباس جدد الامتياز الذي كان لشركة الهند الشرقية الانجليزية لتجارة الحرير في ايران بشروط جديدة تحفظ مصالح ايران بشكل أحسن *

تحول جزء هام من تجارة ايران الى أيدي الهولنديين في زمن الشاه صفى وأغفتمهم الحكومة الايرانية من دفع الرسوم والجمارك على الواردات وكانت أهم الحاصلات من الهند وجزر جاوه وسومطرا مثل الفلفل والزعفران ومختلف أنواع العطاردة ترد عن طريقهم الى ايران وكانت السفن الهولندية تجر باسمرار بين ايران والهند بل انهم في سنة ١٠٥١ هـ (١٦٤١ م) كانوا يبيعون البضائع الاوربية في ايران بأقل من قيمتها الاصلية وذلك لكي يحتكروا تجارة البضائع الاجنبية في ايران *

هجوم الهولنديين على قلعة قشمر :

في أواخر سنة ١٠٤٦ هـ (أبريل ١٦٣٧ م) وصل الى ايران مندوبون من قبل فريدريك دوق هلمستاتين (٢) لبدء التجارة مع ايران والحصول على امتياز تصدير الحرير منها وقابلوا الشاه صفى في أصفهان واستقبلهم ملك ايران بكثير من الترحاب *

وقام الهولنديون بمساع لمنع هؤلاء المندوبين من تحقيق هدفهم. حتى لزيارة الوفد في نفس يوم وصوله وقال لهم صراحة أن مهمتهم ضد مصالح أن نيكولاس جاكوبس أوفرشل (٣) مندوب الشركة الهولندية ذهب

* Jan Smidt

* Frederic duc de Hole Stien

Nicolas Jacobs Over Schle

(١)

(٢)

(٣)

ومنافع شركة التجارة الهولندية وأنه سوف يمارضهم بناء على أوامر الشركة .
ثم قام برفع قيمة كل حمل من الحرير من ٤٢ تومانا الى ٥٠ تومانا على الفور
وبهذا منعوا الشاه من عقد اتفاق مع مندوبى دوق هليشتاين لتجارة الحرير
ولكن بعد أن غادر هؤلاء المندوبين ايران خفضوا قيمة الحرير الى ٤٤ تومانا .
وقد غضب شاه ايران من هذا التصرف وأصدر أمرا في سنة ١٠٥١ هـ بتحصيل
الرسوم الجمركية على البضائع الهولندية التي كانت معفاة منها حتى ذلك
الوقت . وعارض الهولنديون بدورهم وجمعوا قواهم البحرية في الخليج .

وفي خريف سنة ١٠٥٥ هـ (١٦٤٥ م) أى في السنة الرابعة لجلوس
الشاه عباس الثاني على العرش ، هاجموا قلعة قشقم . وفى نفس الوقت
ارسلوا بعض السفن الى جزيرة هرمز وسواحل الجنوب لينعوا التجار
الهنود وشركة الهند الشرقية الانجليزية من الاتجار مع ايران ولكن الحرارة
الشديدة قضت على بعض ملاحهم ولم يصلوا الى نتيجة من هذه العملية
فاضطروا لمصالحة الشاه وقدموا اليه والى المسؤولين الايرانيين بعض التحف
والهدايا فاعفيت بضائعهم مرة أخرى من الجمارك على اذن بشراء الحرير
بسعر ٤٦ تومانا لكل حمل (١) .

فى الوقت الذى حدث فيه خلاف بين الهولنديين والحكومة الايرانية
على سعر الحرير كما ذكرنا ، جاء أحد الامراء العرب - وكان قد استرد مسقط
من أيدي البرتغاليين - الى هرمز واقترح على كارل جونستانت (٢) مندوب

(١) يذكر السير أرنولد ويلسون في كتابه « الخليج الفارسي » هذه
الاهداث بصورة أخرى نقلا عن مذكرات «ج» بروس فيقول في ١٦٤٥ - ١٦٤٦ ،
لجأ التجار الهولنديون الى القوة لكي يرعبوا الايرانيين ويحصلوا على حق
احتكار تجارة ايران وهو ما سبق أن اقترحه مندوبو شركة الهند الشرقية
على رؤسائهم مرارا ولم يقبل . فجمعوا سفنا عديدة في الخليج وهاجموا
قلعة قشقم في خريف سنة ١٦٤٥ فارتعد شاه ايران من هذا الهجوم
وطالب الصلح من الكومودور بلوك Commodore Blook قائد السفن
الهولندية على أن يمنح الهولنديين امتيازات تجارية خاصة وتوجه بلوك
لاصفهان وقابل الشاه وعقد اتفاقية بمقتضاها يشتري الهولنديون أية
كمية من الحرير من أى مكان في ايران ويصدرونها دون دفع رسوم جمركية ،
وقد تسبب هذا في خسارة كبيرة لتجارة الانجليزية وضعف الروابط التجارية
التي كانوا قد اقاموها بين ايران والسواحل العربية .

Karel Gonstant

(٢)

الشركة الهولندية أن يستعمل سواحل الجزيرة العربية للتجارة مع القطيف والبصرة بدلا من الموانئ الإيرانية ووعده بتهيئة الجمال اللازمة لحمل البضائع إلى مسقط ومن هناك سوف يتعهد لهم أمير مسقط باعداد وسائل النقل . ولكن الهولنديين لم يقبلوا هذا العرض خوفا من أن يغضب شاه إيران منهم . وتصادف أن الشاه أرسل إلى الهولنديين في نفس ذلك الوقت رسالة ذكر فيها أن رعاياه يمكنهم بسهولة الاستغناء عن التوابل الهندية التي كانت أهم سلعة للهولنديين لأن في إيران بعض الاعشاب أفضل من الفلفل والقرنفل للهندي وأشد منها . وقد أدت هذه الرسالة إلى قلق الهولنديين واضطرابهم نظرا لأنهم كانوا يبيعون في إيران أكثر من ثمانمائة طن من التوابل كل عام . وكانوا يستخدمون ثمنها في شراء الحرير ، ولهذا لم يقبلوا عرض الأمير العربي الذي ربما كان سيتسبب في غضب شاه إيران عليهم .

منافسة التجار الهولنديين والإنجليز :

بعد أن تصالح الهولنديون مع الشاه عباس الثاني وأعفيت بضائعهم مرة أخرى من الرسوم الجمركية صمموا على ابعاد سيطرة الإنجليز عن سواحل الخليج ، لهذا سارعوا بإرسال ثمان سفن حربية إلى البصرة وهدموا المركز التجاري الإنجليزي في هذه المدينة . بعد ذلك أيضا قام العرب بتحريض من شركة الهند الشرقية الهولندية ومساعدتها بطرد البرتغاليين من مسقط سنة ١٠٦٠ هـ (١٦٥٠ م) فاتسعت دائرة نفوذ الهولنديين في الهند والخليج . وفي نفس العام وصلت إلى بندر عباس إحدى عشرة سفينة هولندية حاملة كثيرا من البضائع . وبعد عامين أحضر الهولنديون بضائع إلى إيران تصل قيمتها إلى حوالي ٢٢٠ ألف جنيه استرليني فالحقوا بخسارة كبيرة بالتجارة الإنجليزية وضع كل هذا ولأنهم كانوا قد طلبوا من الشاه عباس الثاني أن يمنحهم امتيازات الإنجليز ولم يقبل فإن التجارة الإنجليزية نفسها مع إيران قد انخفضت إلى حد كبير ولكنها لم تتوقف .

وفي سنة ١٠٦٢ هـ (١٦٥٢ م) اشتعلت الحرب في أوروبا بين إنجلترا وهولندا وكان سببها القانون الذي أصدره كرومويل (١) والمعروف باسم

قانون الملاحة (١) في ٩ أكتوبر ١٦٥١ م (١٠٦١) وبموجبه لايجوز للسفن الأوروبية أن تحمل إلى إنجلترا سوى البضائع التي تنتجها الدول التابعة لها تلك السفن وأعطى حمل ونقل البضائع الأمريكية والاسيوية إلى السفن الإنجليزية .

وقد رأى الهولنديون أن هذا القانون يضر بمصالحهم التجارية فدخلوا في حرب مع إنجلترا اعتمادا على قوتهم البحرية وبتشجيع من قائديهم البحريين المشهورين ترومب (٢) ورويتز (٣) واستمرت هذه الحرب عامين . بعد اعلان هذه الحرب بقليل وصلت بعض السفن الهولندية إلى ميناء سبورت الهندي ومنه إلى الخليج وعرضوا على البرتغاليين أن يتعاونوا معهم ضد شركة الهند الشرقية الإنجليزية . ليكفوا يد الإنجليز عن بحار آسيا . ولكن لم يقبلوا هذا العرض . واستولى الهولنديون وحدهم على ثلاث سفن إنجليزية على مقربة من ميناء جاسك . وفي ألعام التالية أغرقت خمس سفن هولندية سفينتين إنجليزيتين كبيرتين قرب بندر عباس وأسروا ثلاثين إنجليزيا .

وفي سنة ١٥٦٤ هـ (١٦٥٤م) الحق بليك (٤) القائد الإنجليزي هزيمة بالقوات البحرية الهولندية في أوروبا مما اضطر هولندا لطلب الصلح . وطبقا للمعاهدة التي عقدت بين الدولتين تحسنت أحوال الإنجليز المضطرية في بحار آسيا إلى حد ما ودفعت الحكومة الهولندية ٨٥٠٠٠ جنيه إنجليزي غرامة لشركة الهند الشرقية الإنجليزية .

وفي عصر الملك تشارلز الثاني استعبلت الحرب مرة ثانية بين الدولتين سنة ١٠٧٩ هـ (١٦٦٤م) واستمرت حتى بداية سنة ١٠٧٨ هـ (يونيو ١٦٦٧ م) وانتهت بهزيمة إنجلترا ولكن هذه الحرب لم تؤثر بشكل كبير على الأوضاع في الخليج .

في ذلك الوقت - أي سنة ١٠٧٥ هـ (١٦٦٤ م) - أسست شركة فرنسية باسم شركة الهند الشرقية أيضا ، فظهر منافس جديد للهولنديين والإنجليز في تجارة الشرق .

Acte de ma Navigation

Rugier (٤)

Blake (٣)

Tromp

(١)

(٢)

وكان نفوذ هولندا وقدرتها في الخليج اكبر كثيرا من انجلترا حتى
أواخر القرن الحادى عشر الهجرى ، ولكن هذا النفوذ والقدره أخذتا في الضعف
منذ أواخر ذلك القرن بالتدريج للأسباب التى سنذكرها •

بعد أن بدا لويس الرابع عشر حكمه الاستبدادى في فرنسا ، أعلن
الحرب على أسبانيا وهولندا لكى يعيد حدود فرنسا الى طبيعتها كما كان
يقول • وفى سنة ١٠٨٧ هـ (١٦٧٦ م) الحقت القوات البحرية الفرنسية
هزيمة بالقوات الاسبانية والهولندية في البحر المتوسط وقتل رويتر القائد
البحرى الهولندى المشهور • وقد ساعدت انجلترا فرنسا في بداية هذه
الحرب وكانت تحارب الهولنديين ، ولكن بعد أن اعتلى ويليام دى اورانج (١)
عرش انجلترا اتحدت انجلترا وهولندا وأصبحت حكومة هولندا تابعة
لحكومة انجلترا • ولما كان الهولنديون قد فقدوا حيثيتهم واعتبارهم في
ايران فى ذلك الوقت بسبب ظلمهم وتعسفهم فقد أخذ نفوذهم يقل رويدا
رويدا في الخليج وسواحل ايران وازدهرت تجارة شركة الهند الشرقية
الانجليزية •

سبب نجاح الهولنديين فى تجارة الشرق :

يرجع السبب فى نجاح تجارة شركة الهند الشرقية الهولندية فى الهند
وايران الى أن للحكومة الهولندية كانت تتدخل فى شئون تلك الشركة ولم
تكن تتوانى عن أية مساعدة أو عون ، كما أن الهولنديين عندما دخلوا ميدان
تجارة الشرق أخذوا فى جمع المعلومات الدقيقة عن تجارة الدول الشرقية
ودفع للوطنىون الهولنديون فى جميع أنحاء البلاد مبالغ كبيرة لانجاح اهداف
الشركة • واعتزمت شركة الهند الشرقية الهولندية الاستيلاء على الجزر
المنتجة للتوابل وابعد أى اناس آخرين عنها ، بينما لم يكن للتجار
الانجليز أو البرتغاليين الذين يعملون فى تجارة الشرق أمل كبير فى حماية
دولهم لهم وكانت مؤسساتهم التجارية فى الشرق دون حاسم أو حائط ،
كما أن الانجليز خصصوا مبالغ قليلة لتجارة الشرق ، وكانوا يستخدمونها
فى مختلف الأغراض ، كما أن الدولة لم تكن تساعدهم وكانت شركة الهند
الشرقية الانجليزية شركة خاصة أو شخصية بعكس الشركة الهولندية

التي كنت شركة وطنية ، ولهذا كان النصر حليف الشركة الهولندية في المنازعات أو المنافسة التي كانت تحدث بين الشركتين في آسيا ، ولكن عندما غيرت الشركة الانجليزية سياستها في الشرق - كما سبق أن ذكرنا في مصل العلاقات الإيرانية الانجليزية - وقامت الحكومة الانجليزية بحمايتها وتقويتها فان دائرة نفوذ الشركة في الشرق أخذت في الاتساع وأخذت تنفضى على منافسيها بالتدريج .

ازدهرت التجارة الهولندية كثيرا في عهد الشاه عباس الثاني ، وكان حجم تعاملهم التجاري أضعاف حجم التعامل الانجليزي أو الاسباني والبرتغالي . وكانت البضائع التي يجلبها الهولنديون الى ايران أغلبها من المصنوعات الأوربية المختلفة وأكثرها من الحاصلات الهندية وكانت أهم المصنوعات الأوربية هي الجوخ الهولندي بألوانه المختلفة والحاصلات الهندية مثل للتوابل المختلفة والسكر والنيلة والاششاب الثمينة والطور والفضة والرماس والنحاس والمنسوجات الصوفية وماشابه هذا . ولم تكن الشركة الهولندية تدفع أية رسوم جمركية على واردتها في ايران ، ولكنها كانت مضطرة لشراء ستمائة حمل حرير على الأقل كل عام بالثمن الذي تحدده الحكومة الإيرانية ولهذا لم يكن الهولنديون يربحون كثيرا من الصادرات الإيرانية وكانت أكثر أرباحهم من وارداتهم الى ايران ، وبالإضافة الى الحرير كانوا يشترون (القطيفة) المخمل والاقمشة الصوفية والسجاد وخاصة الفاخرة والخمور أيضا ، وأحيانا كانوا يصدرون الى أوربا الخزف الإيراني الذي يصنع في مشهد وكرمان وكان في حسنه يشبه الخزف الياباني والصيني ، وكانوا يستعيضون به عن الخزف الصيني والياباني ، وكان تعاملهم يتم بالريال الإيراني غالبا بالقرش الاسباني .

وقد استمر الهولنديون مدة يحملون المرمز والاحجار الممتازة الأخرى من هرمز ويندر عباس الى الهند وجاوه ويستخدمونها في بناء مراكزهم التجارية هناك وذلك بدلا من عودة سفنهم خالية . ولكن حين اعترضت الحكومة الإيرانية على هذا لجأوا الى تجارة الملح وحملوه على سفنهم حتى الصين واليابان .

وكان الهولنديون في تجارتهم يلجأون للحيلة والمكر كثيرا ولم يتورعوا عن الكذب والخداع للقضاء على منافسيهم أو تحقيق مصالحهم وكان التجار

الاييرانيون يشتمكون من حيلهم التجارية ومن كان منهم يتعامل مع الهولنديين غالبا ما كان أمره ينتهي الى الافلاس وكان معروفا بين التجار الايرانيين انه يمكن التعامل مع كل الفرنج الا الهولنديين الذين يخدعون كل الناس ومن المحال خداعهم .

وقد استمر احتكار الهولنديين لواردات ايران من أوروبا والهند مدة طويلة وكانوا يضيقون على منافسيهم ببيعهم لبضائعهم بأسعار رخيصة . ولم يكن للتجار الايرانيين قدرة على مخالفتهم لانهم اذا لم يقبلوا شراء البضائع الهولندية في بندر عباس بالتمن الذي يطلبونه فان مندوب الشركة كان يحجل هذه البضائع الى داخل ايران ومنها الرئيسية وبييعها بأسعار أقل من السوق كثيرا . ولما كان التجار يحتفظون في مخازنهم بكميات كبيرة من هذه البضائع فانهم كانوا يصابون بخسائر فادحة . ولهذا كانوا يضطرون للخضوع لمندوبي الشركة الهولندية .

ولما كان الهولنديون يبذلون جهدهم لاسترضاء الشاه للحفاظ على مصالحهم التجارية والسياسية ، وكانوا يتقربون اليه باستمرار عن طريق تقديم الهدايا والتحف (١) والقيام بالمهام المختلفة وحتى خديعة رجال البلاط والمقربين من الشاه من هذا أنه كان يجب الرسم كثيرا فاختار مندوب الشركة الهولندية في اصفهان اثنين من الرسامين الهولنديين أحدهما اسمه انجيل والآخر لوكار لكي يعلماه الرسم وعلى أيديهما مهد في الرسم حتى أنه توجد اليوم بعض لوحات جميلة لهذا الشاه .

كذلك كانوا يظهرون من العواطف والتعلق بالشاه ما يجعله يرضى عليهم ويميل اليهم مثال هذا أنه حينما كان يصل الى العاصمة كانوا يسبقون الآخرين لكي يكونوا في استقباله ويزينوا مركزهم للتجارى بالانوار، ويستمررون بضع ليالى يطلقون الالاعاب النارية(٢) .

(١) جرت العادة منذ أيام الشاه عباس على أن يقدم التجار الانجليز والهولنديون كل سنة بعد انتهاءهم من تجارتهم في هرمز وعودتهم الى اصفهان هدايا الى الشاه . وكانت غالبا من الاشياء النفيسة كالساعات الثمينة والمنسوجات الموشاة وبعض تحف الهند والنقود الذهبية وما شابه ذلك .

(٢) جلس الشاه عباس الثانى بن صفى على العرش في قزوین في أواخر سنة ١٦٤٢ م (١٠٥٢ هـ) وذهب الى اصفهان في العام التالى . وفي يوم

مراكز شركة الهند الهولندية في ايسران :

كان لشركة الهند الشرقية الهولندية مندوبون خاصون في بندر عباس ولار واصفهان وكان مركز مندوبهم في اصفهان يقع قرب ميدان الشاه وفي عمارة كبيرة جميلة له حديقة واسعة بها اشجار ناكهة وقنوات واحواض جميلة . وكان باب هذه العمارة كبيرا جدا وعاليا ، ويشاهد فوقه اللوحة الخاصة بشركة الهند الشرقية الهولندية . وكانت هذه العمارة ملكا لاحد اعيان اصفهان في عهد للشاه عباس الاول كان اسمه على ميرزا بك ولكن الشاه غضب عليه لسبب ما فقتله بيده واستولى على كل ممتلكاته وأعطى عمارته هذه لوكالة شركة الهند للشرقية الهولندية التي كانت قد ارسلت انذاك شخصا اسمه فيسينيك كأول مندوب لها للحصول على اذن من الشاه لبدء التجارة مع ايران . وكان المندوب الهولندي يريد شراء هذا المنزل له شخصيا ولكن الشاه عباس لم يقبل لانه كان يعد المندوبين الاجانب ضيوفه الاعزاء ويجب عليهم ان يقيموا في منازل حكومية . وبعد موت للشاه عباس أغرى ويسنيك المندوب الهولندي أحد أغوات قصر الشاه صفى واسمه يوسف لكي يطلب اذن بيع هذه العمارة من الشاه . وقام اغا يوسف بالمهمة ووفق في الحصول على اذن بيع المنزل لمندوب شركة الهند الشرقية الهولندية الذي اشتراه لنفسه وظل مدة طويلة يحصل على ايجاره من الشركة .

بعد مدة ارسلت الشركة شخصا في مهمة سرية لكي يفنئش على ويسنيك نظرا لتبذيره واسرافه واضاعته لكثير من اموال الشركة ويقبض عليه ويرسله للهند . ولكن ويسنيك علم بأمر هذا الشخص وقبل ان يصل الى اصفهان

وصوله ابلغ اعتماد الدولة الصدر الاعظم الايراني كل المسؤولين الاجانب وخاصة التجار الانجليز والاجانب لكي يشتركوا في الاستقبال فلما ابتعدوا عن المدينة نحو ٣ فراسخ (١٨ كم) كان الشاه مشغولا بصيد البط البحري وحين راىهم جاني خان قائد فرسان الشاه أشار اليهم كي يتبعوه ليقدمهم للشاه . وكان الشاه على حافة بركة يصطاد البط فاقترب منه جاني خان وقال له ان الفرنجة الهولنديين جاءوا للتهنئة بسلامة الوصول فنزلنا عن خيلنا على الفور وتقدم نيكولاس أوبرخيت N.O brechit رئيس الشركة الهولندية وقبل قدم الشاه التي كان قد أخرجها من ركاب فرسه مخصوصا لهذا الغرض . وفي اليوم التالي لوصوله زين رئيس الشركة الهولندية أحد خانات المدينة بالسجاد للتمين وأقام حفلا في العصر وأطلق بعض طلقات المدافع احتفاء بالشاه وانفق في هذا السبيل ما يقرب من ثمانمائة أو تسعمائة تومان ، وقد شرف الشاه حفلة بحضوره شخصيا .

غادرها ويسنيك وهرب للاراضى العثمانية وعثروا بين أوراقه على سند ملكية هذه العمارة التى انتقلت ملكيتها الى شركة الهند الشرقية الهولندية .

وبعد هذا قام خلفاء ويسنيك ببيع نحو نصف هذه العمارة الى شيخ الاسلام شقيق محمد مهدى الوزير الاعظم للشاه عباس الثانى ، ولكنهم ندموا بعد هذا على البيع .

وقد اضطر الهولنديون الى انشاء مركز تجارى لهم فى لار أيضا لانه أثناء حمل الحرير من اصفهان الى بندر عباس وهرمز كان لابد من تغيير الجمال الحاملة للحرير ، وبناء على قوانين ايران آنذاك فان الجمال المتوجهة من اصفهان الى الجنوب كان لايجب أن تتعدى مدينة لار بالإضافة الى هذا فان جمال ودواب اصفهان والمناطق الوسطى من ايران التى اعتادت على الجو المعتدل لاتتحمل هواء الجنوب الحار وتموت . وكان المركز التجارى الهولندى فى لار يقع على اطراف المدينة وعلى طريق هرمز .

وكان المركز التجارى الهولندى فى جمبرون أو بندر عباس يقع غربى الميناء وبجوار المركز التجارى لشركة الهند الشرقية الانجليزية وعلى مقربة من المركز التجارى الفرنسى . وفى سنة ١٦٩٨ م (١١٠٩ - ١١١٠ هـ) قام أحد مندوبى الشركة واسمه هوجكامر (١) ببناء عمارة جديدة ومخازن كبير للشركة تقع على شاطئ البحر عند نهاية شرق الميناء .

ختم الشاه سليمان الصفوى

وضع هذا الختم على ظهر رسالة منه الى يوبولد امبرطور النمسا في
وسطة عبد الولاية الشاه سليمان وحولها اللهم صلى على محمد المصطفى
وعلى فاطمة الزهراء وعلى المرتضى وعلى الحسن والحسين وعلى زين العباد
وعلى محمد الباقر وعلى جعفر الصادق وعلى موسى الكاظم وعلى علي الرضا
وعلى محمد النقي وعلى حسن العسكري وعلى الحجة المهدى صاحب الزمان .



علاقات ايران وشركة الهند الشرقية الهولندية

في زمن الشاه سليمان الصفوي

في أواخر عصر الشاه عباس الثاني قامت شركة الهند الشرقية الهولندية الهولندية بارسال سفير ومندوب فوق العادة اسمه هوبر دي لورس الى الشاه عباس مع بعض الهدايا لتقوية العلاقات التجارية وحصل على الامتيازات التي كان يريدونها منه .

وماكاد الشاه عباس الثاني يتوفى في خسرو اباد من توابع دامغان ويصل خبر وفاته الى اصفهان التي كان بها هذا السفير والذي كان قد عين لرئاسة المركز التجاري الهولندي في بندر عباس حتى أراد أن يصل بأسرع مايمكن الى هذا الميناء .

ولكن وفاة الشاه عباس وتغيير الأوضاع في ايران حالت دون سفره لأن العادة في ايران كانت اذا مات الشاه تلغى جميع الامتيازات والاتفاقيات مؤقتا حتى يعاد توقيعها من الشاه الجديد ولهذا خشي السفير الهولندي الا يصدق الشاه الجديد على الاحكام والامتيازات التي تعب في الحصول عليها من سلفه ، ولكن لانه كان ذكيا وذا تجربة استطاع أن يستقرصي أحد رجال البلاط المقربين من الشاه الجديد عن طريق تقديم هدية له حتى يأخذ له اذنا بالتشرف بمقابلته . ولهذا استطاع بسهولة أن يرى الشاه الجديد الذي كان يلقب آنذاك بالشاه صفى الثاني وأن يحصل على توقيعه على احكام وامتيازات الشاه المتوفى واستأذنه في السفر الى بندر عباس .

وفي عصر الشاه سليمان أخذت تجارة الهولنديين في ايران تقل بالتدريج حتى أنهم كانوا يشترون ثلثمائة بالة من الحرير في العام فقط . أي نصف ماكانوا يشترونه في أيام الشاه عباس الثاني . ولما كان ميزان وارداتهم قد انخفض أيضا بسبب الحروب التي كانوا يخوضونها في أوروبا ، كما أن رونق تجارة منافسيهم الانجليز والفرنسيين كانت قد ازد هرت ، لهذا فان الارباح التي كانوا يجنونها من تجارتهم مع ايران أصبحت لاتذكر .

وكان التجار الهولنديون يستكون دائما من أن أتباع الشاه يعطونهم

مافي مخازنه من الحرير السئ الذي لايباع ولكن المسئولين الايرانيين لم يهتموا بهذه الشكوى ولهذا حاولوا سنة ١٠٩٧ هـ (١٦٨٦م) اللجوء الى القوة مرة أخرى وتخويف الحكومة الايرانية فارسلوا بعض السفن الى الخليج وضربوا ميناء بندر عباس بالمدفعية واستولوا على جزيرة قشم ، ولما كانت ايران لا تستطيع مجاراتهم في قوتهم البحرية لذا لجأت الى السياسة فاعطتهم وعدا طيبة . ولكي تظهر حسن نيتها اقترحت ارسال مندوب خاص الى اصفهان وخذع الهولنديون وسارعوا بارسال شخص اسمه فان هيغل(١) مع كثير من المرافقين الى اصفهان وقد بقي هذا الشخص ثلاث سنوات في اصفهان لم يساله خلالها أحد لماذا جئت فاضطر في النهاية الى اعادة جزيرة قشم الى ايران لان الحفاظ عليها كان يكلف الشركة نفقات كبيرة كما أنفق مبلغا كبيرا حتى حصل على اذن بالعودة ويوم منحه الشاه اذن العودة قال « لم يكن من اللائق لقوم من التجار أن يطلبوا من ملك تحت هدير المدافع ».

وبعد عام أيضا أي سنة ١١٠٢ هـ (١٦٩١ م) أرسل الهولنديون مندوبا فوق العادة اسمه لينين(٢) مع كثير من التحف والهدايا الى بلاط الشاه سليمان جدد شكواهم ومطالبهم كما طلبوا من الشاه أن يمنحهم تخفيضا في ثمن التحرير . وعندما استقبل الشاه السفير الهولندي وعده بتخفيض قدره ٣٠ أكو في كل بالة حرير ، ولكنه لم يعطه أي سند في يده ، ولهذا فعندما عاد السفير الى مدينة لارهدد بأنه سوف يقلب بسفنه مؤاني الجنوب رأسا على عقب ، ولكنهم في البلاط الايراني كانوا يعرفون أن هذا التهديد لن يكون له معنى مع وجود السفن الانجليزية والفرنسية في الخليج .

ويبدو أن حركة تصدير الحرير الايراني في عهد الشاه سليمان لم تكن مزدهرة كما كانت من قبل لانه بالاضافة الى أن الهولنديين قللوا من تصديره فان الحكومة الجوركانية في الهند أيضا منعت وروده الى الهند كما أنه لم يكن رائجا في البلاد العثمانية . وفي ذلك الوقت كان محصول الحرير الايراني بنسج أغلبه في مصانع اصفهان وكاشان وتبريز ومشهد ويستهلك داخليا (٣) .

Van Leenen

(٢)

Van Heuvel

(١)

(٣) كان أغلب حرير ايران ينتج آنذاك في أقاليم جرجستان (جورجيا) وخراسان وكرمان وخاصة في جيلان ومازندران وجرجان

علاقات ايران مع شركة الهند الشرقية الهولندية

في عصر الشاه السلطان حسين

كما ذكرنا أخذت قدرة ونفوذ الهولنديين تزول تدريجيا في الخليج وتقل تجارتهم مع ايران . وبعد موت الشاه سليمان أظهر خليفته الشاه السلطان حسين ميله للانجليز . وذات يوم من سنتي ١١١٠ أو ١١١١ هـ ذهب مع جماعة من نساء حرمه الى المركز التجارى الانجليزى في اصفهان فانفق المسؤولون عن الشركة نحو ١٢ ألف جنيه لاستقباله ولهذا منح الشاه لرئيس المركز خلعاً من الملابس وحصاناً وسيفاً مرصعاً كما أمر بدفع الرسوم الجمركية المستحقة لهم عن عام من ايراد بندر عباس والتي كان قد تأخر دفعها ، كما منح مندوبى الشركة امتيازات مهمة أخرى ، ولكنه رفض الذهاب الى المركز التجارى الهولندى عندما دعاه رئيسه لزيارته أيضاً .

منذ ذلك الوقت أخذت حيثية الهولنديين واعتبارهم في ايران في الزوال ، حتى أنهم عندما طلبوا بعد هذا بقليل بناء قلعة لهم في بندر عباس للحفاظ على مصالحهم فان الحكومة الايرانية لم تسمح لهم ومنعتهم .

وفي سنة ١١٣٤ هـ عندما كانت ايران تتعرض لهجوم الافغان هجم جماعة من البلوتش على كرمان واقلبيسم فارس واستولوا على مدينة لار

=

وكان محصول هذه الولايات سنوياً نحو ٢٢ ألف بالة وكانت البالة تزن ٢٧٦ ليفر فرنسي (الليفر ٤٩٠ جم تقريباً) وعلى هذا كان انتاج ايران من الحرير نحو ثلاثة آلاف طن . وكان هذا الحرير ينقسم الى أربعة أنواع ، الأول الحرير الشيروانى الذى كان يأتى من شيروان ويسمى باسمها وهو أردا أنواع الحرير الايرانى وكانوا يسمونه في أوروبا « أرداش » والنوع الثانى الحرير الخروارى وهو أفضل قليلاً من الأول وكان أكثره ينتج من جيلان ولاهيجان ولهذا كانوا يسمونه في أوروبا حرير ليجيا Legia والثالث اسمه كخددا بسند وهذا الاصطلاح يطلق على الاشياء المتوسطة والرابع وهو الشاه بسند وهو أحسنها .

وكانت جيلان تنتج عشرة آلاف بالة من بين الاثنتين والعشرين ألفا السابق ذكرها وتنتج مازندران وجرجان الفين وتنتج من أذربيجان والمناطق الغربية ستة آلاف وقرباً من وجورجيا أربعة آلاف بالة .

وأرسلوا أربعة آلاف من فرسانهم للاستيلاء على بندر عباس ، ولهذا اضطروا الهولنديون والانجليز لتقوية دفاعات مراكزهم التجارية ونصبوا المدافع على اطراف عماراتهم ، وعندما هجم البلوتش في ٢٥ صفر على الميناء ابعدهم عن مراكزهم التجارية باطلاق المدافع عليهم ، ولكن أحد مخازن المركز التجارى الهولندى نهب وسقط مايقرب ثمنه من ٢٠ ألف جنيه من البضائع في أيدي المهاجمين . كما قتل اثني عشر هولنديا وجرح نحو ١٠ أشخاص .

الى هنا تنتهى العلاقات الهولندية مع ايران في العصر الصفوى ، أما علاقاتهم في العصور التالية فيمكن ايجازها فيما يلى :

في زمن استيلاء الافغان على ايران (١١٣٥ هـ - ١١٤٢ هـ) أغلقت المراكز التجارية الانجليزية والهولندية والفرنسية وغيرها في اصفهان واضطربت احوال ميناء بندر عباس وما حوله . فمن ناحية استولى شيخ رأس الخيمة على ميناء باسعيدو في جزيرة قشم وتسبب في كساد تجارة بندر عباس الى أن قامت السفن الانجليزية بحربه سنة ١١٤٠ هـ وانتصرت عليه . ومن ناحية أخرى هجم الافغان سنة ١١٤١ هـ على إقليم فارس مرة أخرى واستولوا على عاصمته شيراز وأرسل قائدهم المدعو ربردست خان جيشا الى بندر عباس ولكن الاوربيين قاوموهم فاكتفى الافغان بأخذ بعض المون والعودة ، وفي هذا الوقت استولى الهولنديون على جزيرة هرمز ولكنهم تخلوا عنها بعد ذلك بسبب معارضة الانجليز .

أسس الهولنديون مركزا تجاريا في ميناء بوشهر في عهد نادر شاه أفشار ولكنهم أغلقوه بعد بضع سنين ثم أعادوا فتحه سنة ١١٦٠ هـ . وكانوا قبل هذا قد أنشأوا فرعا لهم في البصرة وكانوا يجلبون التجارة عن طريق البر والبحر وخاصة المنسوجات الصوفية التى كانوا يجلبونها عن طريق حلب ووجدت شهرة كبيرة .

وفي سنة ١١٦٥ هـ أغلق الهولنديون مركزهم التجارى في بوشهر مرة أخرى ، وكانوا قد أغلقوا مركزهم التجارى في بندر عباس قبل هذا بقليل لاضطراب الامن هناك وفي سنة ١١٦٦ هـ (١٧٥٣ م) استولى البارون

نيبهاوزن(١) رئيس المركز التجارى الهولندى فى البصرة على جزيرة خرج الواقعة فى الشمال الغربى لبوشهر وصمم على تقوية استحکامات هذه الجزيرة لتهديد البصرة ومدخل شط العرب .

وكان الهولنديون المقيمون فى البصرة قد اشتكوا الى رؤساء الشركة فى هولندا من سوء سلوك البارون نيبهاوزن وسياسته فوصل أمر فصله ولكن البارون فى ذلك الوقت كان قد أخذ من الامير ناصر حاكم بندر بوشهر سندا بانتقال ملكية جزيرة خرج الى الشركة للهولندية ، وقام برحلة الى باتافيا عاصمة الهند الشرقية الهولندية حيث أثبت هناك عدم خطئه أو تقصيره وعاد من هناك مع سفيفتين وخمسين من الجنود الى الخليج الفارسى واستولى بسهولة على جزيرة خرج وجلب اليها كثيرا من العمال من ايران والجزيرة العربية لتعميرها وأخذ فى تعمير القلعة وصيد اللؤلؤ فارتفع عدد سكان الجزيرة الذى لم يكن يتجاوز مائتين أو ثلثمائة فرد الى أكثر من اثنى عشر ألفا فى فترة وجيزة .

فى هذه الاوقات قام الامير مهنا حاكم ميناء ويجى الذى كان أبؤه يتوارثون حكم مناطق هذا الميناء بثورة ضد كريم خان زند وكان هو الذى نصبه هناك ، كما انه كان قد اختلف مع الهولنديين على دفع ايجار جزيرة خرج واستمر هذا الخلاف بضعة سنين .

وفى سنة ١١٦٦ هـ أغلق المركز التجارى الهولندى فى البصرة ، وبعد سنوات أخرى خرج الهولنديون من بوشهر وبندر عباس وبقيت جزيرة خرج فقط فى أيديهم حتى سنة ١١٧٩ هـ (١٧٦٥ م) .

وقد تولى شخص اسمه فان دير هولست الامر بعد البارون نيبهاوزن واستطاع بالسياسة وحسن التدبير أن يمنع الامير مهنا عن معاوضة الهولنديين ، ولكن فى سنة ١١٧٩ هـ اختلف الامير مهنا معهم مرة أخرى . وفى العام التالى حاصر القلعة الهولندية فى الجزيرة وبعد أن استولى عليها نهب كل ما بها من الاموال ووضع الهولنديين فى بعض السفن وأرسلهم الى باتافيا (جاكرتا) . وبفقد الهولنديين لجزيرة خرج انتهى عهد سيطرة الهولنديين ونفوذهم فى الخليج .

Baron Kniphausen

(١)

(م ١٥ - ايران)

- ٢٢٥ -

مراجع هذا الفصل

- ١ - رحلة بيترو دلا فالليه الايطالى ، فى ٨ أجزاء •
- ٢ - الخليج الفارسى تأليف السير آرنولد وبلسون طبع اكسفورد سنة ١٩٢٨ وترجمته الفارسية لمحمد سعيدى •
- ٣ - رحلة شاردان فى ١٠ أجزاء طبع سنة ١٧٢٣ م •
- ٤ - رحلة جان بابتيست تافارنيه فى جزئين ط باريس سنة ١٦٩٢ م •
- ٥ - وضع ايران تأليف سانسون المبشر المسيحى الذى زار ايران سنة ١٦٨٣ •
- ٦ - تنويج الشام سليمان تأليف شاردان •
- ٧ - رحلة كورنليوس دى بروين الرسام الهولندى الذى سافر فيه بين سنتي ١٠٧٣ - ١٠٧٧ هـ الى ايران وآسيا • مجلدان ط امستردام سنة ١٧١٨ م •
- ٨ - مقدمة شارل شيفر على كتاب « وضع ايران فى ١٦٦٠ م تأليف رفايل دومان •
- ٩ - رحلة أولياريوس Aulearius سفير فردريك دوق هلسنكاي الذى زار ايران سنة ١٠٤٦ هـ (١٦٣٧ م) • ترجمة ابراهيم دى ويكفو الفرنسى A. de Wicque Fort امستردام سنة ١٧٢٧ م •
- ١٠ - الشام عباس الاول تأليف لوسيان بلان ، باريس ١٩٣٢ م •
- ١١ - رحلة دون جارسيا دى سيلفا فيجورا ، باريس ١٦٦٩ م •
- ١٢ - عالم آراى عباسى •
- ١٣ - علاقات ايران واوروبا الغربية فى العصر الصفوى ، تأليف الدكتور خان بابا بيانى بالفرنسية - باريس ١٩٣٧ م •

الفصل الرابع

علاقات ايران والمانيا

العلاقات الألمانية الايرانية

علاقات ايران والمانيا في عصر الشاه اسماعيل الاول :

بعد أن جلس اسماعيل الاول على العرش وأسس دولة قوية في شرق الاراضي العثمانية ، دخل في حرب مع السلطان سليم خان الاول من سنة ٩١٨ - ٩٢٦ هـ ولهذا أخذ ملوك اوربا - الذين كانوا في ذعر واضطراب من قوة الاتراك العثمانيين وزحفهم على اوربا - في مصادقة للشاه اسماعيل والاتحاد معه . وسعى الشاه اسماعيل أيضا - بعد هزيمته في موقعة تشالدران (أول رجب ٩٢٠ هـ / ٢٣ أغسطس ١٥١٤ م) للاتحاد مع دول اوربا وخاصة مع المجر والمانيا وجمهورية البندقية الذين كانوا يجاورون تركيا من ناحية الغرب ويتعرضون لحملاتها وهجومها حتى يستطيع بهذا أن يهجم من الناحيتين على العدو المشترك ويقضي عليه .

ومن بين الرسائل التي أرسلها الشاه اسماعيل الصفوى الى ملوك اوربا رسالة كتبها في شوال ٩٢٩ هـ باللغة اللاتينية الى كارل (١) الخامس (المعروف بشارل كنت) (٢) وأرسلها مع الاخ بطرس الجبل لبناني الذي (٣) كان قد جاء من قبل ملك المجر الى بلاط ايران ونص هذه الرسالة مطبوع في مجموعة عنوانها : « رسائل كارل الخامس » وترجمتها للفرسية:

« الى كارل بن بطرس

اذا وصلت هذه الرسالة بمشيئة الله اليك فستعلم أن الاخ بطرس الذى جاء الينا برسالة من ملك المجر قرأناها بالسرور نحمله الان بهذه الرسالة ونأمل أن يسعدك وصولها ونحن ننتظر منكم باصرار كامل أن تدققوا في رجائنا . اذ يجب علينا في شهر أبريل (يقصد أوائل الربيع) أن نهجم من الجانبين على عدونا المشترك وهو السلطان العثماني وعلينا أن نحارب من شهر أبريل حتى يتم لنا النصر . وعندما جاعنا سنير من

Charles Quint

(١)

(٢) هذا الملك جلس على عرش اسبانيا سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) وفي سنة ٩٢٥ هـ ، (١٥١٩ م) صار امبراطور المانيا .

Frater Petrus de moute Lebano

(٣)

الملك لودفيج الثاني (١) عن طريق تبريز أرسلنا معه رسالة الى ذلك الملك ولم يحصل منه رد الآن . وكما سمعت من الرعايا العثمانيين فسان الملوك المسيحيين في حرب فيما بينهم وهذا ما يدعو للحيرة لأن خلافهم مع بعضهم يزيد من جراه عدوهم وشجاعته ، ولهذا كتبت لملك المجر لكي يتخلص من العداء مع ملوك أوربا لاننى أعلم عن اعداده جيشا لمحاربتكم وأرسل الرسل والرسائل يدعونى للاتحاد معه في هذا الامر ولكننى رفضت طلبه مرارا لاننى - كما تقولون - اريد أن أساطركم في السراء والضراء وكل من يترك حليفه وحيدا ويخونه يستحق جزاء الله القادر القهار ، ولهذا فمن الواجب أن تسارع باعداد الجيش وأمل الا احتاج لرسالة أخرى لتحريضك وتشجيعك لان المسألة بعيدة وارسل الرسائل صعب خاصة وأن السلطان العثماني يسيطر على البحار وارسل رسل آخرين غير هذا السفير ليس متاحا لنا ولاشك أنكم لن تثقوا في السلطان العثماني فهو شخص لا يرتبط باتحاد ولاينى بقسم ولايتوانى عن أفنائكم وهذا العدو القديم الناقض للعهد لن يستطيع طبعاً ان يخدع ملكاً عظيماً يحكم دولة المانيا ، .

تحريراً في شوال ٩٢٩ هـ

الحمد لله رب العالمين آمين

صديقك الشاه اسماعيل الصفوى بن الشيخ حيدر

كما ذكرنا فان هذه الرسالة مكتوبة باللاتينية ويبدو أن كاتبها هو نفسه الاخ بطرس اللبناني سفير ملك المجر . وقد وصلت الرسالة بعد سنتين الامبراطور المانيا ورد عليها كارل الخامس برسالة باللغة اللاتينية وأرسلها للشاه اسماعيل بواسطة القس المذكور وكان الشاه اسماعيل قد توفى قبل ذلك بعام وترجمة رسالة امبراطور المانيا كما يلي :

الى الامير صاحب السمو القوى الشاه اسماعيل الصفوى شاهنشاه ايران أخى وأعز أصدقائى .

(١) يبدو أنه لودفيج الثاني ابن فلاديسلاس السادس الذى ارتقى العرش سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) وهزم سنة ٩٣٣ هـ (١٥٢٦ م) فى حربة مع السلطان سليمان القانونى وهلك فى أحد المستنقعات أثناء هربه .

كارل الأمير صاحب السمو المؤيد بالعناية الإلهية إمبراطور السروم
والعالم المسيحي والمانيا وملك ممالك أسبانيا وأراضى سيسيل وناغار
وغرناطة وجزر البلبار والجزر السعيدة (١) والهندوبلاد الذهب الجديدة (٢)
وأمر البلاد النائية في أفريقيا والامارات التابعة في المانيا وفرنسا يرسل
التمنيات بالسعادة والتوفيق الى الملك الزاهد السعيد الشاه اسماعيل الصفوي
ملك ايران أخينا وصديقنا العزيز .

أيها الملك العظيم ويا أخى المحبوب حمل إلينا في العام الماضي شخص
أسمه بطرس وهو من قسس جبل لبنان المارونيين رسالة دعينا فيها منكم
للاشتراك في الحرب ضد العدو المشترك السلطان العثماني، ويجب أن ندخل
هذه الحرب معا في شهر أبريل ولكن من سوء الحظ ان الرسالة لم تكن قد
وصلتنا في الموعد الذي حددته جلالتم حتى يمكن أن يتخذ اجراء سليم .
وقد تعجبنا كثيرا من أن رسالتكم لم تكن تحمل ختما ولا توقيعاً كما جرت
العادة بين الملوك . ولهذا ترددنا فترة في اعتماد تلك الرسالة وقبول الرسول
ولكن نظرا للصداقة والود اللذين بيننا قبلنا الرسالة والرسول بشوق بالغ
واذا كان قد حدث تأخير فذلك لاننا كنا ننتظر باستمرار وصول أخبار
جديدة منكم وتحديد مصير الامر الخطير المطروح بيننا ولكن لم تصل أية
أخبار في هذه المدة بل سمعنا أنه أصابكم مرض وتوفيتم ونأمل أن تكون
هذه الاخبار عارية عن الحقيقة والخلاصة أننا في غم شديد لان جمع جيش
لقتال السلطان العثماني لا يخلو من مصاعب بالاضافة الى هذا فقد مرضت
بضعة أشهر مرضا شديدا كما أن ملك فرنسا (٣) أثارنا لحربه وقد لحقته
الهزيمة في الحرب الشديدة التي خاضها ضحنا ووقع هو أسيرا في أيدي
قودنا والآن وقد من الله علينا بهذا النصر ولما كنا نأمل في السلام والأمن في
الأراضي المسيحية لهذا فنحن على ثقة أنه لم يبق أمامنا من عمل سوى
أن نشرع في الحرب ضد الاتراك العثمانيين بناء على الرغبة المشتركة لنا .
ولهذا فاننا نعيد نفس الرسول الى جلالتم حتى يعرض على جلالتم

Les ilesfourtunees

(١)

(٢) يقصد أمريكا الجنوبية التي كانت آنذاك تخضع لاسبانيا .

(٣) يقصد فرانسوا الاول ملك فرنسا من ١٥١٥ - ١٥٤٧ م

(٩٢١ - ٩٥٤ هـ) .

الخطوات الخاصة برغبتنا في الحرب وانتم بدوركم عليكم ابلاغنا بأهدافكم عن طريق أشخاص تثقون فيهم والاسراع في هذا سيكون أكثر نفعا لاننا على استعداد تام للدخول في حرب هذا العدو الغاشم بقواتنا وقوات جلالتك ونأمل أن يهبكم الله تعالى الصحة والسلامة ويستجيب لكل ماتطلبون .

كتب في ٢٥ أغسطس ١٥٢٥ من ميلاد منقذنا المسيح في مدينة توليدو .
وليس بين يدينا شيء عن مصير الاخ بطرس في رحلته الثانية الى ايران فقبل أن يتحرك هو من المانيا متوجها الى ايران مرة أخرى كان التساه اسماعيل الصفوى قد توفي وجلس مكانه الشاه طهماسب الاول ، ولما كان هذا الملك شديد للتعصب ، وكان يعد ملوك أوروبا كفرة نجساء فيمكن توقع انه لم يجب على رسالة كارل الخامس .

بعد أربع سنوات (أى في جماد الآخر ٩٣٥ هـ - فبراير ١٥٢٩ م) ارسل كارل الخامس سفيرا ثانيا اسمه يوحنا بالبي (١) الى ايران ولكن الرسالة التي كان يحملها هذا السفير أيضا كانت معنونه باسم الشاه اسماعيل مما يدل على أن خبر وفاته لم يكن قد وصل الى أوروبا وكان مضمون رسالة امبراطور المانيا كما يلي :

صاحب السمو الأمير القوي أخى وصدقى العزيز ، أن خبر أعمال جلالتك واخضاعكم لكل امراء المشرق بقوة شجاعتكم وحسن تدبيركم وحكمتمكم قد وصلت الى اسماعنا ونعلم أن جلالتم تستخدم جيشك وقواتك دائما ضد العدو الخارجى وهو دائما ضد مخالفيه الظلمة والمستبدين ولما كنا نوافق جلالتم تماما فقد ارسلنا يوحنا بالبي من المقربين لنا ومن قادة جيشنا وأعيان بلاطنا الامبراطورى والمعروفين بالصدقة والوفاء لنا حتى يعرض عليكم أهدافنا ومقاصدنا الشخصية ويذكر لكم مطالبنا . فنرجو أن تطهئنا اليه وتعتمدوا عليه اعتمادا كاملا وتعهدوا مايعرضه هو الواقع وكما يتضح لكم فان هدفنا الحقيقى هو تأمين السعادة والحرية لعالم الانسانية . ومن أجل تحقيق هذا الهدف المبارك الذى هو غاية الملوك فانكم ستنهضون مع قواتكم لمساعدتنا ومن البديهي أنفسا اذا استطعنا أن نقوم بعمل يليق بمقامكم العظيم فاننا لن نتوانى عن القيام به وانجازه ونأمل أن يطيل الله في عمر جلالتم .

Johann Balbi

(١)

كتب في مدينة توليدو في ١٥ فبراير ١٥٢٩ م (١) المطابق للسنة العاشرة للمكنا على بلاد الروم وفي العام الرابع عشر لجلوسنا على العرش .
الى الملك المعظم القوى أقدر سلاطين المشرق الملك السعيد الزاهد
للشاه اسماعيل الصفوي شاهنشاه ايران صديقنا وأخينا العزيز .

وكان بالبي مكلفا بصفة خاصة بشرح فتوحات كارل وحروبه مع فرانسوا الاول وأسره الى ملك ايران ويذكر له أن امبراطور المانيا أطلق سراح ملك فرنسا بشرط أن يأتي ملك فرنسا بنفسه لمعاونته عند قيام الحرب مع السلطان العثماني ، ورغم وجود ابنه رهينتين في بسلاط الامبراطور فانه غدد اتفاقيات مع جمهورية البندقية (فينيسيا) والسلطان العثماني وهجم السلطان على المجر بتحريض من ملك فرنسا فقتل ملكها في هذه الحرب وهو زوج أخت الامبراطور وقد أصبح شقيق (٢) الامبراطور ملكا على المجر وقد صمم الشقيقان على الهجوم على السلطان العثماني أحدهما من ناحية إيطاليا والآخر من ناحية المجر وهما يأملان العون والمساعدة من ملك ايران وينتظران أن يرسل الملك الصفوي قوات الحدود الشرقية لمملكة السلطان العثماني حتى يتوجه جزء من الجيش العثماني الى هناك هذا اذا لم يكن الملك الصفوي مستعدا لخوض الحرب ضد السلطان العثماني على الأقل .

وقد توجه يوحنا بالبي الى ايران عن طريق البحر الأبيض والشام وحينما وصل الى حلب أرسل منها رسالة الى الامبراطور يخبره فيها بموصوله الى تلك المحينة وأنه ينتظر الفرصة المناسبة للسفر منها الى ايران وذكر في هذه الرسالة خاصة أن شاه ايران قد تشرع في الحرب مع السلطان العثماني (٣) وهو الوقت الذي يجب أن يخوض فيه الامبراطور الحرب مع الأتراك أيضا . ولكنه لم يشر في خطابه الى وفاة الشاه اسماعيل واعتلاء للشاه طهماسب العرش . وكتب هذا السفير رسائل أخرى الى الامبراطور

-
- (١) يطابق ٦ جمادى الثاني ٩٣٥ هـ
(٢) يقصد فردناند الاول الذي أصبح ملك المجر في سنة ١٥٢٦
(٩٣٣ هـ) وأصبح امبراطور لمانيا بعد أخيه سنة ١٥٦٦ (٩٦٣ هـ) .
(٣) يبدو أنه يشير الى حملة للشاه طهماسب على بغداد سنة ٩٣٥ هـ / ١٥٢٩ م ، واستيلائه عليها من يد ذي الفقار الذي كان قد أعلن الاستقلال .

أنشاء الطريق لم تتضمن أى منها أشياء هامة • ولانعلم نتيجة رحلته
ممصبلات العلاقات الايرانية - الالمانية منذ ذلك الوقت حتى عصر السّاه
عباس الكبير •

علاقات ايران والامان في عصر

الشّاه عباس الأول

كما ذكرنا في فصل العلاقات بين ايران وأسبانيا والبرتغال ، فسان
الشّاه عباس كان قد أرسل السير أنتوني شيرلى الانجليزى وحسين على بك
بيات سنة ١٠٠٧ هـ (١٥٨٩ م) للعمل على الاتحاد مع حكام أوروبا ضد
السلطان العثماني وعقد اتفاقيات لبيع الحرير لايرانى • وقد توجه السفيران
— كما قلنا — عن طريق روسيا ، وبعد اقامة ستة أشهر في موسكو
غادراها يوم عيد الفصح سنة ١٦٠٠ م (شوال ١٠٠٨ هـ) متوجهين الى
المانيا •

وقد سلكت البعثة طريق ميناء أرخانجلسك وشمال أوروبا وسواحل
النرويج الى ميناء شتود (١) في مصب الالب (٢) ، ومن هناك ذهبوا الى ميناء
ايمدن (٣) حيث استقبلهم دوق أولنبورغ (٤) بكثير من الترحيب والحنوّة ،
ثم توجهوا الى مدينة براغ عاصمة دوهيميا التي كانت آنذاك مقسّرا
لامبراطور ألمانيا • وحينما علم رودلف الثّانى امبراطور ألمانيا بوصول
سفيري الشّاه أرسل ثلاث عشرة عربة مع مجموعة من القواد وكبار رجال
القصر وخمسة آلاف جندي لاستقبالهم ، وقد تلقاهم الامبراطور بكثير من
الترحيب والتعظيم واختار لكل منهما منزلا جميلا بالقرب من البلاط الملكى •

بقى حسين على بك بيات وأنتوني شيرلى ما يقرب من ستة أشهر في
براغ كانا فيها ضيفين على الامبراطور ، وقد قبل رودلف الثّانى اقتراحاتهما
بشأن الاتحاد مع الشّاه، عباس ضد الاتراك العثمانيين بشيء من الاحتياط ،
كما حاول ثنى السفيرين عن عزيمتهما زيادة بقية ملوك أوروبا واقناعهما بارسال
رسائل الشّاه عباس الى هؤلاء الملوك عن طريق مبعوثين مخصوصين ،

Emden (٣)	Elbe (٢)	Stode (١)
Olde Nburg		(٤)

ولكن السفيرين لم يقبلا عدا وحصولا على اذن منه وسامرا في ربيع ١٦٠١ م
(١٠١٠ هـ) الى ايطاليا لزيارة بابا روما .

وعندما ودع امبراطور المانيا بعثة السفراء الايرانية اعطى السفير
انتوني شيرلي خمسين اثناء مختلفا من النخمة والفي (١) دوقة المانية لنفقات
سفره . كما اعطى لحسين على بك بعض الهدايا ، واعطى لكل واحد من
المرافقين كاسا من الفضة المحلاة بالذهب ومائتي دوقة .

وقد توجهت البعثة من براغ الى نورمبرغ احدى مدن دوقية بايرن .
وقد استقبلوا هناك استقبالا حافلا ، وبميت البعثة أربعة أيام في ضيافة
حاكم المدينة وعند مغادرتها اعطى لكل من انتوني شيرلي وحسين على بك
كاسا ذهبية . وقد ذهبت البعثة عن طريق أوجسبورغ (٢) الى ميونيخ
عاصمة بايرن وقد استقبلهم ويلهيلم الثاني المعروف بالراهب (٣) دوق بايرن
الذي كان قد تخلى في تلك الايام عن منصبه استقبالا عظيما - ثم غادرت
السفارة ميونيخ - كما سبق ان ذكرنا في فصل العلاقات الايرانية الالمانية -
الى ايطاليا وروما .

سفارة اتين كاكاش الى ايران :

بعد سفر البعثة الايرانية من براغ ارسل رودلف الثاني امبراطور
المانيا سفارة الى ايران لكي تتقف على حقيقة اهداف الشاه عباس وتحقق
اتحاد الدولتين ضد السلطان العثماني . وكانت رئاسة هذه البعثة لاحد
اعيان ترانسلفانيا وهو اتين كاكاش دي زالونكني (٤) : وكانت لدى هذا
السفير تعليمات بأن يعقد معاهدة مع الشاه عباس الاول ضد السلطان
العثماني ، ويأخذ منه تعهدا بالآلا يتصالح مع العثمانيين مالم يسترد مدينته
تبريز ، كما كان مكلفا بأن يتباحث مع قيصر روسيا بشأن اتحاد ايران
والمانيا ضد السلطان العثماني ويدعو القيصر للاشتراك في هذا الاتحاد .
غادر اتين كاكاش ومرافقوه مدينة براغ في الثامن من ربيع الاول

(١) قيمة الدوقة كانت بين ربع وثلث دولار حاليا .

Augsburg (٢)

Wilhelm II Le Pieux (٣)

Etienne Kakash-de Zalonkemény (٤)

١٠١١ هـ (٢٧ أغسطس ١٦٠٢ م) ووصل الى موسكو يوم ٢٣ جماد الاول من نفس العام وبعد أن أنجز مهمته لدى قيصر روسيا توجه الى ايران وأبحر في سفينة من ميناء هستر خان وبعد واحد وثلاثين يوما وصل في السابع والعشرين من صفر ١٠١٢ هـ الى ميناء لنجروود (١) في جيلان ومن هناك أرسل مبعوثا الى الشاه عباس في اصفهان ليخبره بوصوله كسفير . فكلف الشاه عباس روبرت شيرلي لاستقبال السفير ومرافقيه . وذهب روبرت من اصفهان الى لنجروود حتى يصحبه مع مرافقيه الى الشاه عباس الذي كان آنذاك يعتزم الهجوم على اذربيجان واستعادتها من الاتراك العثمانيين . ولكن كاكاش وثمانية من أعضاء السفارة مرضوا مرضا شديدا بسبب سوء الغذاء والجو ، وعندما وصلوا الى مدينة لاهيجان (٢) توفي السفير وثلاثة من مرافقيه، ولكن كاكاش قبل وفاته كان قد فوض رئاسة البعثة الى سكرتيرة الخاص جورج تكتاندر فون ديرابل (٣) .

توجه تكتاندر ومرافقوه بصحبة روبرت شيرلي من لاهيجان الى قزوین وعندما وصلها لم يكن قد بقي من مرافقيه معه غير واحد اذ تخلف الاربعة الآخرون في الطريق بسبب الضعف او المرض . وفي قزوین سلمه روبرت شيرلي الى أحد كبار رجال ايران كي يحمله الى الشاه عباس الذي كان آنذاك في تبريز التي كان قد هاجمها بجيش عظيم ودخلها وأقام بها . ووصل تكتاندر الى تبريز في ١١ رجب ١٠١٢ هـ (١٥ ديسمبر ١٦٠٣ م) وطلبه الشاه على الفور لمقابلته . وكتب تكتاندر عن هذا اللقاء يقول :

« وصلت يوم ١٥ ديسمبر الى تبريز وكان الشاه عباس قد هجم على هذه المدينة بمائة وعشرين الفا من الجند وكان قد مضت عليه سبعة أيام منذ استولى عليها (٤) ودخلت المدينة في الثالثة بعد الظهر وكنت شديد الاعياء

(١) ميناء لنجروود على ساحل بحر قزوین في شمال ايران .
(٢) مدينة لاهيجان في اقليم جيلان جنوب بحر قزوین تشتهر حاليا بزراعة الشاي الايراني .

(٣) Y. Tectander Von der Jabel

(٤) يبدو ان السفير الالماني أخطأ في تاريخ استيلائه على تبريز اذ انه غادر اصفهان في السابع من ربيع الثاني ١٠١٢ هـ متوجها الى تبريز

من حمى الحصبة ومن تعب الطريق حتى أنني لم أكن استطيع ركوب الحصان دون مساعدة الغير . وكنا مضطرين أثناء الطريق للركوب لبلًا ونهارًا حتى نصل تبريز قبل أن يغادرها الشاه حيث أنه تركها بعد وصولي بثلثه أيام .

ولم أكد أترجل عن فرسي بعد وصولي للمدينة حتى طلبني الشاه لمقابلته ولم أكن قد وجدت الوقت لتناول الغداء وابدال ملابسى أو حتى إرسال الحصان الى الاصطبل وكنت قد بعثت مرافقى للسوق لأعداد الطعام فاضطرت لترك كل شئ وتوجهت لمقابلة الشاه فى القصر الملكى . وكان الشاه جالسًا على الأرض بين رجال قصره ومشاوريه ولما كانت ملائكة تقدم من ملابس الآخرين كما أنني لم أكن أصطحب مترجما فأننى لم استطع التعرف عليه ووقفت حائرا وعند ذاك تقدم أحد الايرانيين المسنين وأخذ يدى وقدمنى للشاه فركعت أمامه ثم قبلت يده كما كانوا أمرؤنى قبل هذا فأشار الى أن انهض ثم أخذ شخص ايطالى كان قد أسلم يتحدث معى بالايطالية فسألته أن كان يعرف اللاتينية فلما أجاب بالايجاب قلت له أن امبراطور الروم (أى امبراطور المانيا وايطاليا وغيرها) كان قد أرسل رئيسى كسفير الى صاحب الجلالة الايرانية ووصل الى مدينة لنجود فى جيلان ولكنه توفى هناك مع مرافقيه بسبب قلة الغذاء الجيد وعدم وجود المشروب فلم يكن هناك سوى ماء غفن ولحم ضأن فاسد وتخلف أربعة فى الطريق حين أشفروا على الموت . وقد أمرنى رئيسى حينما أدركته الوفاة أن أوصل رسائل الامبراطور الى جلالة الشاه الايرانى .

وحين وصل الحديث الى هذا طلب الشاه الرسائل منى ولكنها كانت قد بقيت فى صندوقى وحينما أردت أن أذهب لأحضارها لم يأننوا لى فاضطرت لاعطاء المفتاح الى أحد مستشارى الملك فذهب وأعصر الرسائل من سكنى وسلمها لى وكانت إحدى الرسائل الموجهة للشاه باللغة اللاتينية والاخرى بالايطالية كما كانت رسائل دوق موسكو الاكبر (القيصر) بهاتين

وفطم هذه المسافة الطويلة (نحو ١٢٠٠ كيلو متر) بجيشه فى ١٣ يوما ودخل المدينة صباح اليوم الرابع عشر ، كما أن المبعوث الالمانى بالغ فى عدد جيش الشاه عباس .

اللغتين أيضا فقدمتها الى الشاه مراعيًا القشربفات الرسمية اى الركوع وتقبيل
يد الشاه فأخذ الرسائل بنفسه باحترام ووضع يده على رأسى
وأجلسنى بالقرب منه ثم فُض الرسائل بنفسه ولكن قبل أن يقرأها أدخلوا
أحد الاسرى الاتراك متيذا بالسادسل فركع امام الشاه ثم وضعوا سيفين
امام النساء فعابنهما واحدا بعد الآخر وكان لاحدهما غمد مرصع أهدها لى
الشاه بعد ذلك ببضعة أيام واستقل السيف الآخر من غمده ثم أنهض من
مكانه ودون أن يبذو عليه أى تأترقطع رقبة ذلك الاسير الذى كان يستغيث أمامه ،
وقد ارتعدت كثيرا من هذا المنظر وخفت من أن يقطع الشاه رقبتى بالسيف الاخر
وقلت فى نفسى من الممكن أن يكون الامبراطور قد تصالح مع الاتراك العثمانيين
أو أنه كتب شيئا فى رسائله عن الصلح معهم وتضيق رقبتى بهذا * ولكن
النساء جلس مبتسمات والتفت الى وقال « هكذا يجب أن يفعل المسيحيون
بالاتراك وهو مالن اكف عن فعله » *

بعد هذا سلمنى الشاه لاحد رجال قصره لكى أسكن فى بيته وأرسل
المترجم الايطالى والرسائل الى منزله فترجمها المترجم أمامى الى اللغة
الفارسية * وفى صباح اليوم التالى أرسل الشاه حصانا عربيا كهديّة ، ثم
غادر الشاه تبريز بعد هذا بثلاثة ايام « (١) » *

وكان الشاه عباس يعترزم فتح أرمينا والقفقاز ، وكما كتب جورج
تكتاندر فانه رافق جيشه وذكر فى كتابه معلومات مفيدة عن الاستيلاء على
مدن أذربيجان وأرمينيا أو استسلامها تخرج عن موضوعنا * وبعد الاستيلاء
على قلعة ايروان أذن الشاه عباس لخليفة السفير الالماني بالعودة الى وطنه
كما أمر أحد رجال بلاطه وهو مهدي قلى بك بأن يرافقه حاملا ردودا على
رسائل قيصر موسكو وامبراطور المانيا ، وكتب تكتاندر عن هذا فقال :

« أحضرنى الشاه وقال لقد آن وقت عودتى الى جلالة امبراطور المانيا
حاملا ردود الخطابات وأنداك عين مهدي قلى بك لمرافقتى واحضار رد
الامبراطور ، ثم خلع على بخلعة من ملابسه مع حصان عربى وأعطانى
تسعمائة أكو (١) على أكثرها صور جلالة امبراطور المانيا وملك أسبانيا
كما أهدانى سيفا مرصعا » *

(١) رحلة جورج تكتاندر فمون ديريابل ترجمة سارل سيفر ص ٤٧-٥٠

تحرك خليفة السفير الالماني مع مهدي قلى بك ومرافقيهما من مدينة ايراوان متوجهين الى روسيا * فوصلوا موسكو بعد ثمانية أشهر تحملوا خلالها كثيرا من المشقة والتعب * وكان مهدي قلى بك مكلفا من الشاه عباس لشرح توغله وانتصاراته في الاراضي العثمانية لروبيس جود ونف قيصر روسيا ، ويشكر القيصر الروسى على المعونة التى قدمها له في هذا الد.

وقد التقى جورج تكتاندر والسفير الايراني في مدينة غازان بسفير ايراني آخر اثناء عودته مع مرافقيه كان الشاه عباس قد أرسله من قبل الى القيصر الروسى ، وكتب تكتاندر أن هذا السفير ذكر لهم أن القيصر الروسى أرسل عدة آلاف من حملة البنادق وبعض عربات المدفعية لمساعدة الشاه عباس ولكي تحاصر قلعة دربند (باب الابواب) وقد طلب من الشاه بصفة خاصة ألا يكف يده عن حرب السلطان العثماني *

وقد استقبل بوريس جودونف السفيرين الايراني والالماني بترحاب وافر وأرسل رسالة الى رودلف الثانى امبراطور المانيا مع تكتاندر شرح فيها علاقات الصداقة بينه وبين الشاه عباس ضد السلطان العثماني *

غادر مهدي قلى بك ومرافقوه موسكو في ربيع الاول ١١٠٣ هـ (أغسطس ١٦٠٤ م) وتوجهوا الى المانيا عن طريق بحر البلطيق *

وليس في يدى شىء عن رحلة مهدي قلى بك الى المانيا أو نتيجة مهمته هناك ولكن من المعروف أنه بقى فترة في براغ وأن أحد الرسامين المشهورين من الالمان اسمه اجيديوس سادلرس (٢) رسم له ولاحد مرافقيه من قواد ايران اسمه زينل خان شاملو صورة حوالى سنتي ١٠١٣ و ١٠١٤ هـ (١٦٠٤ م - ١٦٠٥ م) *

بعد هذا بسنوات اى في سنة ١٠١٦ هـ (١٦٠٨ م) أرسل الشاه عباس روبرت شيرلى كأخ له برسائل وهدايا كثيرة الى ملوك أوروبا ومنهم رودلف الثانى امبراطور المانيا - كما سبق أن ذكرنا في شرح علاقات الشاه عباس مع أسبانيا والبرتغال - وقد التقى روبرت شيرلى مع الامبراطور

(١) الاكو كان يعادل نحو ثلث دولار *

Agidius Sadlers

(٢)

في ربيع الاول سنة ١٠١٨ هـ (يونيو ١٦٠٩ م) بمدينة براغ وبقي مدة في بلاطه وحصل على لقب فارس (شفالييه) ولقب كونت بالاتن بسبب الخدمات التي أداها للعالم المسيحي عن طريق الحرب ضد السلطان العثماني . ثم ذهب من المانيا الى ايطاليا .

ومنذ ذلك الوقت ظل الشاه عباس ينتظر باستمرار اتحاد امبراطور المانيا مع بقية حكام أوروبا والدخول في حرب ضد السلطان العثماني ، كما ذكرنا من قبل ، ولأن امبراطور المانيا كان قد كتب اليه ووعده أنه لن يتصالح مع السلطان العثماني أبد فان الشاه عباس كان يحترمه جدا وكان يضع صورة له في مدخل غرفته الخاصة وكلما دخل الغرفة حتى رأسه احتراماً له ، ولكن عندما علم عن طريق جواسيسه الخصوصيين ان الامبراطور قد تصالح مع السلطان أحمد خان العثماني تأثر جدا وكان يكرر سخطه وعدم رضاه أمام رسل البابا وسفراء أسبانيا .

وليس بأيدينا معلومات مفصلة عن علاقات الشاه عباس والمانيسا بعد هذا وكل مانعلمه أن سفيرا من قبل امبراطور المانيا جاء في سنة ١٠١٨ هـ الى بلاط ايسران واقترح الاتحاد ثانية ضد السلطان العثماني . وكتب جلال الدين محمد اليزدي المنجم الخاص للشاه عباس ضمن وقائع ذلك العام يقول :

« ٠٠٠ في الثامن من رجب ١٠١٨ هـ تشرف بكتلون (١) المبعوث الالمانى بتقبيل الاقدام الملكية وقد رسالة البابا وملك المانيا ومضمونها « استعد لنرفع شر الروم (الاتراك) عن رعى أهل العالم » .

(١) كذا في النص الفارسي .

علاقات ايران والمانيا بعد الشاه عباس الكبير

لم تصل الينا معلومات كافية عن علاقة ايران والمانيا بعد الشاه عباس الكبير ولكن يتبين من كتب الرحلات والتاريخ فى تلك الفترة أن علاقات الصداقة كانت قائمة بينهما وكان اباطرة المانيا يسعون لاثارة الصفويين ضد العثمانيين . ولكن بعد وفاة الشاه عباس الاول - اى من عصر الشاه صفى الى عصر الشاه سلطان حسين - كان السلام والصداقة قائمين بين الدولتين العثمانية والايرانية . وكان ملوك الصفويين يتجنبون اثارة الخلافات والحروب مع العثمانيين ، وكتب أحد السياح الفرنسيين - الذى كان فى ايران فى عصر الشاه سليمان - عن السياسة الايرانية العثمانية يقول :

وصل سفراء المانيا وبولندا وموسكو الى ايران وطلبوا من الشاه سليمان أن يتعاون مع دولهم ضد العثمانيين ، واحضر المطران دى ابارنل (١) رسالة من امبراطوره الى شاه ايران فى هذا الصدد فرد عليه اعتماد الدولة الصدر الاعظم أن الشاه لارغبة له فى الاتفاق مع امبراطور المانيا لأنه عندما جلس على العرش اقترح على ملوك اوربا أن يتحدثوا معه ضد العثمانيين لكن الامبراطور وخلفاءه لم يردوا عليه والآن فقد تصالح الشاه مع السلطان العثمانى ووعد بعدم اثارة خلافات معه . فقال المطران أن الاتراك لم يتمسكوا بوعودهم أبدا وغالبا ماينقضونها فقالوا له لايليق بشاه ايران أن يجارى سوء عهد السلطان العثمانى ويفعل مثله .

فقال سفير بولندا أن الفرصة مواتية لاسترداد البصرة وبغداد وارضروم فقالوا له أن هذه المدن ليست أكثر أهمية من مدينة كامينيتك (٢) التى كان العثمانيون قد استولوا عليها من البولنديين .

'd' abarnel
Kaminietk

(١)

(٢)

وقال سفير موسكو أن السلطان العثماني قد انشغل في أوروبا مع أعدائه المسيحيين ويمكن بسهولة القضاء على دولته فقالوا له أن إيران ترغب في هزيمة السلطان العثماني وإضعافه ولكنها لا ترغب في القضاء عليه كلية لأن الدولة العثمانية تقوم كسد بين الدول الأوروبية وإيران ، وهي على أية حال تشترك مع إيران في الدين .

وفي اليوم الأخير للقاء السفراء بالشاه كرروا نفس مطالبهم ، فذكر لهم اعتماد الدولة صراحة « أننا لن نضع عصا في خلية النحل ، لأننا لو قمنا بمحاربة السلطان العثماني فإن القتار والأوزيك والمغول(*) أيضا سوف يهاجموننا بسبب الوحدة المذهبية بينهم وبين الأتراك العثمانيين (١) » .

وقد وصلت إلى أيدينا رسالة من الشاه سليمان تؤيد اتجاهه للمسلم وحذر حكومة إيران من الاتحاد مع ملوك أوروبا ضد العثمانيين ومما جاء بها « أما ما أشرتكم إليه من الحرب مع سلطان السروم (العثمانيين) فقد ذكرنا مرارا ملوك الفرنج والروس أن أسرتنا ذات التقاليد العادلة قد تصالحت مع ملوك تلك الدولة ولم يحدث منهم أي سوء خلال تلك المدة الطويلة ، ولهذا فإن الإقدام على حربهم في هذا الوقت يعد معصية لرضا الله الواحد ومخالفة لأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم » .

(*) يقصد بالقتار والأوزيك سكان شرق خراسان والتركستان وما وراء النهر أما المغول فهم ملوك الهند آنذاك وكانوا جميعا من أهل السنة الأماندر من الشيعة .

(١) رحلة سافسبون المبشر المسيحي الذي جاء إلى إيران سنة ١٦٨٣ م .

الفهرست

١	- مقدمة المترجم وهي موجز لتاريخ الدولة الصفوية مع
٥	ابرار جوانب العنف في هذه الدولة
٥	٢ - الفصل الأول : علاقة ايران مع البرتغال واسبانيا
	اول رحلة للبوكيرك الى الهند والخليج
٧	وصف مرمرز واهميتها وامراتها العرب
١١	حملة الفونسو دي البوكيرك على جزيرة مرمرز
١٥	احوال جزيرة مرمرز حتى عصر الشاه عباس الصفوي
١٨	بداية الحرب بين العثمانيين والبرتغاليين في الخليج
٢١	العلاقات الايرانية الاسبانية في عهد الشاه عباس الكبير
٢٣	سفارة اسير انتوني شيرلي الى ملوك اوربا
٢٥	مضمون رسائل الشاه عباس للوك اوربا
٢٨	السفارة في روسيا
٣٠	السفارة في المانيا
٣٢	السفارة في ايطاليا
٣٢	السفارة عند البابا
٣٤	السفارة في اسبانيا
٣٥	نهاية السفارة باحداث مؤسفة وقديما
٣٨	الاستيلاء على البحرين
٤٠	اول بعثة لاثونيو دي جوفيا الى ايران
٤٤	اول سفارة لروبرت شيرلي الى اوربا
٤٥	مقابلة ملك بولندا وامبراطور المانيا
٤٥	مقابلة البابا في روما
٤٦	روبرت شيرلي في اسبانيا والمشاكل التي واجهته
٤٨	روبرت شيرلي في انجلترا

- ٥٠ بديه قصه اسير انتونى شيرلى
- ٥١ رسالة انتونى شيرلى ورد الشاه عباس عليها
- انتونى شيرلى يتولى قيادة قوه بحريه اسبانية لحرب
- ٥٣ العثمانيين فى البحر المتوسط
- ٥٤ السفارة الثانية لانتونيو دى جوفيا
- ٥٦ الشاه عباس يحنى راسه لصورة امبراطور الماتيا
- ٥٨ رسالة الشاه عباس لمالك اسبانيا
- انتونيو دى جوفيا يفسد مسمى الصلح بين الصفيين
- ٦١ العثمانيين
- ٦٢ السفارة الثالثة لانتونيو دى جوفيا الى ايران
- ٦٤ قتل دنجيز بك بسبب افعاله فى سفارته
- ٦٥ هرب القس السفير لانتونيو دى جوفيا الى هرمز
- ٦٧ السفارة الثانية لروبرت شيرلى
- ٧٠ فشل روبرت شيرلى فى اسبانيا
- ٧١ سفارة دون جارسيا دى سيلفا فينجورا لايران
- ٧٢ وصف استقبال الشاه عباس للسفير الاسباني
- ٧٥ محاولات السفير الاسباني الفاشله للقاء الشاه عباس
- ٨٤ الاستيلاء على ميناء جنيرون
- ٨٦ تبادل الرسائل بين ملك اسبانيا والشاه عباس
- ٨٨ استقبال سفراء الهند وتركيا وروسيا
- ٩٣ الشاه عباس يفشى بعض اسراره للسفراء
- ٩٤ مهاجمات الشاه عباس وسفير اسبانيا وهنا جلوس على الارض
- ٩٧ مقدمات الاستيلاء على جزيرة هرمز
- ٩٧ قطع علاقات الصداقة مع اسبانيا
- ٩٨ بداية الصراع بين الانجليز والبرتغاليين فى الخليج
- ١٠٦ ملك اسبانيا يعرض مخازية العثمانيين واغلاق البحر الاحمر

١٠٢	• • •	غضب الشاه عباس من رسائل ملك أسبانيا
١٠٥	• • •	مقدمات الحرب الإيرانية ضد البرتغاليين
١٠٨	• • •	معركة بين سقن الانجليز والبرتغاليين في جاسك
١٠٩	• • • • •	هجوم البرتغاليين على جزيرة قشم
١١٠	• • •	اتحاد ايران وانجلترا ضد الأسبان في هرمز
١١٣	• • • • •	الاستيلاء على القلعة البرتغالية في قشم
١١٥	• • • • •	وصف جزيرة هرمز
١١٧	• • • • •	احتلال ايران وانجلترا لجزيرة هرمز
١٢٤	•	العلاقات الإيرانية البرتغالية بعد الاستيلاء على هرمز
١٢٨		مراجع هذا الفصل

الفصل الثاني

١٣٢	• •	العلاقات الإيرانية الانجليزية في العصر الصفوي
١٣٨	• •	العلاقات الإيرانية الانجليزية في عصر الشاه عباس
١٣٨	• • • • •	وصول الأخوين شيرلي الى ايران
١٤١	• • • • •	استقبال الشاه عباس لهما
١٤٧	• • • • •	سيرة روبرت شيرلي
١٥٤	• • • • •	اول سفارة لروبرت شيرلي في انجلترا
١٥٨	• • • • •	رسالة ملك انجلترا للشاه عباس
١٦٠	•	شركة الهند الشرقية وبداية علاقاتها مع ايران والخليج
١٦٥	• • • • •	سفارة ادوارد كنوك الى ايران
١٦٨	• • • • •	سفارة روبرت شيرلي الثانية الى اوريا
١٧٠	• • • • •	سفارة نقد على بك الى انجلترا
١٧٢	• • • • •	المشاجرة بين نقد على بك وروبرت شيرلي
١٧٥	• • • • •	سفارة توماس باركر الى ايران
١٧٩	• •	اتحاد ايران وشركة الهند ضد البرتغال والأسبان
١٨١	• • • • •	سفارة اليردورمر قطن

- ١٨٩ . . العلاقات الايرانية الانجليزية فى عصر الشاه صفى
١٩٣ العلاقات الايرانية الانجليزية فى عصر عباس الثانى وسليمان
١٩٧ . العلاقات الايرانية الانجليزية فى نهاية العصر الصفوى
١٩٨ . العلاقات الايرانية الانجليزية حتى اوائل العصر اتاجاوى

٢٠٠ مصادر هذا الفصل

٢٠٥ الفصل الثالث - علاقات ايران وهولندا

- ٢٠٥ بداية تجارة الهولنديين مع دول المشرق
٢٠٧ بداية تجارة الهولنديين مع ايران
٢١١ . . العلاقات بعد وفاة الشاه عباس والهجوم على قشم
٢١٣ منافسة التجار الهولنديين والانجليز
٢١٥ سبب نجاح الهولنديين فى تجارة الشرق
٢١٨ مراكز شركة الهند الهولندية فى ايران
علاقات ايران وشركة الهند الشرقية الهولندية فى زمن الشاه
٢٢١ سليمان الصفوى

علاقات ايران وشركة الهند الشرقية الهولندية فى زمن

- ٢٢٣ السلطان حسين

٢٢٦ مراجع هذا الفصل

٢٢٩ الفصل الرابع - علاقات ايران والمانيا

- ٢٢٩ العلاقات فى عصر الشاه اسماعيل الاول
٢٣٤ العلاقات فى عصر الشاه عباس الاول
٢٣٥ سفارة اتين كاكاش الى ايران وماساة بعثته
٢٤١ . . العلاقات ايران والمانيا بعد الشاه عباس الكبير

رقم الايداع بدار الكتب المصرية
١٥٩٢ / ١٩٨٩ م



دار الثقافة للطباعة والنشر
٢١ ستايع كامل صديق بالمعجالة
ت ٩١٦.٥٦ - القاهرة

